مارون عبود

جُدُد وقُدَماء





دار الثقافة
بيروت

جُدُدٌ وقُدَماء

دراسات ، ونقد ، ومناقشات

مارون عبود

جُدُدٌ وقُدَماء

دراسات، ونقد، ومناقشات

دار مارون عبود
بيروت
ص. ب ٥٤٣
دار الثقافة

الطبعة الخامسة

١٩٨٠



١٩٦٢ - ١٨٨٦

للمؤلف

نقد

مجددون ومجترون
دمقس وارجوان
جدد وقدماء
نقدات عابر
على الطائر
على المحك
في المختبر

دراسات

بديع الزمان الهمذاني
الشيخ بشارة الخوري
امين الريحاني
رواد النهضة الحديثة
الشعر العامي
صقر لبنان
او
احمد فارس الشدياق
زوبعة الدهور
او
ابو العلاء المعري
المحفوظات العربية
ادب العرب
الرؤوس

قصص

توادوسيوس قيصر
جواهر الاميرة
الامير الاحمر
فارس آغا
ربة العود
رينيه وآتالا
الحمل

تمثيليات

اشباح القرن الثامن عشر
كريستوف كولومب
مجنون ليلى
الأخرس المتكلم
مغاور الجن

اقاصيص

اقزام جبابرة
وجوه وحكايات
احاديث القرية

اجتماع

الاكليروس في لبنان
سيرة البابا بيوس
كتـــاب الشعــب
سبـــل ومناهـــج
تـــذكار الصبـــا

نقد سياسي

قبل انفجار البركان
حـــبر عـــلى ورق
شبـــاح ورمـــوز
مـــن الجـــراب

تاريخ

بيروت ولبنان (جزءان)

شعر

زوابع

كتب ستصدر

تمثيليتان اذاعيتان
علوم اللغة العربية
العجول المسمنة
الراهب اللبناني
كتـــاب الخدة
عيـــد الشجرة
الاســـيران
من كل وادٍ عصا

لم نكن في أيامنا ننتقد بنزاهة كما يجب . كانت تأخذنا في بعضهم هوادة ، أحياناً ، فكم غضضنا النظر ، وكم غمرنا العالم والمتعالم بفيض من التقريظ والثناء .

ان واجب الناقد هو ان يعرف كيف يحدد الخطأ ، وان ينتقد حيث يجب الانتقاد .

اناتول فرانس

الأدب الساخر

كما تقتضينا بعض الحفلات والسهرات طرازاً معلوماً من الثياب كالسموكن وغيره ، أو لوناً خاصاً على الأقل كالأسود أو الكحلي ، هكذا قضى نقادنا على أحفاد امرىء القيس ، فأمسى الشاعر كالقطار الحديـــدي ، ان تنكّب عن سكّته وخطوطه بضع سنتمترات ، تدهور وتحطّم .

وكما أن في اوروبا ثياباً معدة تُستأجر لتُلبس في الحفلات ، هكذا استعار شعراؤنا بزّاتهم من عند امرىء القيس ليمثّلوا بها في ديوان العرب .

بقي مخزن الملك الضليل مشرّع الأبواب مئات السنين ، ينتقي منه الغادي والرائح ثوباً على قدّه ، فتنفتح له أبواب القصور ، ويُهتك دونه الحجاب الصعب . وظلّت صفة الطلول قيد التجويد والتنقيح أدهاراً ، كأنها أحـــد اكتشافات باستور التي نجّت البشر من أعدائهم غير المنظورين .

وكان عنترة ، ذلك الغراب الغرّيد ، أول من شك في هذا المذهب الشعري . وما علينا لو سميناه : الطقس الأدبي ، فللشعراء طقوس يمارسونها بورع وخشوع . شك عنترة وآمن في مطلع مطولته المشهور :

هل غادرَ الشعراءُ من متردَّمِ　　　أم هل عرفتَ الدارَ بعد توهُّمِ

وكأنه لم يطمئن ، ففتّش عن مرعى لقريحته ، فرآه في جلده ، فاستغله ، والأرض السوداء مغلال .

واستيقظ العصر العبـــاسي الأول ، وهو عصر الثورة في الأدب العربي ،

فتفتحت عيون شعرائه الخلعاء على حضارة مجنونــــة بالترف والجمال ، ففطموا أنفسهم عن الحليب واللبن ، وعبدوا الأحمرين : الخمر واللحم . وكان شك ، وكان مجون ، وكانت حرية بعيدة المدى ، ولكن إلى أجل مسمى . فتقديس القديم من سجايا الناس الرئيسية ، وهو منبع العبودية .

ثم همدت تلك الثورة بانطواء سجل هذه العصابة ، وعاد الشعر بعدها إلى تزمته ، فخلع ثياب المرافع ليلبس البجاد المفروض ، فعاد الشعر إلى سمته ، لا يتعداه إلا بمقدار محدود ، فدار شعراؤنا على أنفسهم في حلقة ضيقة اختطها لهم القدماء ، كأنهم أجرام النظام الشمسي ، كل في فلك يسبحون .

وإذا كان النثر كالمشي ، والشعر كالرقص ، فجل شعرنا رقص الدراويش . اغراض موجزة كحياة البدوي . في ناقته تتجمع كل مرافق حياته ، من وبرها يكتسي ، ومن درها يغتذي ، وبفحمها يصطلي ... وهي مركبه إذا اسرى ، وخيمته إذا لذعه الهجير ، فمن يلومه إن وصفها جملة وتفصيلا ، ومن ذا يعنفه إن استبدت صورتها بخياله ، فتجلت لنا في تعابيره ؟ فلو لم تخصه الطبيعة بذوق سليم لأضاف : لله وبرها وبعرها ، إلى لله درها ، وأورثناها .

ليس هـــذا عجيباً ، ولكن العجيب الغريب هو ان يفرض اناس أوليون أساليبهم على من سكنوا الدور والقصور من ذريتهم ، فانحلت الشخصية العربية ، وذابت في خطة امرىء القيس ، فلم يخرج عليه غير نفر قليل .

وقف هذا النفر في باب الصيرة وتنشقوا الهواء النقي قليلا ، فلا يستسلمون إلى سجيتهـــم حتى يتذكروا الوقار والترصن المفروضين ، فيخلعوا مباذلهـــم ليندسوا في بزة الشعر الرسمية ، وهذا « مالوش » الأدب العربي و «فيلوكسيرا» الشعر .

تتراءى الشخصية في خلفـــاء امرىء القيس كوميض الحبــاحب في عتمة الغسق ، فيسخر طرفة طرفة عين ، ويتهكم زهير بآل حصن عابراً ، ويهزأ ابن حلزة باخوانه الاراقم مقتصداً ، ويرشد الحطيئة إيثاره العافية إلى ذاته ، من

حيث لا يدري ، فيقول لمهجوه التاريخي :

دع المكارمَ لا ترحلْ لبغيتِها   واقعدْ فإنكَ أنتَ الطاعمُ الكاسي

وانتشر نهار الاســـلام ، فاضمحلت ظلمات الجاهليــة ، وتراجعت لتقعد القرفصاء في دياميس الشعراء . لم ينسخ الدين الجديد روح الشعر الجاهلي ، فظلّ الأخطل وجرير والفرزدق جاهليين قلباً وقالباً ، أكبر همهم من الفن مضارعــة الأقدمين ، فعبروا عن الحياة الجديدة بالقوالب المعهودة ، اللهم إلا ومضات تقل عند الأخطل ، وتكثر عند جرير . أما الفرزدق فما انفك يقرع مروة الجاهلية وصفاتها . . .

أرسل الأخطل نفسه على سجيتها في هذه الأبيات :

ونجّى ابنَ بدرٍ ركضُه من رماحِنا   ونضاحةُ الأعطافِ ملهبةُ الحضرِ
كأنها والآلُ ينجــابُ عنهما   إذا أنغمسا فيهِ يجوبان في غمرِ
يسرُّ اليهـــا والرماحُ تنوشُه   فدى لك أمي ان دأبت إلى العصرِ
عقابٌ بفدّيهـــا وظلتْ كأنهـــا   عقابٌ دعاها جنحُ ليلٍ إلى وكرِ
تنوُّ بــلا شيءٍ شيوخُ مُحاربٍ   وما خلتها كانتْ تريشُ ولا تبري
ضفادعُ في ظلماءِ ليلٍ تجاوبتْ   فدلَّ عليها صوتَها حيةَ البحرِ

وهو لو نحا في شعره هذا النحو لترك في صحراء الشعر الجاهـــلي قطعاً من الرياض . أما جرير صاحب الهجاء الحلو المر ، كما نعته القدماء ، فكان أوقح من الأخطل وافتح عيناً ، فلم يحفل بجبروت السلطان وأبّهة سريره ، فضحك في حضرته مادحاً فقال :

هذي الأراملُ قد قضّيتَ حاجتَها   فمن لحاجةِ هــذا الأرملِ الذكرِ

وهزىء متغزلاً :

وتقول « بوزع » قد دببتَ على العصا   هـــلا هزئتِ بغيرنا يا بوزعُ

وامتاح البحور مازحاً :

ماذا ترى في عيالٍ قد برمتَ بهم   لم تحصِ عدّتهمْ إلا بعدّاد

كانوا ثمانين أو زادوا ثمانيةً لولا رجاؤك قد قتّلتُ أولادي

وهجا ساخراً :

زعم الفرزدق ان سيقتل مربعاً أبشرْ بطولِ سلامةٍ يا مربعُ

وقال في خصمه الآخر :

قال الأُخَيْطلُ إذْ رأى راياتِهمْ يا مار سرجسَ لا أُريدُ قتالا

وما زال ينحو هذا النحو ، كلما انفتح له مجال ، حتى نام عن السخر وتولى رعيه الأسد الأعمى ، فأطلق لذاته العنان واستولى على الأمد .

سخر بشار من كل شيء ، وفي كل شيء ، سخر في المدح ، وسخر في الرثاء ، وسخر في الهجو ، وسخر في الحديث وفي وفي .. فلم ينج من وخزاته المؤلمة وجراحاته الدامية الا من لا يعرفه .

تهكم مر ، وسخر مؤلم ، لا الصداقة تقي ولا الإحسان يعصم . غريب أمر هذا الضرير فقد بذ البصراء في كل ميدان ، إتخذ مما حوله مادة لصوره ، ولم تتوار شخصيته في مجالات القريض جميعها . فهو في جده شخصي ، وفي هزله شخصي ، وفي مدحه ووقوفه على الاطلال شخصي . نفس عاتية متمردة ، نفضت عنها رماد الماضي ، وأضرمت ناراً جديدة في هيكل الأدب .

ثم نام الجبار على أشواك تمرده نومة الأبد راسماً صورته للذرية في ثلاثة خطوط خالدة :

عميتُ جنيناً والذكاء من العمى فجئت عجيب الظنّ للعلم موئلا

وغاصَ ضياءُ العين للعلم رافداً لقلبٍ ، إذا ما ضيّعَ الناسُ حصّلا

وشعر كنورِ الروضِ لاءمتُ بينه بقولٍ ، إذا ما أحزن الشعر اسهلا

وآلت زعامة السخر بعده إلى المستهتر أبي نواس ، فضحك الأدب العربي حتى بدت نواجذه . وكانت ثورة أدبية قوّضت الخيام ، وكبّت اللبن ، وأحلّت الخوابي والدوارق على دست الحكم . وما أغنانا عن سرد شيء من شعر أبي نواس . فكل عربي يلم بطرف منه .

ويطوي الدهر مدرسة الخلعاء فيخلع الشعر طيلسانه ، ويستعيد عباءته ، فتتجهم الوجوه حتى يطلـــع ابن الرومي بسخره الذي يكشر له القاري، ولا يبتسم . ثم ينطوي العلم مع المتنبي ، ولو أسرف أبو الطيب في سخره لفـــاز بسهمي فاطمة امرئ القيس . ولكن كبرياءه أبت عليه الا التزمت والتوقر ، وقديماً جنت الكبرياء على الملائكة فبدلت الأجنحـــة الخضراء باذناب سوداء وآذان وطواطية ...

ولزم الشعر وقاره ، حتى الساعة ، فما بانت له سن وانتهت به هذه العبوسة إلى الجفاف فاليبوسة .

امـــا النثر فما نبه له شأن قبل الجاحظ . أنزله هـذا الزعيم العبقري منزلة الشعر ، فانفتحت بوجهه القصور . كانت عناكب الأقلام لا تنسج خيوطهـــا إلا حول رجال الحول والطول والأبهة والوقار ، فإذا بها في يد الجاحظ تدور حول عبد الرحمن واضرابه ، فخلق الأدب الشعبي . جد الجاحظ ضاحكاً ، وتفلسف ساخراً ، وحل أخطر المعضلات وأدقها هازئاً ، فكان كل من جـــاء بعده عيالاً عليه حقاً ، فهو استاذ الاصبهاني في أغانيه ، وهادي أبي العلاء إلى سلاح العميان وعتادهم ...

قرأت في ملحق لكتاب اليتيمة قال فيه مؤلفه أنه عرف في المعرة شاعراً ظريفاً ، يعني أبا العلاء . لم استغرب نعت أبي العلاء بالظرف ، فالرجل ظريف أي ظريف . ولئن لبس الثوب المفروض ليدخل ديوان العرب ، فقد خلعه في رسالة الغفران ووقف بين الخالدين .

ونام السخر نومة آل الكهف حتى أيقظه الشدياق في منتصف القرن التاسع عشر ، فكتب « الفارياق » و « الواسـطة » و « كشف المخبأ » فأخرج العقل العربي من دياميس الحريري وكهوف القاضي الفاضل ، فابتسم الأدب حيناً . ثم عاد إلى تجهمه لا يتجه زعماؤه إلى هذا الصواب كأنهم مسمّرون على صلبانهم ، ما خلا كاتباً واحداً طواه الموت منـــذ أعوام هو فيلسوف الفريكة ، فدبت

روح المرح » وفاضت الابتسامة على حفافي كتب رحلاته » من « ملوك العرب » إلى « قلب لبنان » .

ثم كانت الضحكات الغامضة النادرة في كلام الكاتب العبقري عمر فاخوري، رحمهما الله وخلف علينا ...

أدب الظل

كان أقصى أماني الأديب ان يشارف قصر ملك أو أمـــير ، والسعيد من ينفتح له الباب ويـــدلو من السدة والسرير ، حيث ينعم بعيش أخضر فيوهب ويهب حتى الغلمان والجواري والضياع ان صار وزيراً. فحسن التحرير والتحبير كان سلماً للوزارة كما قال المأمون لأحدهم حين جود كتاباً عرضه عليه .

وكذلك قـــل في الشعراء من أبي سلمى حتى شوقي . فالأدب ، وخصوصاً الشعر منه ، ما نبت وجن إلا في ظلال القصور ، وعنه نشأ هـــذا الأدب الذي ذقرأ — أدب الظل — فما أشبهه إلا بتلك النباتات التي تغرس في الاصص زينة الدار ، تصعر خدهـــا إذا هش لها نور النافذة الحليم ، وتستقيم اخادعهـــا إذا ضربتها الشمس ضربة فرزدقية ، فتعود إلى البوق كالحلزون .

فلا يلومن أدباء اليوم زملاءهم أدباء الأمس ، فلا يكون القماش إلا على هوى العصر . فصّل أسلافنا نسيج الكلام وفقاً للطراز المرغوب فيه ، فكان منهـــم الخياط الماهر ، وكان منهم كالذي خاط قباء لبشار فوقع في لسانه . فـــلا تظنن أنهم كانوا أقل عقلاً منا ، يقلدون ولا يطمحون إلى التجديد ، فكم تبرم زعماؤهم بشهوة امرائهم للمدح ، ففرفوا لهـــم الثناء من بحور الشعر حتى صار المديـــح كالعبث والسخرية .

انك تلمح الجديد في آثار هؤلاء الأدباء بين العتيق المعفن ، فكأنك في دكان « سمانة » فيه كل مـــا يحتاج اليه البيت . ولا غرابة فيما أقول ، فالشاعر أيضاً

كان من حوائج القصر ، كالهراج والنديم والسمير ، فالناس ألهية الناس .

فلو قرأت عمر بن أبي ربيعة ، وبشاراً ، وأبا نواس ، وابن الرومي ، والبحتري ، لرأيت ان كلاً منهم قال شعرين : شعراً أرضى به نفسه ، وشعراً رضي عنه كيسه . أنفق ما أجداه شعر الكيس على إغناء شعر النفس ، والمضي في الطريق الحديث الذي هداه اليه وجدانه الحكيم .

مساكين الشعراء ، فلا يغرك ما تقرأ في كتب الأدب عن الحفاوة بهم واعظامهم ، فقد كان يقف الشاعر بباب الأمير الشهر والشهرين ، والعام والعامين ، ولا تطأ رجله البساط ليقبل بين يدي سيد السرير ، وينشده قصيدة سداها الكذب ولحمتها التمليق ، وكم كان هؤلاء الأسياد يعبثون بالشعراء ، بل كم كانوا يئدون بناتهم ، فهذا صراخ ابن الرومي يجرح القلب على بعد العهد به ، فيقول :

رددتَ إليّ مدحي بعد مطلٍ وقد دنّستَ ملبسه الجديدا
وقلت امدحْ به من شئت غيري ومن ذا يقبل المدحَ الرديدا
ولا سيا وقد اعقبتَ فيه مخازيك اللواتي لن تبيدا
وما للحيّ في أكفانِ ميتٍ لبوسٌ بعد ما امتلأتْ صديدا

أرأيت ماذا تعقب خيبة الشاعر ؟ ! وإن تسمع بالأخطل المدلل فهذا واحد لا غير ، وقد مات ذلك الدلال بموت ممدوحه عبد الملك ، وعفى عليه عمر بن عبد العزيز ، فطرد الشاعر ، فانزوى في صحرائه القاحلة حتى مات ، وهو يذكر بطن الغوطة و « الخبز » الذي أتى ...

مساكين الشعراء ! مات المتنبي وفي قلبه جرح أليم من ضربة الدواة التي خلد مدادها سيف الدولة ، وان قال : فما لجرح إذا أرضاكم ألمُ ، فلا تصدقه ، فقد رافقه ذلك الألم إلى القبر ... وخيبة أبي نواس بالخصيب ، والمتنبي بكافور تنبئك كم كان يكدح قوالو الشعر في إدراك الرغيف ، فتركض ويركضون ، ويعلم الله من يسبق . وان شبعوا حمدوا الله على تلك النعمة وقالوا في الأمير

ما يزهى به كالغراب ، والجسور منهم كان يهجو إذا استبطأ العطاء ، فطوراً يأتيه وتارة يقضي عليه .

وما كانت حال الشعراء في غير أمتنا إلا كحالهم عندنا ، فهذا كورنيل يسترحم القصر ليجري على بوالو قليلاً من المال يتقوت به ، كما أوصى قبله أبو تمام امراء المعرة بابن البحتري ، فأكرموه على بذاذته ، وأخيراً نهض الغرب فأبى أن يكون كالدجاج ، يزرب في الحوش ، وينثر له الحب ، ويشرب الماء الآسن من الجرن ، فطار في الأفق الفسيح ، يفتش عن هواء طليق ، وشمس حرة ، وماء طهور . وألف الجنان ، فالهمته غناءً أطرب القصور والأكواخ ، وزأر – والشعراء أسد وطير – فارعد فرائص العروش . وشعر أنه ملك دولة – الرأي العام – فبسط عليها سلطانه ، وأوغل في طلب حريته ، وذاقت الأمم حلاوتها ، فتهافتت على ما يطبخ وينضج ، فكان للنابغ الثروة والسعادة والمجد . ألم يتوجوا فولتير قبل موته بأشهر ؟ ألم تمش فرنسا في مناحة هيغو الخ ...

أما المتطفل على موائد الأدب، في كل جيل وأمة ، فظل قلبه يتعصر مشتهياً عضة كسرة ، كاليعازار ، ولا يجدها . وان يمني على نفسه بالجلوس في حضن ابراهيم ، ولكن ليس في الأدب لهؤلاء المعاتيه جنة يخلدون بها .

أما عندنا ، فظل الأدب يتسكع في الظلال حتى كانت الحرب الكبرى التي نفخت في العالمين روحاً جديدة ، وخلقت أدباً جديداً ، فأدرك أدباؤنا أنهم خلقوا لغير التسول والشحاذة ، فأبت عليهم أنفسهم أن يظلوا راسفين في تلك القيود – الا الذين ما برحوا مداحين نواحين – فنحوا منحى جديداً في كل ألوان الأدب ، وان لم يعرفوا بعد بصنف خاص ، فانهم سيظفرون بالطابع ان فكروا بعقولهم لا بعقول جيرانهم كأكثر الناس ، وان عبروا بلغة جيلهم وزمانهم تعبيراً صحيحاً ، ولم يروا مثلهم الأعلى في تلك الرواسم ، التي يجدحون من سويقها ولا يتأبّون، ولم يخالوا الأدب كله في عبارة مقفعية ، وجملة جاحظية ،

وسَجعة همذانية . فالجاحظ الاديب الساخر لم تقر له الأجيال بالامامة إلا لأنه فكر بعقله ، ونطق بلسان جيله ، وأبى أن يتكلم كالمتقدمين ، فقال للناس : أنا أبو عثمان ، أنا الجاحظ ، ولست قساً ولا سحبان ، ولا اكثم بن صيفي .

لسنا نبحث الآن تطور الأدب ونهضته الحديثة — هذا بحث طويل كشهر الصوم ، وأنا صائم دائماً ولا أرتجي أجراً — ولكنها كلمة عرضت ، ساقنا اليها فرحنا « ببنك مصر » الواهب الألف الجنيه ، ولمن يأخذونها المنة والشكر . فلا عذر ، بعد اليوم ، ولا شكوى لأدباء القطر الشقيق . فالى الميدان أيهـا الجياد ، وأرونا فتحاً لا غزواً ، أرونا تأليفاً لا ترجمة ونقلاً .

قلنا فيما مضى للاستاذين الرافعي والعقـاد ان المستقبل للقصة ، فليتركا الشباب وشأنهم فيها ، فجادلا وماحكا لأن ليس لهما قصة . فما يقولان اليوم وقد رددت أجواء مصر صدى النفير العام . عفواً بل النفير الخاص ، ينفخ فيه بنك مصر داعياً الكتّاب إلى الجهـاد القلمي ، وما علينا نحن إلا أن نردد : نصر من الله وفتح قريب .

أية كلمة تفي بالثناء الواجب لبنك مصر . فتشت فما وجدت إلا كلامـاً مبتذلاً ، فلو كلنا المدح بالمدّ لمن حقق آمالنـا لقصّرنا ، فخير من المدح تمنيات قلبية لهذه المؤسسة ، وحث كل عربي ليجعلها بيت ماله فيستثمره ويفيد أمته ، فهي رافعة رأس العرب ، إن شاء الله .

كنا نحس ألمـاً حين نقرأ في صحف الغرب عن الجوائز الأدبية التي جلت صدأ العقول ، وفتحت للانتاج الفكري أبواباً ، فعقد القوم لكل لون من الأدب جوائز . أما نحن فكنا نلهو بالتفاهة ، كأن الأدب سباق اطفال يجريهم فكه في المضمار ، وللمجلي كرة أو ليمونة . .

فكرنا منذ أشهر بخلق جائزة ولو زهيدة ، وطرقنا باب كثيرين فعدنا من عندهم نردد قول الحطيئة :

لقد مريتكم لو أن درّتكم يوماً يجيء بها مسحي وابساسي

لم يخطر على بالنا أن نقرع باب « بنك » لعلمنا أن صناديق البنوك حديدية ، وليقيننا أنها لا تعني إلا « بن والى » حتى طلع علينا بنك مصر بهذه الاريحية . ويأتيك بالأخبار من لم تزود .

نعم أن الجائزة للكتاب المصريين ، كما يدل ما قرأت ، والموضوعات أيضاً قصص مصرية محضة ، فنحن لا يعنينا من يأخذ المال ، فسواء أعندنا مصرياً كان أم عراقياً أم مراكشياً ما دام اللسان عربياً . فكل ما نحلم به ونصبو اليه أن تربو ثروة الأدب العربي ويرزق مولوداً جديداً ولو انثى ...

وان كان لي مـا أقول في هذا الصدد فرجـاء إلى طلعت حرب باشا أن لا تكون لغة « الحوار » ، لأن القصص تفقد طرافتهـا متى عرضت في الأقطار العربية التي لا تفهم اللسان المصري العامي ، على ظرافته وحسن جرسه ، فكم كنت أتألم — لا لشيء إلا لأني لم أفهم — حين أسمع حديثاً تنطق به أشباح السينما المصرية .

أما الذين هززناهم للجائزة الصغيرة وظلوا جامدين كالصنم فليعذرونا ، ظننا بهم خيراً فازعجناهم ، وما علمنا أنهـم لا ينفقون مالهم إلا على جاه باطل ، وصيت زيف ، على موائد خضر ، ودفاتر غير دفاترنا السوداء ...

نحن لم نكلفهم أريحية بنك مصر ، فليتهم أرونا عذرهم ولم يرونا بخلهم ، ما طلبنا منهم إلا فلس الأرمـلة لأدبنا اليتيم ، فكنا من المفلسين ، والسادة معذورون لأنهم لم يتعودوا الانفاق على الأدب [1] ...

---

(١) كتبت يوم لم تكن عندنا جوائز .

فرح انطون

سيرته وآثاره وأثره
في مجلته الجامعة
فرح انطون القصصي
الدين والعلم والمال
الوحش الوحش الوحش
أورشليم الجديدة
مريم قبل التوبة

سيرته وآثاره وأثره

في صيف عام ١٩٣٧ أذيعت في القاهرة هذه الكلمة :

في الشهر القادم يكون قد مضى على وفاة فرح انطون خمسة عشر عاماً ، ويحسن برجال الأدب الذين يعرفون فضل هذا الأديب العظيم في النهضة الحاضرة أن يحتفلوا به . فإن في الاحتفال تنويهاً بألوان التجديد التي قام بها في توجيه الأدب الحديث نحو الثورة ، واعترافاً بفضله على التفكير المصري . ونحن لا نعرف أديباً ممن يؤبه بهم في مصر لم يتأثر بأحسن التأثيرات من فرح انطون ، وكثير من النزعات الحسنة في أدبنا يعود اليه . وقد كان دأبنا في كل فرصة أن نعترف بفضله ، ولذلك نحن ننتهز الفرصة الحاضرة لتنبيه الوجدان الأدبي في مصر إلى ضرورة الاحتفال بمرور خمسة عشر عاماً على وفاته .

سلامه موسى

هذه كلمة سلامه موسى في عدد حزيران من « مجلته الجديدة » عام ١٩٣٧. وسلامه هذا من رؤوس كتاب مصر ، أديب ثائر من الطراز الأول ، يبغض كل قديم حتى نفسه إذا عمر طويلا . ويرى الخير كله في الغرب الذي يبدل كل يوم ثوباً ، ويؤلمه الشرق المنكمش القابع في قميصه وسراويله كأنه السلحفاة . يحذو سلامه في العادات والآداب واللغة حذو مصطفى كال في الدولة . يريد أن

يلحقنا بالغرب في كل شيء ، حتى دعا إلى استعمال الحروف اللاتينية بدلاً من العربية ، وقلع الطربوش ولبس القبعة ، وحجته ان لبس البرنيطة يصيّر تفكيرنا غربياً ، كأنما عقل الانسان في رأس طربوشه ، كما يقول المثل اللبناني ...

ان سلامه يسير إلى التجديد طافراً ، ونحن نعجب بالكثير من آرائه الطريفة ، وان شجبنا دعوته إلى الحروف اللاتينية وما أشبهها ، أما الطربوش فحسبه أحمد حسَن الزيات نصيراً .

ليست هذه ساعة تحليل سلامه موسى وتصويره بالألوان ، ولكنها خطوط نرسمها ، لعلها تطبع شيئاً من صورته في أذهان قرائنا. فهذا الأديب الذي يريد أن يخلق مصر خلقاً جديداً يتم بحماسة رسالتين اثنتين: رسالة الشميل وصروف، ورسالة فرح انطون في الجامعة . وهو ينقل لنا في كل ساعة ما يبتدعه الغرب ، ويحسبنا « العقل الباطن » الذي فتن سلامه موسى ، ففتن به عقل العالم العربي.

لست أضع الأستاذ سلامه على محك الشدياق ، وابن خالويه ، بل أقول فيه كلمة قبل الانتقال إلى فرح انطون : ان سلامه موسى كاتب يجري إلى غاية ، وهدفه تجديد الشرق اجتماعياً وأدبياً . ومجلته التي يدل اسمها عليها نشرة ثمينة لا يسد مسدها غيرها ، وإذا انطوت — وقد انطوت — كان في الشرق فراغ كالفراغ الذي أحدثه انطواء جامعة فرح انطون ومقتطف صرّوف .

ان سلامه مجدد من مزراب برنيطته إلى شريط بوطه ، والأيام كفيلة بتحقيق الكثير من أمانيه . قد أحسن هذا الأديب بتذكير مصر بأديب أفضل عليها . وهو ، بعد الشدياق ، من رسل اليقظة الفكرية في الشرق كما قلنا عنه مرة في « عكاظ مدرسة الحكمة » وهذه كلمتنا بحروفها :

« وإذا نظرنا إلى المدارس الفكرية رأيناها أيضاً بنت هذا البلد الطيب — لبنان — فقبل الشميل وصروف لم يتحرك لسان في الشرق العربي بحديث النشوء والارتقاء ، وقبل فرح انطون لم يعالج أحد المشاكل الاجتماعية العويصة ، ففرح فتح باب التفكير الحر وشرّعه للناس ، ولكنه جاء قبل أوانه ، فحولته

الحاجة عن مجراه إلى مسرحي سطحي يكتب ليعيش الخ » .

وكتبنا أيضاً بتاريخ ٢٩ تشرين الثـاني سنة ١٩٣٤ في جريـدة « صوت الأحرار » ما يلي :

« وهذا فرح انطون ، ماذا لقي في هذا الوطن ؟ واخجلة التاريـخ منك يا أبا المدرسة الحرة ! فمن نشر آراء رنان ، وروسو ، وتولستوي ، وروسكين، ونيتشه ، وغيرهم قبل فرح؟ وماذا فعلنا نحن له غير الأغارة على آثاره التي اتخذ سويداء قلبه مداداً لتحبيرها ؟ فهذا المنفلوطي — غفر الله له — صديـق فرح ، قد قرظ قصة بولس وفرجيني التي ترجمها فرح ، وعملها قصيدة يوم كان ينظم الشعر ، حتى إذا مـا مات فرح ، شن الغارة على بيت صاحبه فسبى بناتـه وكساها ثوباً عربياً من طرازه ، فأفسد خطوطها ورسومها ، فصارت لا عربية ملحفة ولا فرنجية مشمرة » .

وفي ذاك المقال عتبت عتباً عنيفاً على خليل مطران ، لأنه كتب مقالاً في هلال حزيران سنة ١٩٣٤ عنوانه « رواد النهضة الحديثة» لم يذكر فيه فرح انطون ، وجبران ، وولي الدين ، ثم لمت فيه مؤلفي « المفصّل » لأنهم أغفلوا ذلك ، فقلت في فرح : « وفرح يحيا بآثاره الخالدة يوم يؤرخ الأدب تأريخاً نزيهاً لا عوج فيه » .

فليراجع المقال من يحب التفصيل ، أما نحن فقد طابت الآن نفسنا ، واليوم الذي ظنناه بعيداً كان قريباً جداً ، إذ قام أديب خطير كسلامه موسى ، بارك الله في عمره ، ودعا الغافلين إلى إحياء ذكرى فرح . ليس أبلغ في مجال شكرنا للاستاذ سلامه من الكلمة العربية المأثورة : الفضل يعرفه ذووه .

والآن فاننا نتساءل : إذا لبت مصر نداء أديبها الحر ، وشاءت أن تزور ضريح فرح انطون ، فهل تعرف أين هو ؟ هـل لفرح ضريح خاص ؟ أليس فرح في ضيافة أحد أنسبائه كبودلير قبل أن نهض أدباء الأمة الفرنسية وبنوا له ضريحاً ؟ فهل من يعمل هذا لفرح في مصر العزيزة ، منبع الخير والبركة ؟ .

ولكي نعرّف فرح انطون إلى شبابنا الذين يجهلونه — كما جهلوا الشدياق من قبل — لا بد من كلمة موجزة في سيرة حياته ، نكتبها ونسأل صديقنا الاستاذ جرجي نقولا باز ان يتفضل علينا بترجمة للرجل . فهو يستحقها كالذين يؤرخهم صاحبنا . ومن الرب نطلب أن يوفق إلى إلحاق نسبه بغسان أو قريش ... كما يفعل في كتابة « السِّيَر » غالباً .

ولد فرح في طرابلس سنة ١٨٧٤ وتخرج في مدرسة كفتين يوم كان جبر ضومط وانطون شحيبر استاذين فيها . كان أبوه من تجار الخشب في طرابلس ، فأراد أن يجعله مثله تاجراً ، فجرب فرح ثم أبى ، وعكف على مطالعة روسو ، وتولستوي ، ورنان ، وسيمون ، وكارل ماركس ، وبرناردشو ، وغيرهم . ودعي لرئاسة مدرسة للروم الارثوذكس بطرابلس فتولى ادارتها بضع سنين . وشرع يكتب في تلك الأثناء فأعجب الناس ، ورأى مجال القول ضيقاً في طرابلس ، فنزح إلى مصر سنة ١٨٩٧ ، وهناك أنشأ مجلة الجامعة التي ملأ صيتها الشرق وديار هجرة العرب ، وكانت بوق الحرية الصارخ في أذن الراقدين . ثم ضاقت عليه مصر، فنزح إلى نيويورك سنة ١٩٠٧ ، فقال أحمد محرم أحد شعراء مصر قصيدة في هجرته هذا مطلعها :

إنْ كنتَ لا تبغي لنفسكَ راحةً فأرحْ مطيّكَ والدنى وبنيها

وفي نيويورك وسّع البيكار ، فأصدر الجامعة : يومية بثماني صفحات ، واسبوعية وشهرية . ولكن اقامته لم تطل هناك فعاد إلى مصر وأصدر الجامعة — المجلة — سنة أو أقل ، ثم حجبها عن الناس . وانصرف فرح الأديب إلى تحرير الصحف الوطنية السياسية ، وأخذ يؤلف الروايات ويترجمها . ووضع الروايات التمثيلية الغنائية ، وألف جوقة منيرة المهدية فقامت بتمثيلها ، وأخيراً انضم إلى صفوف الوفديين المجاهدين ، فعاون الاستاذ عبد القادر حمزه في تحرير جريدة الأهالي إلى أن مات بغتة قبل صياح ديك ثالث تموز سنة ١٩٢٢ .

آثاره الأدبية

الجامعـــة	– مجلة شهرية أصدرها سبع سنوات .
فلسفة ابن رشد	– جدال بين فرح والإمام محمد عبده .
أورشليم الجديدة	– قصة فلسفية اجتماعية .
مريم قبل التوبة	– قصة اجتماعية مات ولم يتمها .
الوحش الوحش الوحش	– قصة خلقية لبنانية .
الدين والعلم والمال	– قصة .
بولس وفرجيني . الكوخ الهندي . لبرنردين ده سانبيار .	
اتالا	– لشاتو بريان .
نهضة الأسد	– رواية ديماس عن الثورة الفرنسية .
تاريخ المسيح	– لرنان لخصه تلخيصاً .

أما رواياته التمثيلية فعديدة : البرج الهائـــل ، ابن الشعب ، الساحرة ، اوديب الملك ، المتصرف في العباد ، صلاح الدين . مثّلها جميعها الاستاذ جورج أبيض .

كرمن ، كرمنينا ، روزينا ، تاييس . هذه الروايات الأربع مقتبسة مثّلها جوق منيرة المهدية .

مصر الجديـدة ، بنات الشوارع وبنات الخدور . روايتان غنائيتان مثلهما جوق آخر .

أبو الهول يتحرك . رواية غنائية وهي أبدع ما ألف في التمثيل ، ورواية ذات الورد » لدبياس .

أما ما اودعه فرح في « جامعته » فكنز ثمين ، بل ذخيرة للذين يرغبون في مرافقة الفكر الانساني واتباع تطور الخلق والدين . وفرح أول كاتب عرّف العرب بالفيلسوف الألماني نيتشه والمعلم كارل ماركس .

عندما قرأت في رسالة الزيات أن صديقي ورفيقي الأستاذ فيلكس فارس عزم على ترجمة كتاب فردريك نيتشه «هكذا تكلم زاراتو سترا » فرحت كثيراً لعلمي أن فيلكس يحذق اللغتين ، وهذا أول شرط الترجمة . ثم توقعت أن أقرأ لفيلكس كلمة يترّحم بها على فرح وينوّه به ، فإذا به يقول : « لم يفكر أحد بترجمة هذا الكتاب العظيم الخ .. » مع أني كنت أقرأ وفيلكس ما ترجمه فرح من زاراتوسترا وما كتبه من الفصول عن نيتشه وفلسفته .

ان في صدور أدبائنا حباً شديداً للاحتكار ورغبة في الاستبداد بالأصناف . ففي كل بلاد ألوف من الشعراء والقصصيين والمؤرخين والكتّاب ، ولكنهم لا يتزاحمون هذا الزحام المزعج ، ولا ينسى المتأخرُ المتقدمَ . وأول ضحايا هذه الأنانية الجائعة كان فرح انطون . فقد أكلناه ميتاً ، ونسيناه نسياناً مشيناً .

في مجلته الجامعة

كلما رأيت دير كفتين الناظر إلى طرابلس ، تذكرت فرح انطون . وكلما مررت في الشمال ، تذكرت قصته « الوحش الوحش الوحش » ، وتأملت الأمكنة التي وصفها هذا الأديب الثائر ، من دير حماطوره إلى الحدث والأرز .

فرح ابن الشمال ، ولد في طرابلس ، وتعلم بدير كفتين . رأى التعصب الديني في طرابلس والكورة والجبة ، فثار على محيطه – ومحيطه محيط الشرق كله – ثم أغرق في مطالعة كتب المحررين ، فخلع النير .

قال بول بورجه : « كل من يصفيه التفكير والمطالعة يتعرض لعدم الامتزاج بجماعته ، فأما أن يثور على بيئته التي يتألم منها ، أو يحاول الدخول في غيرها ، فهو كالنبتة التي تشق بجذورها الاناء الذي نشأت فيه ، فيجب ان تنقل منه . »

وهكذا فعل فرح ، نزح إلى مصر وأنشأ الجامعة . كانت في عامها الأول عثمانية تدعو الشرق إلى الالتفاف حول عرش الآستانة وتكرّهه باوروبا ، فكان فيها فرح شرقياً يحب الكثير من عقائد الغرب الاجتماعية . كان كالبستاني الخبير يوصّل ويطعّم . أذاع مبادىء جول سيمون ، بل أعلن في مقدمة مجلته أنها لسان حال هذا الفيلسوف ، ورأى معه أن تربية المرأة والنشء تمنع كل فساد ، فانصرف إلى بحث التربية فرآها في ثلاثة أقانيم : بدنية وعقلية وروحية ، وحيث لا تتجمع ثلاثتها يظل الإنسان ناقصاً .

ونظر فرح إلى التعليم فرأى المدارس كافية ، فكان أول الداعين إلى اصلاح

تربيتها وتعليمهـا ، لا إلى زيادة عددهـا ، والإكثار منها ... وأنشأ في السنة الأولى بابين يدلان على ذوقه السليم : الأول غذاء المعد القوية ، وفيه نشر حكم مفكري الشرق والغرب « وخصوصاً لابروير ، والثاني غـذاء المعد الضعيفة ، وهو للفكاهات والنوادر .

وما اطلّت الجامعة حتى قالت فيها مجلة الهلال : « ان الجامعة جاءت الشرق في إبان حاجته اليها » . ورأى فرح في القصة معلماً ومهذباً للناس ، فدعا إلى انشائها ، وألف قصة « الحب حتى الموت » ، أقامها دليلاً على أمانة المرأة المحصنة . وعرّب رواية البرج الهائل ، لتكون برهاناً على خيانة الفاجرة وقتلها النفوس اشباعاً لشهوتها .

ففرح انطون أديب اجتماعي قبـل كل شيء ، وفي كل شيء . في مجلتـه ، ومقالاته ، وقصصه ، ومسرحياته ، وهو رسول الديمقراطية في الشرق العربي ، نشر تراجم الرجال ، شرقيين وغربيين ، ليجعلها أمثولة للشرق الغافي . وكثيراً ما كان يذكر مزايا الحيوان ليبكّت أخـاه الإنسان ، وان ذكر خبراً علميـاً فليعجب بالعقل البشري ويتفاءل .

شكا في أول عدد من الجامعة قلة الايمان بالله وضعف الثقة به ، ولكنه نسي ذلك أخيراً حين اعتنق مبادىء نيتشه كما سيأتي. ولم يهمل فرح الشعر والشعراء، فهو أول من اطرأ أحمد شوقي، لا لأنه شاعر الأمير، بل لأنه رأى أنه سيكون عظيماً إذا كد واجتهد . ونشر كثيراً من سير الشعراء المتقدمين والمعاصرين حتى حشر الأمير عبد القادر الجزائري في هذا المضيق واورد شيئاً من نظمه .

فرح كاتب ثوري وعملي بروح رومنتيكية، فالتربية والمدرسة حديثه الدائم منذ مولد الجامعـة حتى موتهـا ، يشبهه من كتابنا اليوم الذين لهـم عقيدة لا ينفكون عنها الكاتبان الشهيران أمين الريحاني ويوسف يزبك ، وكلاهما يتفقان معـه في التأليف عن الثورة الفرنسية ، الريحـاني في نبذته ، وهي أول آثاره الأدبية ، ويزبك في (١٤ تموز) ، كما لا يختلفان عنه في المثابرة على خطة لا يحيدان عنها .

كل ما خطه قلم فرح انطون يتفق وروحه ، بل قل لم يكتب كلمة تخالف عقيدته ، وروحه الحية ظاهرة في جامعته ، فكأنها كتاب خـــاص لا مجلة جامعة .

طبع على نصرة الضعفــاء ، فما نشبت حرب البوير حتى كتب تحت عنوان « الترانسفال ظالمة ام مظلومة » سلسلة مقالات طار فيهـا على اجنحة الخيال ، وعنّف الانكليز تعنيفاً معقولاً ، وتكلم بلغة آشعيا وآرميا ينذر الدنيا بالويل . ثم رأى حاجة الشرق إلى معرفة سير أصحـاب الاديان فنشر المقالات الضافية عن بوذا وفلسفة الصينيين الخ ، فأثار الاذهان وفتح العيون .

وكان حرم السينودوس — المجمع المقدس — للفيلسوف تولستوي ، فقام فرح يكتب عن هذا المعلم العظيم . نشر سيرة حياته ، وحلل فلسفته ، ومحيطه ، ولخص رواية « البعث » رأس كتبه ، ثم اذاع مـــا دار حول « حرمه » من مناقشات ، ورده على المجمع ودفـــاع زوجته عنه ، وبعض رسائل تبادلها الفيلسوف ومعاصريه .

ففي الجامعة يتعرف القارىء رجال الفكر العظام ، ولا أظلم صاحبي فرح أنطون ان قلت — معرفة وجـــه — أو كما يلم ناظر السينما بما يعرض عليه من مشاهد . لخص فرح كتباً كثيرة في فصول ، وهو ان أساء إلى أصحابها والفن ، فقد أحسن إلى الجمهور ، إذ كان كمن يعطي المريض درهم كينا بـدلاً من حزمة قنطاريّون .

أرانا فرح برنردين دي سان بيار في الكوخ الهنـدي ، وبولس وفرجيني ، وشاتوبريان في أتالا ، وحدثنا طويلا عن الاسكندر ، وبحث نظرية داروين ، وتكلم عن الحلقة المفقودة ؛ ولم يهمل شيئاً حتى سكان الكواكب ، ولكن ليس بتعمق المقتطف ، فهدفه تنوير العقول وتعريفنـا باحبابه من الكتاب الغربيين مثل جون روسكن ، رسول الفنون الجميلة ، والمبشر بحب الطبيعة ، والمنادي ببدعة ملكة أيار — الاحتفال بعيد الربيع الذي نعظمه اليوم .

يري روسكن ان الفن ضرب من العبادة ، لان الانسان لا يبلغه إلا بعد فهم الطبيعة وحبها (ص ٥٦٧ سنة ثانية) أما رأيه الاجتماعي فينحصر في ان سبب الفساد والشقاء هو استبداد أرباب الأموال بالشعب ، وحفظهم هذا الاستبداد بواسطة المعامل والآلات .

وينشر قاسم أمين كتابه (المرأة الجديدة) فينصره فرح ويلخص الكتاب لقراء الجامعة كما يلخص أشهر الكتب العالمية ، ويعير هذا الكتاب اهتماماً عظيماً ، فيقابل بين أراء قاسم وجول سيمون. ويموت الحولي ، موسيقي زمانه ، فيكتب عنه فرح ويعتبره عظيماً ، ويتكلم بهـــذه المناسبة عن الطفل « أربولا » الذي صار موسيقياً في عامه الثاني .

هذا شأن فرح في كل مناسبة تعرض . اما حبه للتمثيل فشديد ، وقد كتب عنه كثيراً في الجامعة مناصراً هذا الفن الرفيع ، وان عدّه الزيات من الادب الخفيف في مجلة « الرسالة » .

وتدخل الجامعة في الحول الثالث فيصدّرها فرح بمقال « تاريخ الاندلس من أوله إلى آخره » فيستبكي الرافعي ، لينظم قصيدة ندية القافية . وكأنما كان أقصى هم فرح تعريف الشرق بالغرب ، فيلخص كتيباً لريدر كبلنغ ، وينشر مقالات علمية ترمي كلها إلى غرضه ، حتى اذا عرف أرنست رنان الشهير ، ترجم له ونوّه به تنويهاً عظيماً ، ونقل كتابه « حياة يسوع » مع مراعـــاة مقتضى الحال ... متصرفاً حتى في عنوان الكتاب فجاء أشبه بالشبيّة : « كتاب صلوات وتأملات روحية » .

ولم يلهه كل هذا عن شؤون مصر وسورية خاصـة ، والشرق عامة ، كما لم يغفل عن نشر سير العصاميين فيكتب سيرة فليكس فور بعنوان : « من معمل الدباغـة إلى رئاسة الجمهورية » ولا ينسى برتلو الكيماوي فيترجم له ويهتف : المجد للعلماء .

ولا يهاب النظر في الشعر ، على قلة بضاعته منه ، فيحدد حافـــظ ابراهيم

وأحمد شوقي تحديداً جديداً جيـــداً ، ويتكلم عن باكون وشكسبير بإسهاب مبتدئاً هكذا : « مشاهير الناس آلهة للناس في هذه الحياة ، ولكنهم آلهة لا تعبد إلا بعد الممات » .

وتحتفل فرنسا بذكرى ميلاد هيغو المئوية ، فيكتب درساً مطولاً يفتتحه بكلمة كاتب دنمركي شهير : « ان ظهور أعاظم الرجال في الارض منحة الهية من السماء » — كذا كان ظهورك يا فرح يرحمك الله — .

ويجول في الموضوع جولة صادقة كأنه من كبار النقاد . أقول هذا ولا أشك في انه ممن طالعوا كثيراً النقد الفرنسي في أهم مصادره . ولا يترك فرح مقالته هذه بلا استنتاج ، فيقول لكتاب الشرق وشعرائه : « ان رجلاً كهيغو لا ينبت من الارض ، ولا يهبط من السماء ، بل هو ينشيء نفسه بنفسه ، وذلك بالصبر والعمل والسهر (ص ٤٥٢ سنة ٣) .

قلت : هلا يسمع شعراؤنا الذين يريدون ان يكونوا كباراً غصباً عنا ؟

وقبل ان يختم فرح مقاله عن هيغو يتذكر مهمته التربوية فيدير وجهه صوب النساء ويقول لهن بلسان روستان : « أيتها النساء ، لا تهملن ولداً ، إذ من يعلم متى يمر في الارض ذلك الولد الذي سيكون الهاً . ومتى أخذتن رأس ولد كن لتقبيله فلا تضغطن عليه كثيراً فانه ربما كان هذا الرأس وحده يضم عالمـــاً عظيماً »

ويعطف على رنان فيعرب « حرمه » لحارميه ، وينشر صلاته المشهورة عند الاكروبول ، ثم جواب أناتول فرانس عليها بلسان آلهة الحكمة ، يوم الاحتفال بتمثال رنان . وهنـــا ينتقل فرح إلى دارة جديدة فيلخص فلسفة ابن رشد ويذكر محنته ، فتتجه الجامعة اتجاهاً جديداً تتجلى فيه أبهى خدماتها للفكر العربي ، وهي اذاعة اعقد المسائل والقضايا بلغة يفهمها كل قاريء ، فكان فيها فرح من اولئك الذين ينشرون العـــلوم بلغة القراءة الميسورة ؛ فما انتشر عـــدد ابن رشد حتى نشبت معركة جدلية حوله فينصرف فرح إلى الرد على

الامام محمد عبده .

خبرنا فرح بهذه المناسبة قال : « (وعصبت رأسي) كما يقال ، وانصرفت ثلاثة شهور إلى درس هذا الموضوع وحده حتى فقدت النوم والقابلية » . ان الأشهر الثلاثة التي صرفها فرح في الرد على الامام لا شبيه لها في التـــاريخ إلا مناظرة الخوارزمي والهمذاني ، بيد ان فرح انطون الشاب اظهر اسمى الاحترام للشيخ الذي يستحقه ، وهكذا ذاعت شهرة فرح ، الذي نسيناه ، في العـــالم العربي وتجاوزته إلى الغرب فطلب المتمشرقون تآليفه .

قال حافظ ابراهيم شاعر الامام في هذه المناقشة :

وانت لها إنْ قام في الغربِ مرجفٌ وانت لها ان قام في الشرق مرجفُ

يعني حافظ بالمرجفين : هانوتو وفرح انطون . امـــا فرح فعلق على هذا البيت بقوله : حافظ ، حافظ ، انك لم تحاسب نفسك لما نظمت هذا البيت .

وتدخل الجامعة في السنة الرابعة (١٩٠٣) فيبدأها فرح باذاعة الفلسفة الحسية ناشراً ترجمة أوغست كنت واضع ديانة الانسانية والعلم . ثم يلخص تاريخ الرسل لرنان . ويقترح على حكومة مصر احداث مدارس زراعية ، كما دعا السوريين في امـــيركا إلى الزراعة فيما بعد . ونظر فرح إلى السماء فلخص لقرائه شيئاً من كتاب فلامريون الفلكي الشهير . وظهرت اكتشافات بابلية فنشر سيرة حمورابي وشريعته وما احدثه اكتشاف الواحهـــا من قلق فكري وشك في التوراة . وترجم رسالة الامبراطور غليوم لاحد أصحابه العلماء فكأنما كان فرح مذياعاً ينقل خطة الفكر في العالم .

كان يعلن احياناً ولا ينجز ، لكثرة أشغاله ، واضطرابه العصبي . بـــدأ أشياء كثيرة ولم يتمها ، ككتاب فلامريون ورواية مريم قبل التوبة . وقصة اسبانية تحب عربياً ، وعد بها ولم ينشر شيئاً منها .

وفي هذه السنة ـــ الرابعة ـــ الف فرح ثلاث قصص اهداهـــا إلى قرائه . ونامت الجامعة على اثرها سنة كاملة حتى استيقظت في نيويورك سنة ١٩٠٥ ،

وهناك ارخى فرح لقلمه العنان فحيا تمثال الحرية تحية حارة ضمنها أصدق عواطفه الاجتماعية . وكتب بعدها عن عظمة أميركا فصولاً ضافية ، ودرس مدنيتها ، ولكنه لم ينس الشرق بل ظل يحن اليه . واستماله روسو فكتب عنه ونشر رسوماً عدة له ولمدام دي وارين التي أحبته . وعرب رواية ابن الشعب ونشرها متقطعة ، وفتح باباً جديداً نشر فيه روائع الفن التصويري . وكتب عن القصة فصلاً جميلاً (٣٠٦ سنة خامسة) وتحدث عن مشاهير اميركيين مثـــل تافت وهارست ، ونشر ترجمة مار بولس حبيب الاميركيين .

وفيها عرف فرح الفيلسوف نيتشه ونقل شذرات من فلسفته الهوجـــاء . وجاءت السنة السادسة فنشر فصولاً من رائعته « مريم قبل التوبة » . وأثرت اميركا المادية به فرأى في نيتشه كل شيء ، وتهوس حتى قال شعراً هو الأول والآخر من نظمه ، فجاء كالاراجيز . والقى خطاباً امام شلال نيـــاغرا أشبه بخطبة رنان امـــام الاكروبول فيه روح نيتشه أو نازيته ، ان شئت ، واليك بعض ابياته الشعرية التي بناها على فلسفة نيتشه :

عج بالجبال ولا تعـــج بالوادي	ان شئت رؤية هذه الامجـــاد
واركب لها قطر البخار فقد مضى	عصر النياق وصوت ذاك الحادي
واطلب اليها ان تطير ولا تقـل	« مهلا فانـــك سائر بفؤادي »
فالوقت وقت ارادة صمـاء تصر	ع كل معترض سبيلَ جهـــاد
مـــات القديم فكفنوه فما له	ما بيننــــا من رجعة ومعاد
الأرض تحتـــاج« الارادة والعزيمة	والنشاط»وليس وحي الدين والارشاد
فيها ارتقت هذي البلاد وانهـــا	مرقاة كل تمـــدن وبلاد
هـــذا كلام نيتش ان نيتش كان	مقوّم المعوج والمنـــآد
في زعم بعض الناس اما مذهبي	فيه فابقيه إلى ميعـــاد

ولكن هذا الميعاد لم يأت ..

رأى فرح صراع المادة في اميركا وعـــاد إلى القاهرة مقهوراً غير ظافر ،

فصرف العام السابع دارساً نيتشه . ترجم كتابه الفريد « هكذا قـــال زاراتوسترا » ولم يتمه . ولخص رأي فاكه وهاليفي فيه ، ونقل ايضـــاً قول نيتشه نفسه في كتابه ، واليك فقرة منه : ليس دانتي بالقياس على زاراتوسترا الا مؤمناً ، وما شعراء الفيدا الا كهاناً لا يستحقون ان يحـــلوا سيور حذاء زراتوسترا الخ .

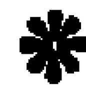
وبينما فرح غارق في لجة مبادىء نيتشه الهائجـة ، اذا به يقف نشر رواية مريم واعداً بطبع تتمتها على حدة ، لينشر رواية ملفـــا للروائي مكسيم غوركي ، وهكـــذا التقى الصيف والشتاء على سطح واحد . فكأن صاحب الجامعة اراد ان يوفق بين اسمها ومسماها . وفي هذا العـام لفظت الجامعة آخر نفس ، فباتت مبكية من احرار العـــالم العربي ، أو الكتاب الديمقراطيين كما يسميهم أخي الاستاذ يوسف يزبك .

فرح انطون القصصي

لمـــاذا لا تكتب عن اديب اسحق ، عن نجيب الحـــداد ، عن ناصيف اليازجي وابنه ابراهيم ، عن بطرس البستاني وابنه سليم ، عن الاحدب والاسير ، عن كرامه ومراش وزيدان ، عن البارودي وشوقي وصبري وحافظ وولي الدين الخ .

من كتاب اديب

الجواب يا سيدي : هذا لا يعنيك ، وكتابك يذكرني بـــلوائح المطاعم ، فاذا كنت جائعاً حتى ترى الحجارة خـــبزاً كما سيحدث يوم يجيء المسيح الدجال ... أتستطيع ان تزور جميع القدور المذكورة في اللائحة ، أم تختار ما تشتهي نفسك اكثر ، وتؤجل ما تحب إلى علفة ثانية ؟ فبحياتـــك تدعني ومعلفي ، انا احب الهريسة فلا تكرهني على الملوخية . الادب كالطعام ، ياسيدي ، فكُلْ انت ما تشتهي ، ودعني وشأني . أما لك معدة واضراس مثلي ؟



مات فرح انطون فكتبت مجلة الهلال : ان الجامعة خـير آثاره ، وتتاجه بعدها دونها قيمة . فساءت كلمتها هذه شقيقته الكريمة السيدة روزا ، فردت على الهلال . ثم ضرب جورج دوماني في مجلته « الريفو اجبسيان » على هـــذا الوتر ، فرد عليه الاستاذ محمد لطفي جمعه .

ليس لدي من تآليف فرح الاخيرة إلا مسرحية واحـــدة « صلاح الدين ومملكة أورشليم » . وهذه اذا وضعت في الميزان قبالة الجامعة رجحت الجامعة وشالت هذه كأبي جرير في ميزان الأخطل . واذا قلنـــا الجامعة عنينا سبعة مجلدات ضخمة كلها جديد طريف ، وعنينا ايضاً تلك الكتب النفيسة التي الفها فرح : ابن رشد وفلسفته ، الحب هو الموت ، الدين والعـــلم والمال ، الوحش الوحش الوحش ، أورشليم الجديدة ، مريم قبل التوبة . والتي ترجمها : الكوخ الهندي ، بولس وفرجيني ، أتالا ، ابن الشعب ، نهضة الأسد ، تاريـخ المسيح ، تاريخ الرسل ، زارتوسترا ، ملفا ، وكلها من كنوز الادب العالمي . ولن نذكر ما لخص من كتب ، فقد مر ذلك في المقال السابق .

وعندي ان قول الهلال هذا لا يضير فرح انطون كما لا يبخس الجاحظ اشياءه قول القائل : كتاب الحيوان خير آثار الجاحظ عمراناً .فادباء مصر أقروا لفرح بالسبق في ميدان الأدب العالي ، ثم بالنضال السياسي والدفاع عن أسمى قضاياهم فقال فيه محمد لطفي جمعه يؤبنه :

عندما ذهب الآخرون يلعبون بذهب المعزّ كنت انت أيهـــا الغريب ، لا ترهب سيفه ، فما أعظم هذا الفضل لك علينـــا ! ها نحن فئة قليلة من الأقارب والأحباب حول قبرك ، لانك لم تكن من هؤلاء الذين تتحرك في ركاب نعشهم المركبات الضخمة ويسير في جنازتهم ذوو النفاق والخديعة .

وقال سلامه موسى ، زعيم المجددين في مصر ، يوم مات فرح : ان الفراغ الذي أحدثته وفاة فرح انطون في الأدب العربي لن يملأه أحد في أيامنا الهوجاء هذه ... كان ميدانه الأدب ، لا يتعداه إلى غيره ، ولذا بزغ فيه وألمّ باطرافه وابتدع فيه واخترع . فهو أول من تطاول إلى نجمين من نجوم الأدب الافرنجي تولستوي ونيتشه ، وحاول ان يستضيء بضوئها ولكن الظـــلام الذي كان يكتنفه كان أشد مما يحسب .

وقال صاحب جريدة الاكسبرس : لم يتزوج فرح لأنه لم يجـــد متسعاً في

وقته لأداء واجب العائلة ، وكان مع ذلك مستقيماً عفيفاً . ولم نره يوماً في كنيسة ، ولا سمعنا انه حضر قداساً ، على ان ذلك لا يمنع من ان يكون مسيحياً مخلصاً كما يفهم من كتاباته .

وكتب الشيخ ابراهيم الدباغ : كتبت عنه - عن فرح - الصحف باقلام فاترة عن نفوس جامدة غير جازعة كأنها تكتب عن بعض الافراد ، فأوجد تقصير الصحف تجاه فقيدنا الجليل عندنا موجدة عليها . ثم قال : فرح انطون الكاتب السوري تقوم قيامة تأبينه في جامعة اميركية . أترى الجامعة المصرية تضيق جوانبها باحياء ذكرى رجل لو كان من الحاضرين فيها لشاد للعلم بنياناً ، وللآداب والاخلاق مكاناً . لم أدر لماذا ضاقت هذه الحظيرة بتلك النفس الكبيرة . ألأنه كان من أحرار الفكر ؟؟ ان الدكاترة طه حسين وهيكل ومنصور من احرار الفكر أيضاً بل من أشد أحرار الفكر وطأة على العقائد ! أم لأنه سوري مسيحي ، مع ان مصر ليس فيها اليوم مسلم ولا مسيحي ولا يهودي بل فيها مصري فمتى ينصف الشرق ابناء الشرق ومتى يقف الشرق في صفه ويأخذ محله ؟

ويقول عباس محمود العقاد : فقلت له مواسياً : إنك يا فرح طليعة مبكرة من طلائع هذه النهضة ، وسيعرف لك المستقبل من عملك ما لم يعرفه الحاضر ، وستكون حين تفترق الطريقان خيراً مما كنت في هذا الملقى المضطرب .

فأومأ برأسه ايماءة شاكرة وحرك يده حركة فاترة وقال : ماذا يحفل المستقبل بالحاضر ، وماذا يبالي السائر للغد بمن كان قبله في مفترق الطريق (مطالعات ٦١و٦٢) .

تلك سنّة الطبيعة يا فرح ، فكما نذكر الشمس بالاحمرار الذي تتركه بعد غروبها كذلك يذكرنا ابناؤنا ثم يوارينا الليل . أراك أحسنت إذ أسأت الظن باناس طويلي الايدي ينقبون البيوت وينبشون القبور ليسرقوا الخبايا والاكفان.



قال فرنسوا مورياك أحد مشاهير كتاب فرنسة الحاليـين : « أنا من الذين يؤمنون بالناس لا بالاجناس ، واؤمن بالشعر خصوصاً ، واؤمن انه ليس غير الشعر ، وانه من العناصر الشعرية وحدها يؤلف الفن في كتب الادباء ، وهي التي تهبها البقاء والخلود ، فالروائي هو شاعر قبل كل شيء وهكذا كان تولستوي وبروست لأن قوة الهامهم واستيحائهم كانت واسعة » .

اذا صح هذا القول وسمحنا للقصصي ان يحدثنـــا كما يشاء ، إذ لم نفرض عليه نوعاً من القصة نحبه حتى نرى كل فن القصة فيه وما عداه خرافة ورقاعة كان فرح انطون قصصياً من الطراز الأول . قلت « اذا » ولا بـد من اذا لئلا تقوم القيامة . وأزيد على ما تقدم لو لم يولع فرح انطون بالترجمة واذاعـــة المبادىء الجديدة ، ولو لم يترك بعض آثاره الرائعـة ناقصة ، ليترجم للشرق روائع الغرب ، بل لو كمل هذا الأديب المخلوق قصصياً روايته « مريم قبـــل التوبة » لـكانت رائعة من الروائع العالمية ككتاب الفارياق . إن في الاثنتين والتسعين صفحة يقوم الدليل على ما أزعم فليقرأها المخلصون لهذا الفن اذا لم يصدقوا ما قلت وسأقول فيها ، اما الآن فابتديء باولى قصصه .

الحب حتى الموت

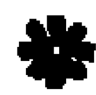
هذه أول قصة ألفها فرح أنطون وهي سلسلة نصف سنة الجامعة الأولى . قطع فرح هذه السلسلة ليترجم قصة ديماس عن الثورة الفرنسية ؛ وملخصها : شابان لبنانيان من (الكورة) هاجرا إلى أميركا فاجتمعا قبل سفرهما بخوري الضيعة وهو راهب فزودهما ، مع دعـــاه وبركته ، بعض آرائه الاجتماعية . وأستقل الشابان باخرة واحدة وحلا في اميركا ببيت واحد تقريباً ، المعلم اميل عند الخواجا بولس ، وبطرس عند الخواجا حنا عديل بولس . وكان الزحـــام على الآنسة ماري بنت الخواجا بولس . بنت وحيدة وأبوها غني ، ولأجلهـــا سافر الشابان من حامات ، ففضلت ماري المعلم اميل – هذه أول مرة يفوز بها المعلم ولكن على من ... – على بطرس الذي أرادها له زوج خالتها الخواجا حنا . وكانت الدعوة لوليمة في بيت أبي ماري أقامها للمعلم ودعا اليها وجوه الجالية . فجاؤوا جميعاً ، اما الخواجا حنا فتجاوز حدود اللياقة وأخذ يضحك على المعلم المحتفى به ويتهكم تهكماً لاذعاً . حـاول الخواجا بولس اسكات عديله ووقف حملته على ضيفه فما نجح ، وساء ذلك ماري فاغمي عليها .

وكان لماري صديقة اسمها فدوكي تعمل ككاتب في محل تجاري ، فرأى بها الخواجا حنا قوة عظمى من القوات المتجمعة على مرشحه بطرس ، فـكاد للمعلم اميل وعطل سمعته فقتله تجارياً وسد بوجهه أبواب الرزق ، وسعى في فدوكي فعزلها من وظيفتها لظنه انها تدبر الأمر لماري واميل ، فتمرض فدوكي ويشير

الطبيب بارسالها إلى كليفورنيا ، فيؤثر الجميع العود إلى لبنان ويعودون كلهم : ماري وأبوها وامها ، وفدوكي وامها ، والمعلم اميـل ، ويتوجهون إلى الارز بطريق حامات فيرى اميل امه والراهب (ظلانور) ويسير الموكب إلى الارز ولكن الارز لا يحيى الموتى فتسوء حالة فدوكي وتوصي ماري باميل .

وبعد ايام يلحق بهم الراهب وأم أميل فتنحل عقدة الرواية حين وصولهما فتكون فدوكي اختاً لاميل . وتفصيل الخبر انه كان لام فدوكي بنت غرقت في الباخرة مع ابي اميل وسلمت اخت اميل الصغيرة — فدوكي — فاخذتها هذه المرأة على أنها بنتها لانها لا تستطيع ان تعيش بـــلا ولد ، كما اعترفت ، وابراء لذمتها اشعرت ام اميل بالامر ، وكأن هذا التعارف أثر بفدوكي فشعرت بدنو أجلها فقالت للراهب : باركني يا ابتاه ! فمد الكاهن يده ليباركها والجميـــع يبكون بكاء مراً حولها ، فعلا نعيب الغربان في اعـــالي الشجرة : قاق قاق ، واجتمعت بكثرة على المجتمعين تحتها فنظرت فدوكي إلى أعالي الشجرة وقالت بهدوء : أتيت . اتيت » .

وبعد شهرين يقترن اميل بماري لابسين ملابس الحداد على فدوكي .



تسير القصة سيراً ليناً وخطتها واسعة فكان الكلام فيها كالثوب المفصّـــل على القد ، ولكن هذا الراهب الذي افتتحها واختتمها فكأنه لم يكن في أولها إلا ليشهد آخرها ، ويبارك الصبية على فراش الموت ، مع ان الحل من الخطايا — في الكنيسة الارثوذكسية — يجوز بعد الموت ، وليس وجود الخوري ضرورياً كعندنا ، وإلا هالك الميت إلى ابد الآبدين ودهر الداهرين ... اما نعيق الغربان فوق الرؤوس فما استطعت تحليله إلا هكذا : كأن الغربان رأت في ثوب الراهب ما يغريها على التجمع فتجمعت ... قد يكون أوحى إلى فرح هذا السرب من الاغربة التشاؤم اللبناني بحضور الخوري إلى بيت المريض ، كما انهم يسمون الموت غراب البين ، وهي عقيدة موروثة مع ما ورثنا من خرافات . امـــا قول

فدوكي للاغربة أتيت أتيت فيشبه أسطورة أمية بن أبي الصلت الذي علل نفسه بالنبوة ومات بحسرتها حانقاً على النبي ، ولا شك ان فرح انطون قرأها .

قلت انه جاء بالراهب في آخر الرواية ليحضر الدفن ويجنز ويأخذ « الجزو » أما في أول القصة فسخره فرح ليشجب الحياة الرهبانية بلسان أحد أفرادها ، ولا يفل الحديد إلا الحديد ، ولا يقطع الشجرة الا فرع منها كما يقول المثل اللبناني .

ثم فرح بلسان الراهب حياة الكسل التي يعيشها الرهبان ، ودفع الشابين إلى المهاجرة والكسب . اما هذا الاسم الغريب الثقيل ظلانور فيلوح لي ان المؤلف نحته من ظل ونور ، وعندي ان وجود هذا المحترم فضولي في القصة كما هو في غيرها . .

في الرواية شخصيتان بارزتان : فريد مدبر العرائس ، فهو طيب الحديث لولا فصاحته وبلاغته ، ولولا أنه أفلت من شق قلم فرح نحوياً يلوك لسانه . والخواجه حنا الذي يمثل اللبناني المهاجر أصدق تمثيل ، فهو جبلي كما كان قبل الهجرة ، لم يتظرف ولم يتكلف مضغ الكلام ، فحواره وتفكيره وحركته ومشيته لبنانية محض ، لم ينس شيئاً من آثار محيطه الذي عاش فيه ونشأ ، فدخوله على المدعوين في بيت عديله ، وسلامه عليهم وسؤاله حالاً : اين مريتا ؟ ثم صراحته الصارخة ، كل هذا يدلك على ان الرجل لبناني عتيق ، لا يروقه حتى التلفظ باسم ماري . فلولا الخواجه حنا وفريد لكانت رواية فرح هذه تصلح لكل محيط لا يدلك على شيء على ان أشخاصها من اللبنانيين المهاجرين إلى اميركا ، فماري وامها وابوها متأمركون ، وكذلك فدوكي وامها .

يفهم فرح الفن القصصي فهماً صحيحاً والدليل على ذلك لباقته في المأزق الحرج فانه يحسن الفرار ، أراد ان تتمثل فتاة ببيت للمتنبي فقال : (ولو كانت تعلم الفتاة هذا البيت :

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدواً له ما من صداقته بد

لرددته) .

يشبه عمل فرح هذا ما فعله الشدياق في مقدمة فارياقه العجيب إذ قـــال معتذرا عن حديث امرأته فيه : « فان قيل انه – أي الشدياق – قد نقل عنها ألفاظاً غريبة غير مشهورة لا في التخاطب ولا في الكتب ، فلا يمكن ان تكون نطقت بها – أي الفارياقية – قلت ان النقل لا يلزم هنا ان يكون بحروفه وانما المدار على المعنى » .

الدين والعلم والمال

فرح انطون كاتب اشتراكي محموم . حرارته ، دائماً ، فوق الاربعين ، والميكروب اذا افتتح بلداً كان أقوى وأفتك . كان فرح من هذه المبادىء التي تشغل الدنيا في هم مقيم ، وتلك مزية المصلحين الذين يحملون البشرية على ظهورهم . عرف هذه المبادىء في الكتب فصح فيه قول الشاعر : والاذن تعشق قبل العين احياناً . جاشت نفسه وفارت كالقـدر ، ولو لم ينفس عنه القلم لانشق . كان جو الشرق كالقطب الشمالي فصيرته انفاس فرح صالحاً للاستيطان. وأشرقت شمس المعرفة فأوت الوطاريط إلى خرائبها تنتظر الغروب كالاجير ، ولكنه لن يأتي ، ومـا هذه الغيوم المعترضة الا سحب صيف ستكنسها ريح الشمال .

رأى فرح ان تكون القصة معرضاً لآرائه الهدامة ، فنحا نحو قصصيي اوروبا الاجتماعيين الذين أحبهم . اما « الدين والعلم والمال » فليست قصة مبنية على الطراز الفني ، ولكنها قضية عظمى البسها فرح ثوب القصة ، فتنكرت فيه كما يتنكرون في السهرات . يدور موضوعها حول الربين : الله والمـال . وليس فرح ممن يعبدون الأخير ، ولا ممن يتكلون على الأول اتكالاً مشيناً للعقل ، شالاً للفكر .

يتناول الكتاب الدين والسياسة بالبحث العميق . والناس في الدين والسياسة قسمان : واحد يهذر ويخرف في منطقه ، وآخر يأبى ان يتعقل . فالذي

نسميه مبادىء ليس أكثر من ميول قوية عنيفة لبست براقــع نظريات كذابة خداعة ، لان الحياة كالله ، واحدة فقط . اما نحن فنصفها بما يبدو لنا ، اقول : الحياة حلوة بدلاً من أن أقول وجدت الحيـــاة حلوة ، وبالعكس ، فبين « فكر » و « شعر » هوة اعظم من التي قال عنها يسوع في مثل «الغني والفقير».

ان ذواتنا كفلك فيه نجوم منظورة ونجوم غير منظورة ، وهنـاك نجوم سديمية لم تدر بعد على ذواتها دوراناً وافياً لتكتمل ، وفي هذا الفلك أيضـاً شموس قريبة وشموس بعيدة ، وفي أعمق ذات الانسان اسرار قد تبديها « الانقلابات » كما تكتشف الزلازل ارضاً جديدة .

كان فرح كهذا الفلك ، ولكن نجومه لم تكمل ، وشموسه احتجبت صلاة الظهر .

كان من محبي الحقيقة ومحبة الحقيقة واجبة قبل أية محبة أخرى . ولكن البحث عنها بالحاح يحول دون الحصول عليها ، وكثيراً ما يسبب انكارها ، ناهيك ان طلبها بعنف قد يؤدي إلى السفسطة والعناد ، فاستنطاقنا الحياة وفحص معاني الأشياء السرية يعرضها للابادة . ان ما نسميه اليوم فضائل سيكون الكثير منه بلا جدوى . والمبادىء الادبية الرئيسية التي تدعم الحياة الحاضرة ستهدم وتقضي الحياة تحت الردم كأولاد ايوب .

ان مرض المعرفة آكلة تلتهم السعادة البشرية وتشل اجساماً كثيرة . قال آراسم Erasme : « يأكل البدوي لحمته النتنة كأنها عنبر ، بينما انت لا تطيق رؤيتها ، فمن هو على حق » ؟

الحقيقة اذن ان تكون سعيداً . وما المعرفة التي ذاق غبهــا فرح إلا غذاء يقدم للنفس ليس أكثر . وبكلمة أوضح هي غـــذاء تقدمه النفوس الكبيرة للنفوس الصغيرة بلا ثمن ، وفي العقول اوهام تولد واوهام تموت ، لان الاوهام الضرورية للحياة تتبدل وتتغير اذ يكبر العقل . فليست اوهــام الفيلسوف كأوهام الرجل العادي ، ولا أحلام الشاعر كأحلام القروي . فالاوهام والاحلام

لا تفارق الانسان .

وليست هي التي تتغير بل مادتها ، فتبنى على أسس جديدة . نحن لا نشك أبداً ان العلم سيضع – ان لم يكن وضع – التخوم الفاصلة بين الأرض والسماء ، أي بين الله والدنيا ، ولكن ماذا يحدث ؟ يصح فينا إذ ذاك قول الشاعر :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننـــا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

ان الدنيا كلها تختفي تحت برقع الرياء والطمع ، وأحسن عمل فيها يسبب الخجل ، وليس فيما حولنا ما يستحق احترامنا الكامل ، وليس في أنفسنـــا ما يحب ، فلجّة شهواتنا عميقة ، ثائرة أبداً ، ومدها وجزرها يعملان كالقلب ليل نهار .

كيف رأيتني ؟ اما تفلسفت كثـــيراً اليوم ؟ فالمعذرة يا أخي ؛ من حضر السوق باع واشترى . إن هذه القضايا التي لا تحل ، هذه المعضلة التي مات لاجلها يسوع ، واضطهد محمد ، وشقي موسى وبوذا ، هي التي شغلت بال أديبنا فرح أنطون فتشنجت أعصابه حتى التوتر ، وتهور قلبه الكبير ... ففي كتـــابه « الدين والعلم والمال » أراد إصلاح المدينة التي بناها «الشيخ سليمان » فلم يقدر. فعمل بها عمل الله في سدوم وعموره ، كما زعمـــوا وبنى على انقاضها مدينة « الرفق والاخاء » .

ان مكان مدينة « الدين والعلم والمال » غير معروف ، لانهـــا من استنباط فرح . اما تخطيطها فهكذا كان ، كما روى شيخ قرية « الدخول » لحلم النازل عليه : « اشترى الشيخ سليمان – سيظهر أيضاً هذا الشيخ في اورشليم الجديدة – هذا السهل الواسع الذي أمامنا ، ومساحته ٥٠٠٠ فدان ، وأسكن فيه فتياناً وفتيات من طبقة الرعاع ، وأحضر لهم زراعـــاً وصناعاً يدربونهم على الزراعة والصناعة (١) واقام لهم حكومة ، وسن لهذه الحكومة قوانين الخ (ص ٣)

---

(١) حقق فرح في اميركا شيئاً من فكرته هذه .

فغدا حليم – هو فرح بعينه تظهر لك دفاته في صفحة ٤ و ٥ و ٦ – إلى المدينة ومعه رفيقه ، فرأى مدينة المـــال كبيروت ، أو أعظم مدينة رأيتها أنت ، وفتش فيها عن فتاته ذات الحلة البيضاء التي رآهـا في الطريق ، فما وجدها في مدينة المال . وتقدم فرأى مدينة العلم كمصح بجنس : هـــدوء شامل وصمت رهيب ، اما مدينة الدين فهي كما قال أعمى المعرة :

قس يعالـــج دلبـة والشيخ من حنق يصيح

ويجول حليم في المدن الثلاث، فيلتقي في الحديقة العامة بمن يعرفونه فيدعونه لجلسة المساء العامة بين رجال الدين والعلم والمال ، فيحضر ويحمي الجـــدال والخصام بين العمال والرأسماليين ، وبين رجال الدين والعلم ، ثم يستتب النظام فتدرس مشكلة العـــمال وأرباب الأموال ، فيعرفنا فرح بـكارل ماركس . ـ أرأيت كيف سبق فرح زمانه ؟ فأين بلاشفة البلد يكرمون واحـداً أعتنق القضية يوم كانوا في احضان امهاتهم ـ وينادي بمذهبه في ذلك الزمان ، فيقول زعيم العمال ما قاله ماركس : ان معامل الامة ومصانعها ومتاجرها وأرضهـا هي من مرافقها ومنافعها كالأنهر والأبحر والهواء ، فعلى الأمة ان تتولى ادارتها بنفسها وتوزع أرباحها بين أبنائها – أي ان تجعل الحكومة نفسهـــا التاجر الكبير . (ص ١٩) .

ثم ينذر فرح بثورة العمال (سنة ١٩٠٣) وقد تحقق حلمه الذي رآه ،ولكنه لم يخل من مرارة الخيبة الممزوجة بالرجاء .

وينتصر رجل العلم للعمال ، فيناهضه رجل الدين ، ويتناطحان حول تنازع البقاء وبقاء الانسب ، فيستشهد فرح بنيوتن الضعيف ضـد مذهب القوة الذي أذاعه حين عرف نيتشه ، أو حين تغيرت أحلامه وتبدلت أوهامه ، كما قلنـا . وفي الحوار بين رجال العلم والدين يندد فرح بزيّمات في الدين يجب قطعها ، كما يرى فيه أشياء نخرة يجب ترميمها ، وأخيراً يتراءى له ان الكمال البشري ممكن دون الدين .

ويشتد الخصام والجدال فتخضب الجلسة بالدم . ثم تعقد ثانية وتختم بتسعة بنود نصها شيخ العلماء انصافاً للعمال ، وفي أحدها وضع الضرائب على الدخل (ص ٤٢) . فقامت قيامة الرأسماليين . وبدسيسة منهم علق اعلان يحرض الشعب ، فيثور وتحترق المدينة . فنجا حليم ورفيقه بسلم صنعاه من ستائر الفندق وسجاده . وتشارك الطبيعة البشر فتثور الزوابع وتنقض الصواعق ويلجأ حليم ورفيقه إلى شجرة يتذريان بها من المطر والبرد ، وينظران إلى خراب المدينة العظمى .

وهنا تظهر الفتيات الخمس راكبات ، وفي وسطهن حسناء حليم ذات الحلة البيضاء كئيبة حزينة باكية ، فيلاطفها حليم ، وبالاختصار يتزوجها ، ورفيقه يتزوج أختها ، وأخواتها الباقيات يجعلهن فرح أوفر حظاً من بنتي لوط .. فيستقدم ثلاثة من اصدقائه ليكونوا أزواجاً لهن ، ويعيد بنيان المدينة على أسس الرفق والاخاء .

لامر ما جعل فرح الفتيات خمساً ، اما أنا فما وفقت إلى فك هذا اللغز ، والا فلماذا سلمن خمستهن وهو يعلم ان هذا غريب . أيعارض بهذا قصة لوط وبنتيه وولديها — من ابيهما — مواب ونعمي ؟

ومهما اجتهدنا تظل حسناء حليم أختاً للمحترم « ظلانور » ملزقة تلزيقاً كالشوارب التي كنا نصنعها صغاراً تشبهاً بالرجال ، يوم كانوا يحلفون بشواربهم .

لا نعرض لهذا الكتاب بالنقد القصصي ، فهو ليس قصة كما قلنا وكما يعترف فرح ، ولكن خاتمته ، ان كان قصة أو لم يكن ، غريبة عجيبة لا تصدق . وان رأينا لها شبيهاً في التوراة فما عند الله ليس عند الناس ... والذي صنف قصة التوراة أخرج لوط وعائلته الكريمة قبل ان أحرق المدينتين بالنار والكبريت .

وبمناسبة الكلام عن هذا الكتاب نقول : لو عاد فرح ورأى ما نحن فيه

اليوم لعقدنا واياه مناحة يبلغ الجو خبرها ، بل لم يجر مثلها اليهود على أسوار أورشليم .

ليت عينك ترى يا فرح . فالوطن عنـدنا هو الدين كما جاء في اورشليمك (ص ١٤٧) ان سياستنا في أيدي رجاله ، صاروا ولاة أجسادنا كما هم أولياء النفوس . فعلينا العمل بقول بولس الرسول : أطيعوا مدبريـكم واخضعوا لهم كأناس يؤدون حسابكم .

كان الدين صنم العالم أمس ، اما اليوم فصنمه العلم ، فباسم العلم والتمدن تستعمر الشعوب الضعيفة . اما في لبنان فباسم الدين غرقت البلاد في «الطائفية» . واقرب الناس الينا وادراهم بنا يحسبوننا همجاً يقضي عنا « رعاتنا » بالأمر ، يمجدونهم لاجلنا ، وعلى حسابنا . ان مجد الله يكفيهم ، فنحن نطلب العمل النافع لا هذه السخرية المبهمة والضحك الصامت .

طلبت كثيراً للشعب يا فرح ، اما الشعب فشعاره : القناعة كنز لا يفنى . انه لا يطلب الا البركة والدعاء وملكوت الله وبره .

انتظروا هذا الملكوت ، فلعله يأتيكم .

الوحش الوحش الوحش

أو سياحة في أرز لبنان بقالب رواية فلسفية اجتماعية أدبية . هكذا عنونها فرح ودفعها إلى القراء ، وملخصها :

تاجر من صيدا اسمه متى حاروم جاء بيروت وعظم شأن تجارته فيهـــا . فتزلف اليه تاجر صغير اسمـــه لوقا طمعون ، فاطلعه على اسراره التجارية ، فانقلب الصديق مزاحماً لئيماً فكسدت تجارة متى وافلس . ويئست بنت متى لان اباها افتقر ، ولوقا جفاها بعدما عللهـا بالزواج ، فالقت نفسها في البحر ، فانقذها شاب من تلامذة بيروت الجامعيين صوريّ المنشأ .

وأحبها الشاب واحبته ، ولكنها رأته فقيراً مثلها فهاجرت تاركة له كتاباً تسأله فيه ان ينساها . فساء يعقوب نكرانها الجميل واشتد به العشق فجن .

اما متى ، ابو اميليـا ، فقنط إذ لم يبق له بيت يستره ، فاختفى عن الابصار . وهام عاشق اميليا – يعقوب درمان – في البلاد على وجهه . وعرفه الناس باسم مخلوف .

اما اميليا فتزوجها في اميركا غني عظيم – المستر كلدن – فعاشت سعيدة لولا ذكرى ابيها التي لم تكن تفارقها . وجعل زوجهـا جائزة سنية لمن يأتيه بخبره فخاب الرجاء .

وحنت اميليا إلى وطنها لبنان،فجاءت وزوجها اليه . وابت ان تمر ببيروت هرباً من الذكريات المؤلمة فكانت خطة الموكب : طرابلس ـ الحدث ـ الأرز .

وعرف لوقا طمعون بقدوم المستر كلدن المثري الاميركي الشهير فحدثته نفسه بان يكون معتمده في الشرق ، فكتب اليه يسأله ذلك ، فاستشار زوجته فما وقعت عينها على رسالة لوقا طمعون حتى اقشعر بدنها وبكت امر البكاء .
وجاء لوقا طمعون ليقابل كلدن في الارز فكان مشهد غريب . عرفه مخلوف المجنون – يعقوب درمان – فانقض عليه فهشمه تهشيماً . وحضر ايضاً متى حاروم ، ملك رأس القضيب ، وفي يده بندقيته ، فعرفه مخلوف ، وصاح بصوت كالرعد : « متى حاروم ، حنا حاروم ، جئت في وقتك ، وفي يدك بندقيتك ، انظر صاحبك لوقا طمعون » .

فاطلق متى بندقيته فخانته ، فألقاها واتكل على باعه وذراعه يعاونه مخلوف .

وكان في الأرز جماهير وفدت لتحضر يوم كلدن – يوم في العام يوزع فيه هذا الغني آلاف الدولارات، أراد عماله في الارز حباً بزوجته اللبنانية –فقبضوا بعد جهد على المجنونين وحبسوهما في كنيسة الرب .

اما لوقا طمعون فتجلد واصاح من هندامه ما استطاع ودخل على المستر كلدن ، وبعد جدال عنيف بين اميليا ولوقا وكلدن حول الشهادات التي جاء بها لوقا إلى المستر ، اختصر كلدن الحديث بقوله : « هل تريد ان اجعل احد خدامي يجلب مثلها – بينها شهادة رئيس ديني كبير – بعشرة ريالات فقط . يا مستر لوقا؟جئنا بشهادة شرف واستقامة من الخواجه متى حاروم في صيدا» .
فاغتم لوقا وقال : « ان متى حاروم مختفي وزوجته ماتت، وابنته الطائشة فرت وتركته » .

فانتفضت مسز كلدن لهذا الكلام ، وحاول لوقا ان يخرج فأخذه كلدن بعنف وقال له : مستر لوقا ! أجثُ ،اطلب العفو من مسز كلدن ابنة الخواجه متى حاروم .

فانتصب لوقا المقهور مدافعاً عن نفسه زاعماً ان لم يتعمّد المنافسة التجارية

التي بها نفسها تغلب كلدن على الاسواق ، وختم كلامه بقول غوت : إلى الامام ولو فوق الجثث .

فلم تبال اميليا بحججه وبراهينه وامعنت في اهانته ، ثم ترقرق دمعها لذكرى ابيها فقال لوقا : انا اعرف مكان ابيك ، وسأجيئك منه بالشهادة المطلوبة . فدهشت وصاحت : قل اين ، فامــلأ فاك دراً . فقال : الآن في الأرز .

فخرج الجميع تتقدمهم اميليا ، فرأت اباها المجنون مقيداً في الكنيسة ، فشفي حالاً حين رآها ، ووزع هو عطايا « يوم كلدن » ، وعفا عن لوقا طمعون الذي سار مع موكب كلدن ، وترك مخلوف الشقي تهيجه الذكرى ، ثم سيق إلى دير « قزحيا » المستشفى البلدي للمجانين .

أما بسط فرح لخطة قصته ففيه شيء كثير من فن القصصي المطبوع ولباقته . وللقدرة على غرس المبادىء جعل فرح الكلام على لسان شابين متعلمين كليم وسليم . سفرهما من قلحات قبل الفجر بكثير فتحدثا عن الجداجد التي سمعا صوتها في الليل — لا ادري اذا كانت تغني قصائدها في الدجى — وجعلا يخطئان لافونتين . فسئم المكاري وغضب على جواده غضب سليمان حين فاتته الصلاة . فأدرك الشابان خطأهما وسألا المكاري لماذا اختار هذه الطريق ، فحدثهما عن خصام اهل قلحات وفيع بسبب تشاتم الأولاد .

وينعس الشابان فيغني المكاري الحنيانا والميجانا ويا دوم حالي يا دوم، فينشط الراكبان ويعجبان بهذا الأدب الساذج الرفيع الذي يمثل الامة وحبها العنيف . وتطلع نجمة الصبح فيناجيها الرفيقان متفلسفين .

ولاح لهما دير حماطوره مع الشمس ، فكان حديث طويل عن الحياة الرهبانية ، يخطئها كليم ويصوبها سليم . ودخل المكاري في القضية شخصاً ثالثاً خائفاً على جواده اذا ظل كليم يجدف على الرهبان ، فيتراخى كليم ليغلب سليم ، فيسر المكاري ويأمن عثار الخيل .

وبلغوا عين السنديانة فأخذ رجل معتوه مجلة انكليزية من الخرج بلا استئذان ، وقرأ فيها حادثة غرامية ، فطوى المجلة وأعادها قائلاً : كلهن سواء. وردد :

جننا بليلى وهي جنت بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

وأغمي عليه فاسعفوه فأفاق ، ولم يعرفوا من أمره إلا أنه مجنون اسمه مخلوف ، وتركاه على ان يلاقيهما إلى الارز ، وسارا إلى الحدث ، فدخلاها والأهالي في جلبة وضوضى . يريد واحد ان يكري بيته من بروتستانيين قدموا اليه ، والضيعة لا تريد ، وينتهي الأمر بقبولهم لان أبا مرعب ، وهو من الذين حاربوا مع يوسف بك كرم ، قد أراد ذلك . ويتعرف كليم وسليم بالاميركيين ، فاذا هم طلائع حاشية المستر كلدن لا مرسلون بروتستان كما توهم موارنة الحدث .

ويبيت كليم وسليم عند صديق لهما مسلول ، وهذا أيضاً من ضحايا لوقا طمعون . وفي الغد يذهبان إلى الأرز فينامان في العراء ، ويعوي الذئب فيطير النوم . ويصبحان فيطلبان الصيد في ذلك الوعر ، فيضلان في الجبل ويسقطان في واد صغير . وتنطلق بندقيتهما فتجيبها أخرى ويصرخ صوت : الوحش الوحش الوحش .

ثم يقبل شبح كالوحش رافعاً بندقيته في الفضاء انذاراً لهما فسلما . وتعارفوا فسألاه عن تاريخ وجوده في القفر فأجاب : منذ تكوين العالم .

واستغرب كيف لم يصدقاه . وحاولا كشف سره فاستحلفاه باولاده ، فغضب أشد الغضب . وذكرا له الله فخرّ إلى ذقنه ، ثم انتصب وأخبرهما انه في هذا القفر « يكون العالم الحقيقي ، الذي يسود فيه الخير والصلاح ... وان أصل الشر الوحش الذي في الانسان » .

وتم له ذلك بمعونة الله وانه سمع صائحاً يقول : « لقد انتهى » . ويلوح ذئبان يقتتلان على رابية ، فيعدو اليهما ويصرعهما ويجرهما إلى كوخه ويقول

لضيفي مملكته : « كلاهما معتد فأرحنا المملكة منها » .

فأدرك كليم وسليم سره وسألاه لماذا لا يذهب إلى المدن ؟

فغضب وقال : اني لا اقدر على جميع الوحوش التي فيها ، إذ ليس لي غير يدين ولا أقدر ان أمسك بهما أكثر من بندقية واحـــدة ... لا تصدقوا انني ولدت هنا بل انني ولدت في المدن وعشت في المدن ، ولكن الوحوش فيهـــا اكلتني وطحنتني فعررت منها ، ولكن لا بأس ستأتي نوبة المدن وحينئذ أدخل اليها باذن الله دخول المنتقم لله من وحوشها الضارية (ص ٥٠) .

أظنك عرفت الرجل ، هو متى حاروم ، ملك رأس القضيب ، أبو اميليا الذي أنقض مع مخلوف على لوقا طمعون في يوم كلدن .



على القصة مآخذ شتى لا يعنيني اذا كان حشاها فرح فلسفة اجتماعية ممكنة ومستحيلة ، فهذا هدفه الادبي ، والمرء لا يساق إلى الهدف .

ولكن فرح انطون أغرب جـــداً في الاستنباط ، وكان اعظم من الله في « الخلق » . فرجل مثل متى حاروم ابن ثغر ، نشأ على سيف البحر وفي صيدا الحامية كالتنور لا يستطيع ان يحيا في رأس القضيب شهرا واحداً فكيف بالسنين! فهذا ما يعجز عنه ابن بقعكفرا وهي أعلى ضيعة في لبنان . الوحوش ترحل عن تلك الأرض في الشتاء لتشتي بالاقاليم المعتدلة ، فهل يستطيع تاجر مرفه كمتّى هذا ان يعيش هناك كما وصفه لنا فرح : « فعلما — أي سليم وكليم — انه رجل أضاع صوابه لظلم أصابه فبرح بلدته وأقام في تلك الجهات المقفرة وهو يعتقد ان الله ولاه عليها لمحو الظلم والشر ، ثم يملكه المدن لاستئصالهما منها أيضاً . وقد أفتقد كليم وسليم كوخه ومعيشته فوجدا انه يعيش في أسوإ الحالات . ورب يوم لا يتناول فيه غير كسرة خـــبز أسود يصنعه من دقيق يعجنه ويشويه على النار ، أو قطعة من لحم الوحوش المعتدية التي يصطادها . وكان يمر عليه في زمن الثلج والشتاء عدة أيام يظل فيها مخبوءاً في كوخه الحقـير لتراكم الثلج عليه في

ذلك الجبل . وكان قد تعود احتمال البرد كالحيوانات ، فاذا ذاب الثلج زحف من كوخه وخرج على الثلوج يسير زلقاً لا مشياً كأنه سائح فوق ثلوج القطبين(٥١) .

قرأنا عن سليم وكليم انهما لم يطيقا برد جبل الارز صيفاً ، أفلا تكون الحياة في الشتاء معجزة المعجزات ؟ ! وقول فرح ، « وكان قـــد تعود احتمال البرد كالحيوانات » لا يجعل الأمر ممكناً ، ولكن الاستاذ أراد ان يتبع خطة ديماس ، فاغرب كبونسون دي ترايل .

اما شخصية مخلوف المجنون الثاني فأجاد في خلقها كل الاجادة ، كمخلوف أبرز أشخاص القصة . طبيعي في كل شيء ؛ في حواره وتفكيره ، وحركاته وسكناته ، ونفسيته ، وحكماته ؛ ومشهده مع حبيبته ، حين رآها في الارز من أروع المواقف .

وقد لحظت في هذه القصة ، وفي اورشليم الجديدة ، اجادة فرح في تصوير المعتوهين وانطاقهم . وتركه هذا المجنون يطوف في البلاد واقعي جداً في أرضنا ، وهذا ما عرفناه من المجانين ، وليس في حديث مخلوف وأطواره أدنى غرابة فقد رأينا باعيننا وسمعنا باذننا معتوه حمانا ، فيلسوف الشاغور ؛ يكتب آياته على الصخور بالقلم العريض ، بل بالفحمة الغليظة ، وأبرزها قوله : من خلق علق . انها لحكمة جموح يتمنى الفلاسفة الكبار ان تكون لهم .

كان اجتماع اميليا بابيها قريبا من التصديق لولا هذا الجو الذي وضع فيه متى حاروم . يتراءى لي ان فرح انطون أحب الارز حتى العبادة ، فاراد ان يجترح فيه عجيبة تصديقا للتسمية ، افليس هو أرز الرب ؟

اما بقية الاشخاص فطوع قلم فرح ، وان تعقد الحوار أحياناً . ففرح ابن مدينة أراد ان يصف أطواراً قروية رآها مرة أو مرتين — وهذا لا يكفي — فجاء عمله أحياناً مطابقاً للواقع واحياناً لا ، ففي الحوار مـــا هو جيد كقول كلدن للوقا طمعون : أنا لا أحب كثرة الكلام يا مستر لوقا ، فاذا شئت ان تكون وكيلا لاشغالنا فجئنا بشهادة شرف واستقامة من الخواجه متى حاروم.

فعندي ان استعمال « مستر » للوقا وخواجه لمتى فيه تدقيق وفن. وكذلك قول اميليا للوقا : يا ظالم ، تخرب بيته ، وتميت زوجته ، وتهرب ابنته ، وتبيع منزله وتمحو آثاره الخ .

ثم بالعكس قولها له بعدئذ : « قل فاملأ فاك دراً » . فهذه نابية ، وكان على الاستاذ ان يقول « فمك » بدلاً من « فاك » على الاقل ، فهي أقرب إلى حديثنا من تلك .

وأشنع من هذه سؤال كليم للمكاري : هل ظهر نجم الصباح يا جرجس ؟ فاجابه المكاري بابشع : سيظهر بعد نصف ساعة على الكثير ، والارجح ان الشمس تشرق لنا عند بطرام فيقول : كليم فلنعجل اذن، فاننا نروم الوصول إلى الجبل قبـــل اضطرام وطيسها فراراً من الحر . فوطيسها تركية في اذن المكاري اللبناني . ومثل هذا قول كليم أيضاً لرفيقه سليم : هـــل نركب يا سليم ، فان مطيتينا حاضرتان ، ولنلبس ملابسنا أولاً .

فكيف غفل فرح عن هذا وهو يعلم ان في الحوار كل جمال القصة . وهناك طفيليات علقها فرح كالقراد في جسم قصته ، كبعض حكايات من العقد الفريد ، لا يتسع المجال لسردها كلها . وفي الحدث يقلد فرح الشدياق ولكنه لا يوفق ، يقوّل المستر كلدن : يس يس سنأمل يوم كلدن في الهرز . يعني : سنعمل يوم كلدن في الارز (ص ٥٣) . ثم في اليوم الثاني يرينـــا المستر كلدن فصيحاً كأنه بدوي لا لكنة ولا رطانة .

وكذلك تمثل لوقا طمعون بقول غوت : إلى الامام ولو فوق الجثث. فتعريف فرح له لا يؤهله للتفوه بهذا الكلام السامي ، فنفسية دنيئة قذرة كنفسية لوقا لا تتعالى إلى هذا الافق . فالخائن دساس جبان يطعن في الظهور لا في الصدور، فلو قوّله كلمة عربية لأفصح العرب كان الخطب أهون ، وجاء الكلام أقرب إلى الفن . وأرى كما رأيت في اسم ظلانور ان لفرح ولعاً باشتقاق خاص لأسمـــاء ابطاله مثل حاروم وطمعون ودرمان ، فانها تأتي كريهة وان دلت على شيء .

اما تخلص فرح في « المأزق الحرج » فاليك في هذه القصة شيئاً منه . يشفى متى حاروم حين يرى بنته ، فيعلم فرح ان ذلك مستحيل لا يصدق فيقول : « ولم يدون علم الطب شفاء كهذا » (٦٤) .

اما سير القصة فسريـع نحو النهاية سرعة المسافرين إلى الارز ، وهذه حسنة من حسنات القصص . اما غاية فرح الاجتماعية فتحققت إذ سرد آراء كثيرة في كل فن ومطلب حتى كتب صفحتين عن السل (٣٢و٣٣) وقد وطأ لهذه الآراء كلها أحسن توطئة فلا تشعر ان المؤلف يقصدها الا حين يعلم المكاري الديمقراطية ، فيأبى بعد قليل ان يسقيه ، ولو لم يبرطله بقنينة عرق لما فعل .

ان جعل فرح محيط قصته في وطنه يدلك على معرفته ان القصصي لا يخلق قصته في مكان لم يعرفه ، ولكن كلامه عن غوغاء الحدث وتخاطبهم بيا ابن طنوس ويا ابن مرقص ويا ابن .. بدلا من الاسم ، فهـــذا لا يكون إلا نادراً وللتحقير .

في القصة مبادىء كثيرة عرضها فرح بلسان أشخاصه وأحسن عرضها ، كما قلنا ، وقلما تخلو صفحة من حكمة : وفي القصة فصول رائعة كالفصل السابـع ، وموقف اميليا وكلدن ولوقا ، ومخلوف في ساعة الرحيل كما قلنا ، اما العفو عن لوقا طمعون فتولستوي : وأظن ان غرابة « العقدة » نسّت القراء هـــذه القصة الطيبـــة ، وجعلتهم لا يذكرون لفرح إلا « اورشليم الجديدة » رائعته الـكاملة ، فالى اللقاء في القدس والجدل :

أورشليم الجديدة

تلخيص القصص قتل للفن ، ولكن الناقد كالجراح ، فلا غنى عن البضع أحياناً ، وفتح البطن حيناً . فعلى من يعنيهم الأمر ان يقرأوا النص المنقود ليدركوا الجمال الذي يسقط تحت الردم ، ويروا الأعضاء مركبة متناسقة ، لا اشلاء على وضم .

ان اورشليم الجديدة أبعد آثار فرح شهرة ، وأكثر القراء يذكرونه بها ، ولو طول الله عمر « مريم قبل التوبة » لفاقتها ، ولكنها ماتت ولم تبلغ الرشد.

علم فرح ان سقوط مملكة الروم وتقلص ظلها عن سورية كان أول أسبابه تلهي القوم بالقشور الدينية ، فبنى قصته « اورشليم الجديدة » على هذا الأساس.

ورأى أيضاً ان القصة بلا حب وغرام كالطعام المسلوق ، وهو ان غذى فلا يكون شهياً ، فوضع من هذه التوابل ما قدر عليه ، فدارت قصته حول فتاة يهودية أسماها أستير تيمناً باستير أحشوروش ، ولكنها ماتت مقهورة . وجدت هذه الفتاة مع أبيها في بيت لحم ليلة عيد الميلاد سنة ٦٣٦ ، وانطفأ مصباح كنيسة المهد ، فترك النصارى المعيدون مباحثهم الدينية وثاروا يطلبون اليهودي ، لأن وجود يهودي في بيت لحم يمنع المصباح ان يشتعل ، فيهزأ بخرافتهم شاب مسيحي أسمه ايليا ، فيقبضون عليه ويشبعونه ضرباً ولطماً زاعمين انه يهودي . فتهرع سيدة نبيلة اسمها تيوفانا إلى معتوه يلقبونه النبي ارميا ، فيخلص ايليا من الغوغاء ، فيشكره ايليا ويمضي مفتشاً عن الذي حرض

عليه ، فيلتقي باستير وابيها اليهوديين خارجين من بيت لحم ، فيضحك لصدق وهم العوام ويتبعها ليخلصها من الاعتداء ، فيلتقي بجماهير قادمة إلى بيت لحم اذ بلغهم انطفاء القنديل ، فيعترضون البنت واباها على انهما يهوديان ، فينتصر لهما ايليا مدعياً انهما نصرانيان ويرسم اشارة الصليب ، ويفعل مثله أبو استير . اما البنت فتأبى ذلك ، فيتمسك الجمهور بها ، فيقول لهم ايليا انها وثنية من بصرى لان الوثنيين أحب إلى قلب النصارى من اليهود إذ ليس بينهما دم وثأر ، فتصر الجماهير على تعميدها ويفرحون بهداية نفس بشرية يوم العيد المبارك . وحينئذ يطل موكب البطريرك تتقدمه المشاعل والمصابيح ، فينتظر الجميع الموكب ، فيأمر البطريرك بسوق البنت وابيها إلى بيت لحم رغم مساعي ايليا لديه .

واعاد ايليا الكرة في بيت لحم فلم يفلح ايضاً ، اذ قطع البطريرك الكلام بقوله : قد يكونان جاسوسين للعرب . ولكنه أمر بعزل الفتاة في دير الراهبات ولم يعمّدها .

وبينا القوم لاهون بهذه الترهات والسفاسف ، بلغ البطريرك اقتراب العرب من المدينة ، فقدس مستعجلاً ليعود إلى اورشليم قبل ان يدهمها العرب .

وبينما كان البطريرك وحاشيته مشغولين بالعرب ، كان كيريه ايليا يزحف على الدير متسلقاً جبل الزيتون ليرى ما حل باستير .

اما سبب حب ايليا الفجائي لاستير فهو انه راى منذ سنوات واحدة مثلها مع ابيها في يافا فأحبها ، ولكن حبه مات جنيناً فبعث اليوم حياً . وهناك سبب آخر قوي وهو تأثير التوراة وتاريخ يوسيفوس فقد ارت قراءتهما ايليا ان اليهود معاصريه بقايا امة عظيمة حلت قوة نفوس نسائها وجمالهن مشاكل كثيرة في التاريخ .

وفي جبل الزيتون اجتمع ايليا بالملقب بالنبي ارميا في كوخه قرب ارزة صهيون ، فشكر له صنيعه إذ انقذه من الغوغاء . وكان ارميا حانقاً في تلك

الساعة على الامبراطور لتركه المدينة المقدسة بلا حامية ، وسماه المسيح الدجال ، فكاشف ايليا بفكرته العظيمة وهي تحرير السوريين من نير اليونان الذين يحكمونهم دينياً . فهو يرى ان يقف السوريون من العرب ويقيموا بطريركا سوريا . فيخطئه ايليا ويحدثه عن استير ، فيظهر له انه عارف بدخولها الدير ، فيحتال ايليا ليوجه ارميا في سبيل مآربه ثم يتركه قاصداً دير الراهبات ، فلا يرى استير بل السيدة تيوفانا ، فتخبره ان استير فتاة عنيدة بكت وأغمي عليها حين رأت صليباً في غرفتها . فسألها ان تسهل له مقابلتها ليقنعها فرفضت . وهل يخفى أمر بسيط كهذا على عانس كتيوفانا ؟

وفيما هما مشغولان بالحديث إذ بارميا يهرول ويصيح : وصل العرب .

هذا ما كان يجري حول الدير ، اما في اورشليم فالبطريرك والوالي في خلوة يتشاوران ، فدخل عليهما بدوي غساني يحمل انباء العرب وفي تلك الساعة المشؤومة ، جاءت أم تيوفانا وابو استير خائفين على ولديهما ، فتأفف البطريرك وقال : العذراء تحمي ديرها .

وعاد ارميا إلى كوخه وذهب ايليا إلى المزرعة (مزرعة الشيخ سليمان) وهنا يقص فرح سيرة بطله ايليا ، فامه نذرته لله واخذت تخبز له كل يوم ارغفة يوزعها على الفقراء فيدعو له اولئك ان يصير بطركاً ، ثم جاء احد علماء القسطنطينية ورآه يفعل ذلك فقال له : ستكون بطريرك اورشليم الجديدة . ودخل ايليا الدير حين شب ، ورأى يوماً اسقفاً يلطم راهباً في القداس فاستعظم فعله ، واجتمع بالراهب ميخائيل على الجبل حيث واعده ، فافرغ هذا الراهب الآبق جعبة آرائه الدينية والاجتماعية في نفس ايليا فنفره ، والحديث طويل سماه فرح « الخطبة على الجبل » . اول الخطبة مبهم ككلام الانبياء (يا بني الخ ص ٤١) وموضوعها البحث عن اعمال رجال الدين ومخالفتها للانجيل ، إذ عاد رجال الدين إلى الحالة التي حاربها المسيح ، ولو ظهر اليوم لاضطر ان يصلب ثانية .

واطرى الراهب ميخائيل النسطوري النبي والعرب ثم رأى ان يصيب الاسلام ما اصاب المسيحية بسبب المؤولين والمجتهدين ، وان اصلاح الهيئة الاجتماعية بواسطة الدين لا يمكن ان يتم إلا اذا عادت الانسانية إلى طفولتها ، وعندئذ يلزم نبي جديد للانسانية الجديدة (ص ٤٥) .

اما ميخائيل هذا فراهب كان يجمع الصدقات للفقراء فأشاع الناس انه يخبىء المال في الغابات ، فعاف هذا العمل وانصرف إلى الحقول يشتغل مع البائسين ، فخطط قرى عديدة فاتهم بانه يسعى لرفع نير الكنيسة ، فحبس في الدير للوعظ فقط . ووعظ يوماً فكفر وطرد ، واخذه قائد في جيشه . وبعد الحروب والظفر اسس مزرعة — كما في « الدين والعلم والمال » — واخيراً يبشر ميخائيل تلميذه الجديد بديانة « الرفق والمحبة والصفح » . وتطلع الشمس فيذهل ميخائيل ويتعجب ويخر ساجداً لها — مشهد فولتيري — وتنتهي الخطبة فيتمشى ميخائيل وايليا حتى اذا بلغا المزرعة رحب الشيخ سليمان بايليا بعد ما عرفه ، وبشره انه سيرث ميخائيل في اورشليم الجديدة — اي المزرعة .

وبعد حين مات ميخائيل فعزم الشيخ سليمان الا يكون اكليريكي في مزرعته ، وقال للشعب . اقرأوا التوراة والانجيل ونظفوا قلوبكم وهذا يكفيكم. فقالوا : ومن يعمد ويكلل ويجنّز ؟ فاراد سيامة ايليا كاهناً فأبى . اه

هذه حكاية ايليا قبل ان عرف الشيخ سليمان . وخبر ايليا سليمان عن بلوغ العرب القدس ، وقص عليه خبر بيت لحم ، فغضب سليمان وقال : كان على البطريرك الا يساير الشعب ، فان كان الرجل جاسوساً حبسه واطلق البنت .

ولم يستطع ايليا الرقاد في المزرعة ، فعاد إلى جوار الدير وجلس على اكمة في الظلام يقرسه البرد الشديد . وقرب نصف الليل انسل إلى الدير فسمع زفيراً وبكاء : الراهبة تحدث استير لتقنعها ببقاء الصليب في غرفتها ، والبنت تصر على اخراجه فتخرج الراهبة غضبى . ويدخل ايليا فترتاع البنت ، وتعلم انه موفد من قبل ابيها فتهدأ . وتخرج معه من الدير واذ تراها وايليا وحدهما تفزع ،

ولكنها تمشي. وتهب العاصفة فيحاول ايليا حمل استير – كما في بولس وفرجيني – فتأبى ، ولكنها تسمح له باخذ ذراعها فيأخذ اليسرى – وهنا يشرح لنا فرح انها جهة القلب –

ويحضر ارميا في تلك الساعة فيحملانها برداء إلى كوخ النبي ارميا . ويبللهم المطر ، فذهب ارميا إلى المدينة ليجيء بملابس ناشفة وفرس ، فتخبر الفتاة ايليا انها من مصر وانه شاعت نبوءة ان السلطنة ستصير إلى اناس مختونين ، فجاءت مع ابيها وامها المقعدة التي تريد ان تموت بجانب هيكل سليمان .

وسار بالفتاة راكبة إلى المزرعة ، فسلمها الشيخ سليمان إلى بناته . وفي الغد ذهبت وايليا إلى الحقل فخبرها ان المدينة في حصار ، ولقـــاء ابيها صعب ، فحزنت . واقبل عليهما ارميا يخبرهما عن التفتيش عن استير .

وفي جلسة أخرى في الحقل ايضاً ، ثار جدال عنيف بين ايليا واستير حول المسيح والدينين الموسوي والعيسوي انتهى بتقبيل استير الصليب – بعـــد ذاك الفزع – وكاشفها ايليا بحبه قرب قبر الراهب ميخائيل معلمه .

وساء ارميا استئثار ايليا باستير دونه ، فأخذ يحوم كالغراب حول المزرعة حتى جاء يوماً يناقش ايليا الحساب. واقترح اخيراً الاقتراع عليها فضاً للمشكل. وترى استير في تلك الليلة حلماً فتبكي بكاء مراً : رأت انها جاثية امام المصلوب فدخلت امها وراءها الكنيسة وقالت لها : اهكذا تتركيننا يا استير ؟

ولم ينم ارميا على الضيم فغرّ ، استير ، ففرت تاركة رسالة إلى إيليا تسأله ان ينساها ، ويتبعها ايليا باحثاً عنها فيأسره العرب. وكذلك اسرت استير ولكنها تركت طليقة حرة ، وسعت لفك أسار أرميا الهائج في محبسه ، فافلح سعيها . ودرى أرميا باسر ايليا فقال للعرب : شددوا عليه ، هذا أخو الامبراطور ، ولكن أبا استير انقذه .

وتدل الشؤون على ان أبا استير جاسوس للعرب ، فيتذكر ايليـــا كلمة البطريرك فيتنازع قلبه : الحب والوطن ، فيذهب لمقابلة البطريرك ويشير عليه

بالتسليم لعمر بن الخطاب كما نصح عمرو بن معد يكرب . فيأتي عمر – كما نص التاريخ – ويتسلم المدينة من البطريرك صفرونيوس ، ويرى فرح ان فتح القدس كان بلاء على الشرق كله (فيا اورشليم استعدي الخ ص ١٢٨) .

وتنتظر استير عودة ايليا فلا يعود ، ويتخاصم عليهـا ابن معد يكرب وضرار ، فيبدو عليها نحول وهزال يحملان اباها على ترك معسكر العرب .

ودخل عمر القدس فكان أبو استير دليله ، فجـاء ايليا رسولاً من لدن البطريرك إلى عمر فمر امام استير ، فصاحت وامتقع لونها . ثم يجتمع ايليا بها فيتصارع الحب والدين في قلب استير ، والحب والوطن في قلب ايليا ، ويتساءلان عن صحتها ، فاذا هما كالجاحظ عليلان في مكانين . وتعتب استير على ايليـا لذهابه بلا وداع فيتنصل ؛ ولكن ارميا يصيح من الخيمة : هذا كذب .

ويتنافر ايليا وارميا فتعلم استير ان ايليا تركها لان اباهـا جاسوس دنيء فيغمى عليها ، ويطلب ايليا معاقبة ارميا على فعلته هذه فيصيح ارميا بجنون : انا لست منكم . انا عرب عرب .. لقد صرت مسلماً .. الخ .

واستدعى عمر ايليا فجاءه كاسف البال ، ودله على قبر المسيح ليدخله ويسلم على روح الله ، ثم على مكان الصعود ففعل . وطلب منـه ان يحدثه عن اسباب سقوط المملكة فاعتذر ايليا تاركاً هذا للشيخ سليمان ، فجيء به ، وقص عليهم تاريخ هرقل وحروبه مع الفرس ، وبيّن لهم أسباب ضعف السلطنة .

وعرضت في هذا الحديث مسألة خطيرة وهي حال الاكليروس ، ومداخلة الدين بالدنيا ، ومداخلة الدنيا بالدين والانشغال بالقضايا الدينية عن تدبير الملك ، وصرف الشعب إلى ظاهر الدين ، وانه كلما شغف الشعب بهذه المظاهر زادت سلطة الاكليروس عليه . فدلنا تحرج فرح على عصره .

وبلسان سليمان تنبأ فرح عن مصير الاسلام وملك العرب ، فاضطرب عمر والسامعون من القواد والأمراء . وانتهى الحديث فمشى عمر وأخذ يسأل ايليا هل يعلمكم انجيلكم كذا ، وهل يعلمكم .. كذا الخ ، فيجيب ايليا : لا . ويقول

خالد : يا سبحان الله .

وبعد هذا الكلام يبكي عمر فيصيح أبو عبيدة : ما أبكى أمير المؤمنين ؟ فيزداد عمر بكاء ويقول له : « يا عامر قد سمعت من ايليا الشاب ما هي شريعة الروم ، وسمعت من الشيخ سليمان كيف خرجوا عنها ، فأنا أخشى ان نخرج عن شريعتنا في مستقبل الزمان كما خرج الروم فيصيبنا ما أصابهم » . وينتهي قول فرح بيا ... ويا ... كعادته .

ويقبل ارميا ، رسول الخير ، مخبراً ايليا ان استير في خطر ، وأنه يتنازل له عنها بشرط ان يخلصها لأنها تحبه ، وان البطريرك يطلب ايليا لهذا الأمر . فذهب ايليا وقابل البطريرك فكلفه ذلك . فذهب إلى بيت لحم حيث ابتدأت القصة ، فرأى أبا استير ينتظره . وكان حديث ، فحلل هذا عداءه للنصارى ، إذ لم يرَ أي عار في تجسسه لأعداء من خربوا مملكة أورشليم .

ودخل ايليا على استير فرآها منهوكة ضعيفة ، فتشددت وتعزت ، ولكن وطأة الحمى التيفوئيدية كانت أشد فقضت بعد أن دفعت إلى ايليا شيئاً ، وأوصت أن تدفن في مزرعة الشيخ سليمان قرب قبر الراهب ميخائيل . ولم يصف لنا – كعادته في المأزق الحرج – لوعة أبطاله في تلك الساعة بل ترك لنا ذلك .

واختلى ايليا بعد الدفن ، وتذكر الهدية فاذا هي دفتر مذكرات استير ، فقبّله وقرأه بالبكاء والنحيب ثم ذهب لزيارة قبر استير فرأى ارميا منبطحاً عليه ..

وانتقل المرض إلى ايليا فأخذ يهذي باسم استير ، وفي الساعة التي كان يتهيأ فيها عمر للرجوع إلى الجزيرة كان ارميا الجديد يتلو مراثي أورشليم لسميه القديم ، وينقل فرح أكثرها إذ يراها منطبقة على حالة الفتح .

وبعد أيام يموت ايليا ويدفن بين قبر استير ومعلمه ميخائيل وتختم الرواية : بيا أيتها القبور الثلاثة الخ .

هذا ملخص القصة ، بل هذا هيكلها العظمي ، فالمتروك منها كالبشرة التي فيها الرواء والأبهة ، فليطلب الفن محبوه في القصة كاملة ، أما نحن فسنشير إلى

الحسن والقبح في فرح القصصي .

عندما ظهرت هذه الرواية الخطيرة انتقدها الشيخ سليم خطار الدحداح من الجهة الدينية فقال : ان فرح فيها يعتنق الاشتراكية التي دعا اليها أفلاطون ، وانتقد أيضاً كلام ايليا لاستير اليهودية « لا تتركي الحواجز الصناعية التي يضعها البشر تحول بيني وبينك » . وانتقدت جريدة الظاهر ، كلمة « الميكانيكية » فقالت : انها لم تكن في ذلك الزمان ، وانتقدت جريدة « المنارة » المؤلف لأنه لم يعرف ارميا والشيخ سليمان إلى قرائه . وانتقدت « المقتطف » اعتماد فرح على الواقدي — تاريخياً — مع أن الواقدي أقرب إلى القصة منه إلى التاريخ ، وانتقدت أيضاً أن في الرواية « نصائح وحكم تشف عن لوم صاحبها الدنيا » فدافع فرح عن نفسه فكان ذا حق ، وان كانت لهجته شديدة في رده على شيخ المجلات المحترم .

ولئن أطلنا البحث فالعذر بيّن ، ان فرح انطون عميق ، وأورشليم بعيدة القعر تغذي الفكر ، وتروح المخيلة ، وهي مؤسسة على صخور الوجدان في قاع البناء الانساني، والحياة الحقيقية . وإذا لم تكن فيها عجائب وغرائب ألف ليلة وليلة ففيها المسألة العظمى التي تشغل بال الشرق كله .

قال فرح في مقدمة أورشليم الجديدة انه عني « بجمال التأليف » ، وان نهضة أوروبا قامت على حب الجمال في الصنائع والفنون لأن الجمال الحقيقي لا ينفصل عن الخير والحق . ثم أدرك عباس محمود العقاد هذا — طبعاً بعد فرح — فراح يبشر في مقدمة « فصوله » بالوهية هذا الثالوث الأقدس في عالم الفن .

افتتح فرح أورشليم بخطبة — المدخل — التي وجهها إلى « بنت صهيون » فدل على الموضوع وجمال التأليف معاً حيث قال :

« ان حمامة الروح السماوية قد طارت من بين جدرانك ، فهلا استعدت روحك لتحيا بها نفسك ويؤهل منزلك ؟ هلا نظرت باخلاص ونزاهة إلى مرضك ؟ انك لم تريدي يا ابنة صهيون ، فهوذا جرّاح وخصم شديد قادم

نحوك . ولكن ، وأسفاه ان سكينه ليست نحيفة بل هي عبارة عن سيف قوي ومع السيف رمح ونبلة وترس وجواد عربي .

ان الدنيا تتمخض الآن بدين جديد وسلطنة جديدة . ان رمال قفار العرب قد تحركت يا ابنة صهيون ، وزحفت نحوك قاصدة الدنيا كلها ..

ان أبناء اسمعيل الأقوياء خرجوا لملاقاة بني اسحق الظرفاء، ولكن ملاقاتهم كانت للاقتتال على سلطنة الأرض ، كأن هذه الدنيا الواسعة تضيق عن أخوين كريمين .. سدوا آذانكم أيهـــا البشر ، فان أرضكم ستصير ميدانـــاً للحروب والمجازر ..

فيا أيتها الأمم المختلفة التي تقوم وتسقط وتتطاحن كحبوب الحنطة تحت الرحى ، عليك ان تقولي « المجد لله في العلى » ، لأن الله خالقنا عظيم ، ولكن لا تقولي « وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة » ، فان الأرض ليس فيها اليوم غير السيف والنار ، وليس بين البشر شيء يسر ، بـــل السائد بينهـم الفساد والاضطراب والبغض والشقاء والدمار .

فالشعر الذي هو « جمال التأليف » بعينه منتشر في أورشليم فرح انتشار الشرايين في الجسد ، والخيال الذي هو أبو الفن وواهب الوحي والقياس للفنان كما قال بودلير، والخيال الذي يصور لنا الحياة بابهى الألوان حتى يجعل المداس « شعرياً » ، الخيال الذي يحفظ للحب الذي فسد عطره الإلهي – كما في مريم فرح ، وسامي ومرتا ووردة جـبران – يعزي عن يأس القلب والجســد ويحقق ظفر الروح ..

الخيال الذي لا يضل لأنه منبثق من الحقيقة انبثاق الروح القدس من الآب والابن .. هو ملاك أورشليم هذه . ففرح القوي الخيـــال ، المغذى بالقراءة الدائمة ، خلق استير أورشليمه مزيجاً من اتالا وفرجيني . فكما حال « النذر » دون اتالا ، كذلك حال الدين دون حب استير . وماجريات القصة وما حدث في الطريق – من الدير إلى كوخ ارميا – أشبه بمــا جرى لفرجيني وبولس ، ولكن فرجيني فطرية واستير بنت تقاليد ضيقة وعقيدة صارمة اقلقت الدنيا ولا تزال.

اما حمـــل استير في ثوب كما يحمل النعش فغريب مضحك ، يشبه تنبؤ الشيخ سليمان عن مصير ملك العرب ، الذي يشبه « نبوءة التبعي الملك اليماني » في قصة الزير ، ولو كان فرح حياً لقلت أكثر من هذا ..

ان فرح انطون مبتلى بحمى رومنتيكية أوقدت نارها القروح الاجتماعية ، فعالج موضوعاً واحداً — ككثير من كبار قصصي العالم — لذلك تشابهت أبطاله في ملامحها ومشاكلها . فارميا ومخلوف توأمان ، والمزرعة في « أورشليم » وفي « الدين والعلم » ، واحـدة ، ومؤسسها واحـد هو الشيخ سليمان الذي هو فرح انطون بعينه .

أما خطة القصة فيديرها فرح كقائـــد محنك يعرف كيف يربح المعركة الفاصلة . يسيّر جيوشه زحفاً ، امـا إذا عثر بحجارة القضايا الاجتماعية فيقف ويطيل الشروح ويثير ابحاثاً عنيفة بين أبطاله تكاد تملهـا لولا أسلوبـه الحي واندفاع قلمه المحموم وعاطفته المتقدة الصادرة عن قلب مقروح . فاذا كنت تقرأ لتتسلى فعليك بغير فرح . تأخذ المؤلف نوبة الوعظ ولكنه وعظ حار غير مملول . ولا عجب ، ففرح قصصي عالج المسائل العظمى كتولستوي وغيره في « أورشليم » روايته هذه ، وفي رواية « الدين والعلم والمال » ، و « مريم قبل التوبة »، والمسائل الصغرى في « الحب والوحوش ». وإذا جاءت عقدة الوحش كعقدة الاسكندر ، فعقدة أورشليم انشوطة — شالوطة — اما الخيط فيمسكه فرح ولا يفلته حتى النهاية ، وقد يتركه معلقاً — كما في الحب — ثم لا يغفل عن صغيرة مهما دقت فيعود بك اليها .

ان قصصه جميعها وخصوصاً رائعته « أورشليم » غنية جـــداً بالأفكار ، ولكنها أفكار كردستها المطالعة ، واعجابه بكل جديد .

رأى فقر الأدب العربي في زمانه فكان كمن دخل مخزنـاً كثيرة أصنافـــه وأنواعه فتحير ؛ ولذلك جاءت قصصه معرضاً « اميا » ، فكل المسائـــل التي دوخت رأسه : كانحطاط الشعوب في الدين والأخلاق والسياسة أثارها في أورشليم

– وأورشليم سبب كل علة – ولهذا جاءت بعض شخوصه حية كأنك تحدثها وتراها – ايليا ، ارميا ، البطرك ، استير ، خالد ، عمر – وبعضها تشعر بنقلها وانها ليست بشراً بل خيالات وأشباح كأبي عبيدة ، فشخصيته « باهتة » . اما الباقون فبين بين ، فأرميا ، وان حضر كل ساعة كذاك « الذي يبقى وحده » في سفر أيوب ليحمل بشائر النحس إلى ذاك الصديق المبتلى ، فحركاته طبيعية ، وهو أهبل حلو يذكرني بكثيرين من الموسوسين .

يصور فرح لواعج أبطاله تصويراً بارعاً ، فهو خبير إلى حد بعيد بالتفاعل الداخلي كلما يظهر من وصفه انقلاب ايليا . ولكن الوصف المشهدي قليل عنده ولا سيما في أورشليم التي جاءت كصورة جميلة بلا اطار . فقارىء لم يزر القدس يجهل ساحة حرب أبطاله . أظن فرح ان كل مسيحي يعرف القدس وبيت لحم ، وكل مسلم يعرف المسجد الأقصى والصخرة ؟ أم ترك للمسيحي ان يتخيلها كما يتخيل المسيح ؟ أم توهم ان بعض رسوم طبعها في أول الكتاب تقوم بحاجة القارىء الملحة وتستر عورة الفن ؟

هب ان هذا ممكن فأين تقع المزرعة وهي من مشاهد القصة الكبرى ؟ فوصفها الوجيز المبهم يطابق لبنان لا فلسطين : « يظهر لكل من تأمل الأرض الجبلية القاحلة الجافة في النواحي ، ان صاحب المزرعة أتى ضروب المعجزات ليجعل تلك الأرض صالحة للزراعة » (ص ٦٨) .

ان أورشليم الجديدة رواية غنائية في أسلوبها الذي يرتفع وينحط ؛ عملية واقعية في تفكيرها ، اما مأساتها فمبتذلة ، ولكن البشرة التي نشرها فرح على هيكلها جعلتها زينة بين عرائس الأدب . عالج فيها مسألة خطيرة جداً ، مسألة الرهبان ، فجاءت كأنها كتبت عنا ، ولا يشين فرح ان آراءه فيهم مستعارة من منتسكيو ، فالجماعة هم هم قديماً وحديثاً وفي كل زمان ومكان . عشق فرح المثل الأعلى عشقاً جنونياً وحاول اصلاح الانسانية بعنف ، فصار نصحه تحاملاً وتوبيخه صراعاً . وكما حمل يسوع خطايا العالم – كما قالوا لنا – حمل فرح آلام

المساكين ونصب نفسه وكيلاً مسخراً ، وإذا لم يجد من يصلبه صلب نفسه .

فقرح كاتب يمثل عصراً بل شعور شعب أثقل ظهره الكتبة والفريسيون بالاحمال الثقيلة ولم يحركوها باحدى أصابعهم . فبينا يكون أشخاصه منهمكين في الحب ، إذا به يحولهم إلى شؤونه وشجونه . ولهذا تراه لا يمتزج بهم ولا يتحد الاتحاد الكلي المطلوب من القصصي الكامل . انه يحب التغلغل في أحشاء الماضي مفتشاً عن « الكمال » الضائع بين الأمس واليوم . فالذي يطلب من رجال الدين الا يتحولوا كالذي يطلب من الفضة الا تتسخ وتزرق، فالنخالة نخالة دائماً ..

ان كتاب أورشليم عراك بين فرح الخارجي وفرح الداخلي تردد نفسه اصداء محيطه الموبوء . أحسن فيه فرح تقسيم شخصيته بين كثيرين ، فهو ان لم ينطق العرب كما ينطقون فالسبب معلوم ، وحسبه انه وضع في أفواههم آيات وكلمات جامعة تدلك على انه يعرف نفسيتهم ، ولهذا تحرك أكثرهم تحت قلمه . اما حديث البطريرك مع ايليا فجميل جداً . وكأنما فرح اكليريكي عتيق يحسن كلام هؤلاء ويفهم روحهم وحركاتهم وايماءاتهم ، وكذلك حوار ايليا وارميا في مواقفها جميعها .

إذا نظرنا إلى آراء فرح على ضوء اليوم ، بدت قليلة الطرافة ، فهو فيها كخوري ماروني درس في روما وباريس ، ثم عاد إلى لبنان فرأوه جديداً ، فما مبادئه الا انعكاس أضواء، ولكن النور حاد لحدة طبع المؤلف واباثه العبودية ، ففي تعنيفه نغمة الانجيل وتهديد التوراة .

يعلم فرح — والدليل مقاله في القصة — ان على القصصي ان يفتش عن موضوعه في محيطه ، ولكن ميله إلى القضايا الاجتماعية واعتقاده ان الانسانية هي هي في كل مكان وزمان أرجعاه إلى الوراء عشرين قرناً ، فنصب مسرحه في محيط لا يعرفه تماماً ، كما فعل شاتوبريان وغيره من كتاب الغرب ، ولهذا خسرت أورشليم فرح كثيراً من الجمال الفني ، فالمسرح لا يتصل اتصالاً وثيقاً بالأشخاص ، وقياس فلسطين على لبنان ، ان صح اجمالاً ، فهو لا يصح تفصيلاً ..

وقد رأيت ان فرح انطون يتعب في آخر الشوط اسلوبـــاً ، ولكنه لا يني خطة ، فيسوق جماعته إلى الكمين سوقاً رويداً .

اما الأسلوب فتارة يكون فيه رسميا – من المجترين – فيقول: والشمس أنقى من مرآة الغريبة ، وذر قرن الغزالة ، وشلشلة نعرفها من اخزم ، وهلم جراً وطوراً – وهذا قليل – يأتيك بتعابير شخصية تدل على لبنانيته ، وأحيانـــاً – وهو الأكثر – يدل على تأثره بالفرنسية . أما بعض الألفـــاظ الدينية فمستعارة من « البعث » التي لخصها ، مثلاً : كيرياليسون ، يا رب ارحم ، وحياة العذراء ، وكذلك رسم الصليب والحلف باسمه .

وقـــد يستعير مشهداً قرأه فيجعله لآخر قوله : (ص ٦٣) « ومن غرائب الاتفاق ان الشمس اطلعت قرنها في هذه اللحظة حين سكت الراهب – ان حادثاً بسيطاً كهذا ، والشمس كل يوم تطلع ، لا يستأهل: ومن غرائب الاتفاق – فوثب الراهب وقال : « هلم هلم نشهد مطلع الشمس ، نبارك الخالق » . فهـذا الاندهاش لا يكون من مقدسي كميخائيل يشهد الشروق كل يوم : فهو ان صح لفولتير لا يصح لهذا الشرقي المحترم ، كما ان « هلم هلم » ليست من كلامه ، ولكن « تبارك الخالق » تستر بشاعتها .

يعجبني هذا الراهب الفالت ويعجبني حديثه في « خطبة الجبل » وان أصدر علينا حكماً قاسياً فقال بلسان الامبراطور :

« هذا شأن السوريين ، فانهـــم متى حكموا أنفسهم كانوا أقرب إلى الجور منهم إلى العدل لكثرة تحاسدهم وتنافسهم ، ولعدم وجود جامعة قومية عادلة تساعد الجيد فيهم وتخذل الرديء » (ص ٦٠) .

وأعجبني أيضاً كلام الشيخ سليمان عن الرهبان ، وان رأيت آراءه أكبر منه : « لا تنس ان الرهبـــان في مملكتنا . كانوا في أكثر الأحيان أقوى من رؤسائهم ، لتحريكهم الشعب عليهم ، وكم حالوا دون اصلاحات مهمة بهـذا السبب الصغير .. ولذلك كانوا قادة الشعب ضد الأساقفة والبطاركة والموظفين

حتى ضد الامبراطور » .

قلت : فمن يشك بهذا فليسأل تاريخ لبنان، وبطريرك الموارنة وأساقفتهم.

وكذلك رأى سليمان في الوطن فقد قال : « ان الدين عندنا هو الوطن ، بل الدين عندنا فوق الوطن وفوق كل شيء » . فقوله هذا يصح فينا أمس واليوم .

وأبرز عيوب قصص فرح ظهور شخصيته فيها ، فهو ملقن عريض الصوت لا يسكت ولو أعطيته ما أعطى الله عبيده، ولذلك أتت قصصه قريبة من الدروس والمحاضرات في بعض المواضيع ، فهو يترك القصص حين يستطيع ويمشي في الاستنتاج هاتفاً : يا ويا ويا حتى لم يدع مكروب الحمى التيفوئيدية بلا « يا » وكذلك ملاك الموت الذي خطف روح استير .

اما « الخطبة على الجبل » فهي مجموعة آراء فرح الاجتماعية واعجابه بالعلم ، ولكنه عاد في آخرها إلى آراء المعلم الجليل . وحب مبادىء يسوع خلق أكثر أبطال فرح من الخيرين يكررون نظرياته في كل قصة ، وقد يكررونها في القصة الوحيدة . غير ان مؤلف أورشليم أمين لا يسرق ولا يشتهي مقتنى غيره ، ولا يفعل بالناس ما لا يريد ان يفعلوه به ، ولهذا نسب كل رأي إلى صاحبه ، ولكنه واأسفاه لو عاد اليوم لقال مع الإمام علي : أرى تراثي نهبا .

مريم قبل التوبة

لا الخصها لأنها غير كاملة ، فيها أدق وصف للعراك الداخلي في نفس المومس وأحوالها الخارجية مع الذين يزورون دكانها ليشتروا من بضاعتها الهاربة ... وفيها رأي السذج بهذه المرأة وخوفهم من الدنو من بيتها لأن فيها سبعة شياطين نقداً وعــداً ، كما خبرنا الرسل الاطهار . انطق فرح الراعي بذلك فجعله من الخالدين. وفيها الحديث الراقي بين مريم وزوارها المثقفين ، وان قل حظ سنيكا الفيلسوف الروماني منها ، فلانه جاءها وقت نوبة سوداء . امــا اسلوب القصة وانشاؤها فأروع ما انتجته قريحة فرح .

يظهر ان ذات الجمال الفتان مثقفة ، والبرهان تلك الرسوم الرائعــة التي صورها بها الفنانون ، فهي تهيج الخصي كافور الاخشيدي وتصيّر الخلي شجياً. فان وضع فرح في فمها آيات بينات فلسان الجدلية يحملهـــا بسهولة ، فالتي تعطي ونأخذ كأم سيبويه لا يصعب عليها ما قالت دفاعاً عن قضيتها . أمـــا جاءها الشاب يوسف وبكى متأسفاً على جمالها الممتهن ، واعتذر لبكائه بذكرى أمــه فأدرك كنهه عقل مريم الحصيف ، فراودته ، ولما صرح كانت أخف من النسيم ودعته إلى الزواج فتلعثم ونكل ، وما هذا في نظري إلا توطئة لعذر المسيح لها غداً ، ولكن الرواية لم تتم .

ان مسرح رواية مريم هذه ومسرح رواية أورشليم واحد ، أما المبادىء فمتناقضة ، والمرجح ان المؤلف كتب أورشليم قبل قراءة نيتشه ، ولولا ذلك

لما حشر مبادئه في قصة مريم . ان نيتشه تبّه فرح انطون فأذاع مبدأه العنيف وهدمه في ساعة بحث بين مريم وشاب روماني . ولم تتم القصة لنرى رأي فرح الأخير الذي « أبقاه إلى ميعاده » كما مر ، ولكنني أعتقـــد ان المعلم صفّى الحساب في خطبته عند شلال نياغرا التي تسوى كتاباً خالداً .

وبعد ، فاننا نشعر بأن الكثيرين من أبطال فرح هم أخوة الكثيرين منا ، نشتركمعهم الاشتراك الكامل، ومتى رأيت فيالبطلعدواً أو صاحباً كانمخلوقاً خلقاً سوياً، كملاك الرب حين تمثل لمريم العذراء . ان هذا « الاشتراك » جوهر القصة الفرد . والقصصي المطبوع يلبس لكل حالة لبوسها كابن همام الحريري ، وهـــذا مــــا فعله فرح ، فرأيناه بطريركاً جليلاً ، وفيلسوفاً كبيراً ، وبهلولاً لامعاً ، وعاشقاً حامياً ، وهو في كل هذه المواقف يجيد اجادة متفاوتة .

تخلق الطبيعة عوالم تموت ، أما عالم القصة فلا يموت ما دمنا نقرأ ، ومثلمـــا ينبغ أفراد في العالم كذلك يكون في عالم القصة ، وهذا ما وفق اليه فرح الذي لم يغفل عن حل أكثر قضاياه كما يفعل القصصي الأصيل . وإذا شئت ان تعرف لون فرح فخذ حفنة من تولستوي ونيتشه رسيمون وروسكن ورنان وامزجهـــا يبدُ لك لون فرح انطون .

أما لغته فسهلة سلسة ، لم تخل من الغلط النحوي واللغوي قـــد يكون سببه ذهول فرح وسرعته . أما رأيه في الكتابة فهو ينبئك به عني ، وهذا ما كتب :

« وعلى ذلك فحقيقة البلاغة ليست في قواميس اللغة وكتب الأدب ليذهب الطلاب ويفتشوا فيها عنها ... فمن لا يملكها في نفسه فعبثاً يطلبها في الكتب ، فانها حسناء ذات دلال لا تسبي إلا مرة واحدة وذلك حين نزول الانسان من جوف أمه . فالبلاغة إذن حسن فطري باطني ، أي نفسي ، كما ان جمال الوجه حسن خارجي ... »

إلى ان يقول : « ويعلم حينئذ الذين ينسبون إلى اللغـــة العربية القصور عن مجاراة لغة الافرنج انهم ظلموها بذلك لأن القصور هو في أسلوبها البدوي القديم

الذي لا ينطبق على حاجات العصر لا فيها نفسها ، لأنها لا تخرج عن كونهـا لغة سامية رقيقة يعبر بها عن كل العواطف الجميلة متى هجر ذلك الاسلوب وحـل محله الاسلوب الذي يسمونه افرنجياً ، وهو في الحقيقة طبيعي أزلي لأنـــه سبق الافرنج واليونان والرومان ووجد الانسان في أول بلاغته » (الجامعة ج ٤ ص ٣١٤ و ٣١٥ .

وأخـيراً إننا نشكر فرح انطون كثيراً . فقد أمضينا وإياه أكبر حصة من الصيف ، فأرحنا الكثيرين من شرنا فصيّفوا مستريحين . . .

لقد كانت سياحتنا عجيبة إذ رأينا في تلافيف ذلك الدماغ الكبير عجائب غرائب ، وها نحن نودعه راجين ان نلتقي مرة أخرى ، وهيهات .

حول جبران ومي

بين عين كفاع وعاليه

الاندلس الجديدة - العصبة - ابو الهول
كراتشوكوفسكي - جبران الخالد

عدنا فهل من يقول العود أحمد ؟..

كتب عليّ كل عام خطوتان ، بل رحلتان ، رحلة الشتاء ورحلة الصيف . وان لم أعبد رب البيت الذي أطعمني من جوع ، وامنني من خوف فلأنني أراه يمنيني بما لا يعنيني ، فهو لي كابن يقطين بشار ، اريده الدنيا وراحتها ، ويريدني يوم الدين للدين ، ومن لج كفر .. فلو زوجني بنته هذه لمهرتهـــا من الغلف والقلف ... أكثر مما مهر شاول بنت داود الملك والنبي التائب !!!

ويلي ان شكوت ، وويلي ان سكت . انا بين ويلين كهريرة الاعشى . لقد صمت مكرهاً خمس جمع ، ولو ذات سوار لطمتني للذ لي اللطم وكانت المصيبة هينة ، ولكنها ، أجلك الله ، تعسة دابة حطمت الآلة الكاتبة ، ورضت لي اضلاعاً ، فدوختني اياماً ، واليك الخبر .

بتنا على سفر فالتأم مجلسنا - مجلس التقربة - للوداع ، وكان الحديث . ذاك يقول للمكاري : هذه آخر مرة يا بطرس يركب دابتك الاستاذ . وذاك : غداً ، أي بعد أشهر ، تزمر سيارته في الوطا وتشق الضيعة فينزل قدام الباب . غداً .. غداً .. وكلنا :

نرجو غداً وغـداً كحاملة   في الحيّ لا يدرون ما تضع

ثم كان الوداع الحار : بوس ، وشد أيدي حتى حسبتنا نتصارع ، واخيراً هونها الله فمرت تلك الساعة بسلام .

ثم أصبحنا والاتان مربوطة امـام البيت تامة الكسوة ، حلس فبردعة ، ومفرشة تحتها خرج في احدى عينيه الآلة الكاتبة ، وفي الأخرى ما يعادلها من متاع ، فالاثقال كالطائفية تتطلب التوازن ...

مشت غزالة – اسم الحمارة – وكان العهد بها فارهة لانها غير عانس ، فاذا بها تتلكأ ، ان جذبت رسنها وقفت ، وان أرخيته اصطكت ركبتاها ، فقلت لبطرس : ايش مصيبة دابتك اليوم ؟!

فأجاب : خيّسها سقوط الليرة أكثر من خمسين بالمئة ، خذ حذرك . ظننته يهزل كعادته فقال : مالك ؟ ما نسينا ايام الحرب .

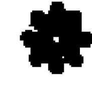
فسكت وسرت وانا على يقين من ان الحمارة ساجدة شكراً لله على حملهـا الخفيف .. ولمـا اسهلنا أخذت تنتق بي ، ثم طفقت تنطق من خلف كحمارة الجاحظ ، فضحكت وقلت لرفيقي : انها تكذّب بطرس .

فسمعها بطرس وضحك قائلاً : يا ليت ...

وبعد سير قليل شرعت تحيد عن الطريق وتمشي في الحقل – والحقل عندنا، كما علمت ، خير من السكة – فتذكرت اتان بلعام الفصيحة ، حين قام صباحـاً وشد عليها وانطلق مع رؤساء مواب ، فحمي غضب الله ووقف له ملاك الرب في الطريق ، وسيفه مسلول في يـده ، فمالت الدابة عن الدرب مراراً حتى وقف ملاك الرب في مضيق ، فربضت الدابة تحت بلعام ، فحمي غضب بلعام كربّه من قبل ، وضربها بالقضيب ، ففتح الرب فمها ، وكان حديث بين الاتان وبلعام يدل على ان الحمارة كانت من كبار علماء المنطق .. واصحاب البحث العلمي . اقرأ هذا الحوار في سفر العـدد (الفصل ٢٢) واياك ان تنسى ان الملاك قال لبلعام : لو لم تمل حمارتك من قدامي لكنت قتلتك واستبقيتها ..

اما انا فلم يقع لي شيء من هذا ، ولا أذكر من هول تلـك الساعة إلا أنني

سمعت هاتفاً يقول : فلتحيا المساواة ، ولتعش وزارة النافعة !!



سبحان من عرّى صيفي ، وجعل خريفي موروقاً . كيف اطلعني « أحمد المعجبين » على مجلة « البرازيل المصورة » فزادني قرفاً للادب العربي ، ما خلا اليسير منه . كانت سياحتي فيها كوجود أحمد فارس الشدياق في مالطة حيث قال : «ومن يكن من العرب ذا غيرة على لغته فلا يطيق ان يسمع الكلام المالطي على فساده .

ومع كل ما تحلت به البرازيل المصورة من ركاكة أقول انني قرأت تقريظاً لها في الاندلس الجديدة ، والعصبة ، وابي الهول .

صار الكلام في شعرنا البلدي – شعر المناسبات – ضرباً من العبث . كان في نيتي ان احدثك باختصار عما قيل في مأتم المتنبي بدمشق ، فوجدت القصائد متقاربة ، فقس على ما قيل وما لم يقل ، واعذرنا ، فقد تناولنا المتنبي وحفلاته العديدة أكثر من مرة ، فالحمد لله على سلامة لحيته من النتف مرة ثانية . ولكننا لن نعفي أحدهم حين تصل الينا قصيدته الثانية التي هجا بها أمة علمته «مدرستها الجديدة » أدبه الذي يعتز به ويحمد عليه . اما الآن فاني محدثك عن « اندلسنا الجديدة » عن أدبنا في البرازيل .

فليلة سفرتي البلعامية حمل الي صاحب البريد مجلة « الاندلس الجديدة » . وما بلغت عاليه مطحطحاً حتى وردت علي مجّلة « العصبة » وجريدة (أبو الهول) فتعزيت ، وهكذا أورق خريفي كما قلت لك لك ، ثم بعد أيام فرحني كتاب « عابرة سبيل » الصادر عن بروكلين ، فانساني بعض أوجاعي .

الاندلس الجديدة مجلة مجلوة كالعروس ليلة زفافها ، حسن نفسي في جمال جسدي . فلو رأتها ولّادة لضاحكت بين جداولها حبيبها « المسدس » وتذاكرا معاً شعرها الرائق مبنى ومعنى . شعر تنزه أكثره عن البضاعة الرائجة في « بندرنا » ذاك الشعر الذي يصبحني كل يوم صباح أحلت أيّ احلت ...

ان أثواب هذه العرائس « الاندلس الجديدة ، العصبة ، أبو الهول » تعبق

بعطر لبنان ـ اما قلبها فينبض بحب العرب ، ولا غرابة في هـــذا الأمر فاللغة العربية ربيبة لبنان في هذا الدهر ، رافقتهم في رحلاتهم البعيدة فاروها محاسن الدنيا أجمع وأروا العالم جمالها الفتان. كانت ربابهم فاسمعوا الدنيا أعذب الالحان وأشجى الترانيم ، لا ينخفض لهم صوت حتى تليه نـــبرات. فما كادت تهمد مدرسة جبران الخالدة حتى طار قبس منها إلى البرازيل فاضطرم واتقد. والعدد الذي أحدثك عنه من الاندلس الجديدة هو عدد تموز الممتاز مهدى « إلى روح جبران الخالد ، سيد ادباء جيله – الجيل بمعناها الأصلي – وامام المجددين في هذا العصر ، واليك عبارة صاحب الاندلس الجديدة الشاعر شكر الله الجر ، وهي مكتوبة تحت صورة جبران .

« أجل – إلى روح جبران الحبيب – نقدم هذا العدد، وهو كل ما نستطيعه من تكريم ذكراه بمناسبة الحفلات التي يقيمها ادباء الاميركان لمرور أربع سنوات على انتقاله إلى دار الخلود .

فاليك يا جـــبران الحبيب هذه الاضمومة العاطرة من أزاهر حبنا تقديراً لآلامك المريرة وجهودك القاصمة في سبيـــل تحريرنا من قيود الجهل والتقاليد ، والنهوض بنا من مهاوي الظلمة إلى مشارف النور . اليك أيتهـــا المسرحة التي ستتحول مع تحوّلنا – قلت ولا شك ـ إلى منارة وهاجة تنير شواطىء أفكارنا واحلامنا ، فنهتدي إلى حقيقة كياننا الضائع في كياننا » .

سلم فمك يا شكر الله ، أمض في سبيلك فالحق معـــك . لا أقول شيئاً في « غمائك » المطرزة بالوان المغيب الذي أتمتع به في عاليه كل مساء ، بل أرجىء كلمتي إلى يوم تظهر في أفق الأدب وإذ ذاك نتابل طلّها بما يستحق . لا تتوقع مني ثناء صرفاً فبوس الأيادي ضحك على اللحى .

صدر الشاعر شكر الله الجر مجلته الموماً اليها بمقاطع من مواكب جبران عنونها « معجزات جبران » ، كما فعل من قبل الصديق الأعز الشيخ فؤاد حبيش في المكشوف يوم نشر رداً عليّ . قلت هذا استطراداً إلى محو ما علق بالاذهان

من زعم السيد عباس محمود العقاد يوم نقد « المواكب » حين ظهر . قال في (الفصول ص ٤٦) :

« وقد فتحنا الكتاب – أي المواكب – فوجدنا في أول شطرة من أول بيت خطأ من هذا القبيل في قوله :

الخير في الناس مصنوع اذا جبروا .

يريد أجبروا » .

قلت : نعم وهي كذلك . كان على الاستاذ العقاد ان يتثبت فيما يقول قبل ان يكتب مهوّلا : « في أول شطرة من أول بيت » كأنما أنزل على الأرض كسف من السماء فخربت . راجع الفيروزابادي وغيره حتى أصغر المعاجم لتعلم تعنت العقاد . اننا نسأل العقاد وأضرابه : من أين جاءت الجبرية ؟ – الطائفة التي تقول ان الانسان مجبور لا أختيار له ولا قدرة : وان الله قدر عليه أعمالاً لا بد ان تصدر منه – انغلط كل من قالوا الجبر الجبرية ، لنخطىء جبران ؟ فما رأيت الجبرة إلا لابن النديم .

نعم ان جبر لغة تميم ، ولكن الذين تكلموا بهذا الحرف وجاروا بني تميم فيه ، كلهم عرب صحاح اللسان . أيظل هؤلاء الذين يحلو لهم ان يكونوا جبران يسقطون على هذه السفاسف التي لا تعلي ولا تسقط ! لست أنكر ان جبران في نثره أشعر منه في نظمه ، ولكنه ، كيفما دارت به الحال ، لا يقل عن العقاد نغمة شعرية على قلة ممارسته النظم ، بل يفوقه كثيراً .

ثم قال العقاد : لم ننته من الصفحة إلا على خطإ ثان في قوله :

فأفضل الناس قطعان يسير بها   صوت الرعاة ، ومن لم يمش يندثر

والواجب جزم يندثر » .

قلت : لا يا استاذنا العلامة ! الجزم غير واجب ، فمن هنا اسم موصول ، ومثل هذا كثير في كلامهم . فليراجع الاستاذ العقاد كتب النحو ، وان شاء فأنا أدله « مغني اللبيب » ، ولا أشك في انه ذاك . فليفتح صفحة ١٩ من الجزء

الثاني طبعة سنة ١٣٠٢ هجرية ، على صاحبها وآله أفضـــل الصلوات واذكى التحية .

ثم قال العقـــاد : « هذا وليس في الصفحة إلا أربعة أبيات » ليوهمنا ان « مواكب جبران » الراقصة من سقط المتاع ، ولكن العقاد كان أسود البخت فاخطأ الغرض ونقد الحبة بمنقار أعوج فأفلتت منه سالمة .

ثم انتقل العقاد من نقد المبنى إلى نقد المعنى فقال :

فاذا ما اللوز ألقى زهره فوق الهشيم
لم يقل هذا حقـــير وأنا الملك العظيم

« قلنا : ــ أي العقاد ــ انه لا يقول ولكنه يفعل » . قلت أنا : ليس هذا ما عناه الشاعر ، وكان على الناقد ان يكون أرحب صدراً وأبعد نظراً ليفهم ما يقصد .

ان أكثر من ينتقدون جبران كهذا الفاضـل ، وجلهم من تبابيـع أدبه ، يتمنون ان يشبهوا به وان أعجبوا بمثل هذا النقد الزيف . ولكن عارفي قدره يرون ان عناصره في الأدب الحـــديث حية لا تموت ، ولا يرون من يدانيه أو يقاربه من هؤلاء المقلدين ، وانه سيظل نسيج وحده ، وكأنما هذه العبارة كتبت لتقال فيه وفي اشباهه من نوابغ العالم الافذاذ .

وبعد ، فان كان لي كلمة أقولها في مجلة أخي شكرالله فهي انه يغالي كثيراً في تقديم كتابنا إلى قرائه ، وينتقي لهم أضخم الألقاب وأفخمها . لا أنكر ان بعضهم جنوا بها وقد يضربون ولا يلبون ان لم يبرزها لهم ، ولكن ما علينا لو عودناهم ، فالأديب الكبير حقـــاً لا يغر بمثل هذه المضحكات ، فليته يكتفي بأسمائهم فقط ، وليت أدباءنا الكبار يتشبهون بسيدات البيوت الخطيرة ، اما تركن التزين بأساور الذهب لخادماتهن ووصيفاتهن !

وأخيراً لا اكتمه ان تقريظه البرازيل المصورة بقوله : « تشمل على أروع المقالات وأبدع الشعر ، وألطف المستظرفات » يثير ظنوني ، ويشككني فيما

يغدق من القلب .

لا تصدق يا استاذ مسرة ، فزملاؤك يمزحون ، والحق هو ما قلته أنا فيها . فان كنت قرأت ، فأعمل على تهذيبها وتجميلها ان كنت تطلب لها خاطبين .

أما مجلة العصبة التي رأيت وجهها الصبيح ولم اضرب لهـا كف موعد فهي لسان حال « العصبة الاندلسية » . اخت رابطة جبران الأدبية ، بل بنت تلك المدرسة الدارسة التي يصح فيها قول دعبل في آل البيت :

مدارس ايات خلت من تلاوة ومهبط وحي مقفر العرصات

متع الله عصبة الخير والأدب الصحيح بعمر طويل لتحيي ثقافتنا بين الامم تطالعك مجلة العصبة باروع مشاهد لبنان ، جبار القطر الشآمي ، وتريك امجد آثار العرب وتسري اليك بعطر الاندلس ممزوجاً باريج لبنى لبنان . فالى الامام يا شباب العرب ، ولا أقول شباب لبنان فلبنان أصبح مرادفاً للعروبة ، وان نفره ما تهربه اقـــلام بعضهم على الطروس . لست أعني إلا بعض ادباء وشعراء ، فما انا بسياسي لأناقش كتابها .

ان صح ان اللسان يوحد الامم والشعوب فجماعاتنا المنتشرة في كل الاقطار المسكونة هم دعاة القومية العربية لا غـــيرهم . فهم الذين حثوا أمس ويحثون اليوم وغـــداً كل عربي من مهاجر ومقيم على تقديس لغته وقوميته . وهم الذين احتلوا مقاماً سامياً بين امم الأرض والذين خالطوا شعوبها مخالطة الأشبـــاه والانداد،وأفهموا بعضهم انهم أحفاد الامة العربية ، فحنوا على جدتهم المرحومة وذكروها بالخير .

قد تظنني مبالغاً ان قلت لك ان مجلاتهم الراقية تحبب الينا لغتنا ، ولكنك ذاهب مذهبي ، ان شاء الله ، متى طالعت « العصبة » الحافلة بكل طريف مفيد من شعر عال ، وأدب صحيح ، إلى تاريخ مجيـــد يهز النفوس ويرفع الرؤوس .

وحياتك يا أخي ، ان اثاراً كهذه تجمد شبابنا المائعين فلا يذوبون في الامم

الطارئة علينا ، أو الشعوب التي طرأنا عليهـــا . فشكري الخوري في « أبي هوله » لبناني فوق كل لبناني ، وهو ممن عبدوا للبنان في زمن عبوديته «٦أيلول» حتى حاول الرجلان ينشىء أدباً لبنانياً لغة وتفكيراً ، فأخرج لنا منذعشرات السنين روايته الرائعة « فنيانوس » ... نعم فنيانوس وشقفه .

لم ينس المتمشرق غناطيوس كراتشوفسكي فضل صاحب أبي الهول في بحثه « أدبنا الحديث » فقال كما ترجموا لنا : وقـد شرع شكري الخوري في محاولة طريفة ، وهي استعمال اللهجة السورية – قلت اللبنانية – الدارجة في الكتابة ولكن أحداً لم ينسج على منواله .

واعجباً للمتمشرق أغناطيوس ، أينسى المكرزل ، صاحب جريدة الدبور الطريفة الحلوة النكتة ؛ وخنا الفغالي صاحب « شموني » القصة البديعة ، فهي أخت فنيانوس شكري وعلى طرازها وان تفاوت سنهما ، بل أعجب له سبع مرات ، وهو يؤرخ أدبنـــا المعاصر كيف لا ينسى حليم دموس وينسى هذين المنشئين فيقول عن شكري الخوري : ولكن أحداً لم ينسج على منواله .

ولكنك لا تلوم غناطيوس مثلي متى علمت انه « مكبر فوتوغرافي » لمـــا كتبه العلامة المدقق الاستاذ جب عن أدبنا الحديث ، كما ضخم العقاد مقالات صديقه المازني في ابن الرومي فجاءت كتاباً غليظاً . فالذي يقول – ان صحت الترجمة فليس الأصل عندي – ان القصة العربية التاريخية شاعت أولاً في محيط البستاني فعذره بيّن كالعنزة البلقاء .

يا لله من بعض هؤلاء المتمشرقين كيف يتصدرون للحكم وما عندهم من آلته شيء ، انهم ككتابهم الذين يكتبون عنـــا ما لا يعلمون ، لقد ذكرني هذا بشكسبير حـــين أرسى المراكب في حلب ، وبشاعر فرنسي – أظنه دي هيريديا – قال : ان لبنان يدخن ، ظاناً انه جبل بركاني .

فأي طالب علم لا يعلم ان المحيط كتاب لغة وضعه العلامة البستاني فأحـل فيه رأس الكلمة محل ذنبها ، أظن « غنطوسنا » هذا أراد « الجنان » فاخطأ

في النسخ ، وجاءت غلطته ثخينة غريبة مثل آرائه العمشاء .

ما رأيت كراتشكوفسكي إلا ناسخاً سالخاً ماسخاً ، كما عبر ابن الأثير في « أدب الكاتب » ، فهو لم يبرح الدائرة التي رسمها الاستاذ جب ، وان خرج من تلك الصيرة رقص رقصة الجدي هنيهة ، ثم عاد اليها يفتش عن ضرع امه ... فما كتبه الاستاذ جب عن أدبنا يدل على درس من يتفهم الكلام ويمحصه ، لا على نقل ومسخ كما رأيت في فصول كراتشكوفسكي الثلاثة التي قرأتها مترجمة في رسالة الزيات .

رحم الله الشدياق ما كان انبهه ، حين خص أمثال كراتشكوفسكي بالذكر في « ذنب الفارياق » – التعبير للشدياق – فاقرأ هذا الذنب العاقل وقل ان هذا الشدياق الذي يقول عنه كراتشكوفسكي « وفي البلاد غير العربية امتاز العصر بظهور بعض الكتاب النوابغ كاحمد فارس الشدياق » كان بابا اللغة لا شدياقها .

لقد حفظها عن ظهر قلبه كالماء الجاري فألف الطرائف المعدومة النظير . وصف لك ما مر على رأسه من المحن ، ومــا رك ، وما التك . آله غرور متمشرق وادعاؤه على قلة بضاعته ، فقال في ذنب فارياقه : « وانما الغرض من هذا الكلام هو ان أبين لهذا الرملي الهارف المتملق مناضلة عن شيوخي الذين أخذت عنهم من العلم ما أخذت ، ان شيوخه لا يحسبون في عداد العلماء . نعم ان لهم باعاً طويلاً في التاريخ فيعرفون مثلاً ان أبا تمام والبحتري كانا متعاصرين ، وان الثاني أخذ عن الأول ، وان المتنبي كان متأخراً عنهما ، وان الحريري الف خمسين مقامة حذا بها حذو البديع وما أشبه ذلك ، إلا أنهم لا يفهمون كتبهم ، ولا يدرون جزل الكلام من ركيكه ، وثبته من مصنوعه ، ولا المحسنات اللفظية والمعنوية ، ولا الدقائق اللغوية ، ولا النكات الأدبية ولا النحوية ، ولا الاصطلاحات الشعرية ، فغاية ما يقال انهم نتفوا نتفة من علوم بواسطة كتب الفت بالفرنسوية » .

وان شئت أكثر فخذ « كشف المخبأ » واقرأ مــا يحدثك به عن الدكتور

لي حين كان يصحح له ترجمة التوراة ، ثم ما كتبه عن بعض أساتذة اللغة العربية في جامعتي كمبردج وأكسفورد .

أجل لقد بذر الشدياق لغتنا الفصحى في كل الأقطـــار كمصر ومالطه ، وانكلترة وفرنسا وتونس حتى بين أتراك الاستانة ، ثم في العالم كله « بجوائبه » وكأنما عناه ابن زريق البغدادي بقوله : موكل بفضاء الله « يزرعه » .

أقدرت الآن هيام لبنان بلغة العرب وسبقه الدائم ، أمس واليوم ، إلى التجديد ؟ فهو باني النهضة الحديثة ولا أقول « الانبعاث » فاللغة العربية لم تمت لتبعث ، بل لاذت ابان محنتها بكهفين : لبنان والازهر . فاللبناني مشاء دائماً إلى التجديد والابداع ، مـــا وقف ولا يقف ولن يقف ، ولديه في كل زمان شاهد عدل . حاول ويحاول التجديد في كل دهر ، وحسبك شاهـــداً هذا التطور الذي تلمسه في مدارسنا الحديثة وان لم تتـكامل بعد فرؤية الهـــلال تبشر بنموه .

لا أشك في انك قليل الايمان بما أقوله لـــك ، ولكنك ستؤمن مثل العم توما حين يمسها أصبعك ، والآتي قريب فـادع لي بطول العمر ، والله يحفظك ويبقيك .

ولنعد إلى مساق الحديث عن هذه الصحائف التي تذاع في جنوبي اميركا ، أليس من الحيف على شباب العرب ألا تكون في متداولهم ومتناولهم وفيهـــا ما فيها من أدب سني ودروس قومية ؟! فليت غرف المطالعة ـ على الأقل ـ تطلبها ، وهل يكثر بدل الاشتراك الزهيد على من يعلم شبابنا المتهافت على قصاع الاجانب كيف يحب لغته ويعبدها ؟

ففي مجلة العصبة نصرة للمغـلوب على حقه كقصيدة الشاعر شفيق معلوف الرصينة ، وقد نقلتها صحفنا ، وفيها رسائل يتيمة لزعيم الأدب الجديد جبران تبين بعض مشاعره الدالة على انه بشر مثلنا ، وليس من الجن والعفاريت كما فهم بعضهم . وفيها قصيدة متينة للشاعرالقروي ورسوم رائعة لبعض مشاهدلبنان.

وصورة سيد المرسلين محمد ـ كما تخيله جبران ، نابغة الفنين : الرسم والأدب ـ تليها قصيدتان غر"اوان في مدح هذا النبي المفرد للشاعرين حسني غراب ونصر سمعان . ثم رسم عربي محض ـ موت عبد الرحمن الشـاني ـ كله فن وروعة . وهناك بحوث شتى ومقالات وقصص موضوعة ومترجمة تملي على المتفرنجين منا دروساً عالية أخص منها بالذكر « ذكاء بدوي » مترجمة عن الانكليزية لاثبات ما يدل عليه عنوانها . وفيها نبـأ ترجمة كتاب نبي جبران آية الشرق للغرب ، بقلم الـكاتب يوسف مرعب ، ترجمـه إلى البرتوغالية كما ترجم من قبل دمعة وابتسامة ، والاجنحة المتكسرة ؛ والارواح المتمردة وغيرهــا من مقالات جبران ، فاستقبلت بما يستحقه خيالها السامي وابداعها الطريف ، فهـل تسمح مديرية المعارف الجليلة فتتعرف باديبها المنفي ؟

وفيها اخيراً : « أصدر الـكاتب المدقق واللغوي المعروف جورج مسرة مجلة شهرية في الحاضرة دعاها « البرازيل السورية » ، وقد مر ذكرها . قد يكون الاستاذ جورج كاتباً مدققاً ولغوياً محققاً ، اما الـكعك فما دل على العجين .

ولا أنسى قصيدة الشاعر الياس قنصل « كيف خلق الله الازهار » ففيها شعر أكثر مما في ديوانه « السهام » كله ، وهـــذا دليل جديد ـ لي ـ على ان الشعر الوطني أمسى علكة يتعذر الابداع فيه إلا على القروم ، لكثرة مـــا لاكته الشعراء منذ ابن كلثوم حتى بشاره الخوري وعمر ابي ريشة . فليس كل ما يقوله الشعراء شعراً وطنياً .

وما وقعت عيني على فهرست العدد السادس من العصبة حتى رأيت توفيق ضعون ، فتذكرت ما كان يذيعه في « النصير » ، رحم الله ذاك العهد ، فهل انت هو يا توفيق ؟ فإن كنت ذاك فابعث الي بعنوانك فلي كلمة أسر بها اليك .

والعدد السادس حافل كأخويه بالشعر الطلي والمباحث المفيدة التي تنم عن مجاهدة مستمرة . امد الله الاستاذ حبيب مسعود ، مـــدير العصبة ، بصحة وعافية ، وأخذ بيده ليثابر على عمله النبيل ،وحيا الله اخوتنا في وطنهم الثاني،

ولا أقول غربتهم فمن كان هذا شأنهم فكل بلاد الله أرضهم ، والعربي مطبوع على الفتح .

أما شكرالله الجر ، ذاك الكناري الفصيح، فما قرأت له شيئاً في «العصبة».
أتراه اكتفى وترك سربه ليغني وحده كأنه نسي ان الطيور على أشكالها تقع ؟

وأخيراً لا بد لي من رأي أبديه باخلاص للشاعر القروي صاحب « شرر الفكر » في هذا العدد ، فقوله :

رباه اني قد عصيتك عامدا   لأراك أجمل ما تكون غفورا

ولقد جنيت من الذنوب كبارها   ضنا بعفوك ان يكون صغيرا

رصين بليغ لا يمكن سبكه في قالب أبدع وأجمل ، ولكن الفكرة طريدة أجيال ودهور ، فمن عهد الخيام وأبي نواس حتى زمن اسمعيل صبري أمس ، وهي تتدهور في حناجر الشعراء ، الأخيار والاشرار منهم ، اما قائلها الأول الذي لاكها ومسها أي مس ولم يترك إلا المجاجة فهو افرام السرياني الشاعر الصوفي المظيم في عرفي ، والقديس الطاهر وملفان البيعة في عرف الكنيسة . ليت المقام يسمح لي فاترجم لك كثيراً من اقواله لترى كيف كان يتغنج ويخاطب ربه بلا كلفة ، أي SANS FASONS كما يقول الشيخ فولتير ، ولكني لن أحرمك واحدة منها وهذه هي : « ان كان العبد بلا خطيئة فمن اين تعرف رحمة السيد ، ارحمني يا الله الخ » .

أرأيت الغنج والدلال ، أأيقنت ان الله ، جل جلاله ، سبحانه وتعالى ، طويل البال واسع الصدر ما انتحر ولن ينتحر أحد من عشاقه الكثيرين ، وسيعفو عنك عفواً كبيراً يليق بعظمته وجبروته . وبينما انا أحاول ختم حديثي بالتي هي أحسن عن رواد أدبنا الحديث ودعاته في العالمين ، وقد أدهشني اخلاصهم للفتهم ، اذا باحد تلاميذي – عراقي – وقد بلغه اني لزمت غرفتي لعارض فأتاني عائداً ، فتجملت في محادثته هنيهة ، ثم عدت إلى شغلي واخذ هو الاندلس الجديدة والعصبة وأبا الهول وقلب أوراقها،وما كاد ينتهي من استقرائها جميعها استقراء عجلان حتى أعجب بعروبة أصحابها وكتابها وقال لي باهجته

العراقية "ملقـد" عرب ، أي أم عرب بهذا المقدار ؟
قلت : نعم وزيادة ؟
وهكذا أيد التلميذ معلمه ، وأحسن ختام مقالة من حيث لا يدري .
وعندما قرأ الاستاذ جب هذه المقالة بعث اليّ بهذه الرسالة ، وهي ليست أولى رسائله ، وقد آثرت نشر صورة لها ليقدر القارىء العربي همة هذا العلامة الكبير واهتمامه بادبنا العربي الحديث .

SCHOOL OF ORIENTAL STUDIES.

VANDON HOUSE,
VANDON STREET,
LONDON, S.W.1.

Telephone: WHITEHALL 4755.
Telegrams: SOSLINST, PHONE, LONDON.

في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٣٦

سيدي الاستاذ المحترم
أعترف بتقصيري في حقكم وأتسرع الى تداركه . ولا عذر لي الا ان شتى المشاغل قد حالت دون متابعة دراساتي في الادب العربي الحديث مع شدة اهتمامي به ، حتى عضوية المجمع اللغوي لأن غيبتي السنوية في مصر والقيام بأعماله يضطرني الى مضاعفة ما عليّ من الأعمال المدرسية في لندن وكذلك منعني من الزيارة المنشودة الى لبنان .

وقد تسلمت، ولكم مزيد الشكر، مقالكم
الأخير في الادب العربي في برازيل وقرأته
بكل اهتمام لا سيما وليس لي معرفة شخصية
بالأدباء هناك وبمنتجاتهم. وقد شوقني
ما كتبتم فيهم الى الحصول على بعض منها،
وسأحاول ذلك لأدرسها في الوقت القريب
الا انه لا يمكنني ان اوافقكم فيما قلتم
عن الاستاذ كراتشكوسكي، فانه باحث
جليل القدر في الأدب القديم والادب الحديث
قد تفرغ له من ثلاثين سنة وعندما
ابتدأت بدراسة الادب الحديث اتصلت
به كتابةً وانتفعت كثيرا برسالاته
ومقالاتها وارشاداته، ومما يجوز ان
يقربه لكم انه تخصص بدرس الادب
اللبناني وأراه شجعنا بهذه الساحة.
وختامًا ارجوكم قبول هذا الرسم
مني مع تحياتي واحتراماتي.

[signature]

جبران خليل تقي الدين

قرأت في جريدة « المكشوف » الغراء مقالة « جبران خليل جبران كما أفهمه » للشيخ خليل تقي الدين ، فخلته يحدثنا عن طهرا بك الفقير الهندي الذي جاء بيروت منذ أعوام وعمل العجائب ، أو عن « مغربي » جاز الدكتوراه من « مغارة دانيال » التي ينفتح بابها كل عام مرة كما يقول الناس .

أجل ، ان جبران خليل تقي الدين أحجية لا تفك ، فكأنه في مولده عمرو بن كلثوم ، وفي موته امية بن ابي الصلت .

ولماذا لا ، ألم يقل الصديق خليل في جبران : فاذا مولده مطلع عهد جديد، واذ وفاته تاريخ !

ما هذه الحيرة يا استاذ ؟ جبران بشر مثلنا ، ولد في بشراي من ذكر وانثى (سنة ١٨٨٣) أمه « كامله » بنت الخوري اسطفان رحمـــه ، وهي أرملة لا عذراء ... اسم زوجها الأول حنا عبد السلام رحمه ، واسم الثاني خليل جبران « سميّك » . لا أدري من أوحى إلى الشيخ يوسف توما البستاني تلك الكلمة التي كتبها في مقدمة « البدائع والطرائف » عن مولد جبران ، « ويقـــال بل في بومباي الهند » ، حتى جعلها مخائيل نعيمه مفتاحاً لقـــبر صديقه جبران ... لست أعني ان نعيمه أساء إلى جبران بقوله عنه : انه حب واحب ولا فيما خبرنا من قصص ، فليس جبران ذا طبيعتين ..

أما كلام جبران ، وهو موضوع بحثنا ، فعربي مفهوم . اما كيف يخفى على

الشيخ خليل ذي العقل الراجح ، والنظر الثاقب ، فهذا ما يحيرني لقد حيرني تحويم الشيخ ودورانه ، وهذا التجاهل ، وتلك الالفاظ الضخمة الطنانة التي أنعم بها على جبران بلا كيل ولا ميزان : سر من الأسرار ، نبوغ ، عبقرية ، رسالة ، خلود ، نبي ، رسول ، فيلسوف ، الغاز ، رموز ، وهلم جرا . فكأن جبران هندي حقاً ومن مواليد بومباي ، والشيخ أيده الله ، يريد ان يقلده عقداً من أزهار بستان اللغة ...

أنا قلت : ان لجبران أسلوباً عربياً معروفاً كالعنزة البلقاء . ولجبران تلاميذ في كل قطر يقرأ أبجد ، هوز ، حطي ، وبسم الله الرحمن الرحيم ، وطوبى للرجل .. أقرأ ما كتبه « حجازي » في رسالة أحمد حسن الزيات (عدد ١٤٩، ص ٧٨٤) عن النهضة الأدبية في شبه جزيرة العرب . فصاحبها يعترف بانهم كانوا تلاميذ المدرسة الجبرانية قبل ان « يرتدوا » ويتتلمذوا للمدرسة المصرية التي ناهضت مدرسة جبران باسم الثقافة الاسلامية ، كما قال المتمشرق « حب » وقد نشرت السياسة الاسبوعية هذا الزعم بكل فخر (عدد ٢٠١ ص ٢) . فلماذا نتجاهل هذا ونحاول تحديد جبران من الجهات الأربع ، كأننا نكتب فيه صك بيع ؟ . ان بحثنا لم يتعد الاسلوب الجبراني ، ولم نسأل مجلس المعارف الأعلى إلا وضع صاحبه بين أصحاب الأساليب ، فكان ما كان مما لست أذكره.

أما زعم الشيخ انه قال في ذلك اليوم وتلك الساعة . ان جبران خليق بان يدرس في كلية من كليات الآداب ، فذكرني قصة رجل عزل عن وظيفته فحار في أمره حين سقطت سلطته ، وقد تعود الأمر والنهي ، فاشترى بضعة أباريق صفها أمام داره لعابري السبيل ، فكان ان تناول أحد منهم الابريق العتيق فأمره باخذ الجديد وبالعكس .

اين كلية الآداب هذه يا شيخ ؟ اكلية « عليكره » ببومباي حيث ولد جبران ؟. ثم رأيتك ترجح وضعه في منهاج الفلسفة لئلا يغضب اذا لم ير أعمى المعرة . فحنانيك يا شيخ ، اننا نشرب بالابريق الذي تنقيه لنا فاسقنا ...

انما بغير الوعد يا كمون .. ألا تذكر وعد عام أول ؟

لا أخالك تنسى كم ناقشناك ، وكم سألناك ، حتى ناشدناك ملتمسين « صفو الخاطر » على الفقيد الكريم ... فما رحمته ولا تركت أحداً يرحمه ... وهكذا اصطلحت الاضداد في تلك الساعة ، على روح جبران كما اصطلحت من قبل على جسد الجاحظ .

والآن فللأمرّ مراً خفيفاً بنقط لا بد من ايضاحها تفنيداً لما كتبته اثباتاً لغموض جبران .

قلت : ان مخائيل نعيمه الذي عرف جبران وآكله وشاربه أراناً ، وتراب جبران لا يزال مبللاً بدموع الباكين ، انه رجل مادي يبيع بالمال كل شيء حتى جسده ، ويشتري بالمال كل شيء حتى الحب .

أسمح لي ان أسألك : ما عـــلاقة هذه الحكاية بادب جبران وأسلوبه هل خبرك أحد انني أريد « تطويبه » قديساً ؟ ثم من يدري ، فقد تكون توهمت ذلك حتى قلت بعد أربعة أسطر : فاذا مات — أي جبران — أرقده رجـال الدين في ظلال الأرز الخالد ، وجعلوا قبره حجة ومزاراً ، وأضاؤوا من حوله الشموع ، وقدسوا التراب الذي ضم رفاته ، ثم دعوا المؤمنـين لزيارته على انه قديس ..

على مهل يا شيخ ، لقد استعرت قلم غبريال شارم ، وبيار بنوا ، فكأنك من أولئك الكتاب الغربيين الذين يزورون ديارنا ويقولون علينا مثل هذا .فواعجباً لك وانت اللبناني الصميم ، ورئيس ديوان المعارف اللبنانية ، كيف لا تعرف ان رجال الدين لا يقدسون حتى البابوات والبطاركة !! ان الشيوخ الأجلاء عندكم — الجويدين — لا يرحمون من في حياته أقل شبهة ، والمسألة في ايديهم فكيف برجال الدين عندنا ويديهم قصيرة عن هذا ان مسألة تطويب القديسين مسألة شرحها طويل ، واليك مثلاً يجلو لك الكثير من غوامضها :

حكي ، والله أعلم ، ان المجمع الروماني حال دون تطويب أحـــد الرجال الصالحين حين ثبت له بعد بحث مئة سنة انه كان يتنشق العاطوس مثـلي .

أرأيت ما اصعبهاخطة وما أبعدني عنها ؟

اما قصة جبران فهاك حديثها : في صيف سنة ١٩٣٠ زرت بشري وحدثت الخوري فرنسيس رحمه ، وشبل بك عيسى الخوري ، والشيخ خليـــل صادق بامر شراء دير مار سركيس ، ليكون مـــأوى لجبران في آخر العمر ، فأبى الرهبان الكرمليون بيعه . وبعد شهور مات جبران عن تلك الوصية التي خاب امل مخائيل نعيمه فيها ... فغر المال الرهبان ، والمـــال غرار ، فباعوا الدير — بل الكهف المهجور — ونام فيه جبران إلى يوم يوقظه بوق مخائيل .. أو حين تلده امرأة أخرى كا توهم في نبيه ...

ان كل ما يتمتـــع به جبران من احترام وتكريم لا يد لرجال الدين فيه .فلو مات جبران فقيراً لما عرف احد اين قبره حتىولا الذبان الأزرق...انحن في امة تعرف أقدار النوابغ ؟

ولزيادة الايضاح راجع ، غير مأمور ، رسالة البطريرك الياس الحويك تعزية لبشري بفقيدها جبران ، فهي لا تتضمن العبارة « التقليدية » . كل هذا يثبت لك ان لا يد لرجال الدين في كل ما صنع ويصنع لجبران .

كتب واحد — من غير رجال الدين — فوق ضريح جـبران بنور الكهرباء « هنا يرقد نبينا جبران » ، فأمر باصلاحها فاطاع وصارت نبينا «بيننا»وأراني مضطراً ايضـــاً إلى تفنيد زعم آخر وهو قول الارشمندريت بشير في مقدمة « النبي » : ان جبران مرشوق بالحرم الثقيل . فلا ثقيل ولا خفيف ، ولا كبير ولا صغير ، فلو كان جبران محروماً لما صلوا عليه .

ما هذه المصيبة ! ما انتهينا من اصلاح « سنكسار » جبران الخرفش حتى اصطدمنا بفنه التصويري . ليقل الشيخ في هذا ما شاء ، فماذا يعني مثـــلي من « الفنون الجميلة » ؟

هذا وقد وصلنا إلى عبارة تمس موضوعنا . قـــال الشيخ : « ونقرأ كتبه — أي جبران — فاذا العربية منها خليط من مقالات كتبت لمناسبات معلومة

وروايات أملتها عاطفة الشباب ، بعضها يمت إلى الأدب بصلة ، وبعضها يمت إلى الفلسفة بصلات » .

كيف تكون الروايات والمقالات يا ترى ؟ ومن يكتب غير متأثر بحال من الأحوال ، بل من يطلب من الكاتب ان يصير جنياً حين يكتب ، فلا يحس ولا يشعر ؟

ثم قال : « ولكن أكثرها لا يجعل من جبران الأديب الخالد والفيلسوف صاحب المذهب المعروف » .

اذن بقي اسم صالح من أدب جبران . وحيث انه لا منهاج في الدنيا يدرس الكاتب جملة ، فلينتق لنا جناب الشيخ هذا « البعض » . وبهذا يكون حل جزءاً من مسألة جبران الهندسية ...

أما زعمه ان جبران هدم بعض الاسس التي قامت عليها اللغة ، فوالله لم أدر بعد ما هي ، فهل من يدلنا عليها وله أجر وحلوان ؟

فان كانت الاخطاء النحوية والصرفية واللغوية ، فاجرير والفرزدق وعمر وبشار وابي تمام والمتنبي وغيرهم خطيئات ما زال بنونا يتحملون عقابها كالخطيئة الأصلية .. وان كان يعني الأسلوب أو التعبير فكتاب الله — القرآن الكريم — نبذ أساليب الناس وتعابيرهم العتيقة الخشنة حتى قالوا عن الرسول ، ﷺ ، انه ساحر مجنون ، وشاعر مفتون . فهل فينا اليوم من يشك في ذوق الله ، تقدس اسمه ، كما فعل أبو جهل وأبو لهب ؟ أيضير جبران خروجه من صيرة القدماء ؟ أما فعل ذلك غيره من مجددي الكتاب في الامم ، هذا هيغو الذي ندرسه في المنهاج ، ألم يقل :

J'ai mis un bonnet rouge au vieux dictionnaire.
plus de mot Sénateur ! plus de mot roturier !
. . . . Le mot propre ce rustre
N'étant que caporal, je L'ai fait colonel.

أما كفانا هذا الجمود احقاباً ؟ فقد أساء الناس الظن بالعقلية العربية .

أما قولك ان جبران قد يكون فكر ان يكون نبياً ، وما عليه لو فكر ؟

ألم يفعل ذلك المتنبي ؟ ثم من يقاص الناس بخطيئة الفكر غير الله ؟! هذا نيتشه الذي نحا نحوه جبران في نبيه ، لم يقل انه صار الهاً إلا ساعة خرف ، فأخذ يصافح كل من يعرفه قائلاً له : فلنغتبط ، اني اله .

أما جبران فلم يخرف ، ولم يقل شيئاً من هـذا . وكأني بالدكتور فيليب حتي ، وقد رأى الناس في حفلة تكريم جبران يسمعون كلمته واقفين ، خاف عليه من هذا التعظيم الفائق فقال له ما قـال في تلك الساعة ، فمثل دور « اليوناني » الذي كان يهمس في إذن البطل ساعة تأليهه قائلاً له : لا تنس انك انسان .

اما الكنيسة التي تليت فيها كتب جبران كالكتب المقدسة ، فهاتيك مرسح لا كنيسة ... أيصدق الشيخ ، جزاه الله صالحة ، قول نعيمه عن بيع جبران جسده بالمال ، ولا يصدقه حين تكلم عن هذه الكنيسة المجنونة ؟ .

ثم قال : « وبعد ذلك يقوم صديقنا مارون عبود – أذكر جيداً اني قمت ولم أتكلم قاعداً – فيعجب كيف لم يدخل اسم جبران في منهـاج الأدب العربي في البكالوريا اللبنانية ، وادخل فيه أسم المنفلوطي ، وحقنـا نحن ان نعجب من هذا » وبعد ان يبين ان لا شبه بين المنفلوطي وجبران قال : « ألا يعلم الصديق ان مناهج الأدب توضع لبيان تطور الآداب في سيرهـا نحو الكمال » ؟ .

قلت : بلى . علمت شيئاً ، وبنـاء عليه طلبت تدريس جبران لانه أخطر حدث أدبي في تاريخ نهضتنا الحاضرة ، فلا يشق عليك ، ايها الصديق ، ولا على شيخنا المنذر ان قلت لكم ولكل من يقرأ : ان عمل المنفلوطي لم يفق عمل من يجلو الصدأ عن حوائج البيت المعدنية ... وان كل ما كتبه هامد همود القبور ما خلا بضع مقالات تجول فيها الروح جولان الهر المنازع في جراب ... امـا التجديد فلا أشرك المنفلوطي فيه ولا بسهم ، لانه مقـلد للاقدمين يفتش عن خرثيهم ، ويحسب الفن كله في العبارة المصقولة . وفي فقه اللغـة ، والالفاظ

الكتابة ، ونجمة الرائد ، ومعين الشرتوني ، غنى للتلميذ عن المنفلوطي . وبرهاني على ما قلت أخذه ترجمة فرح انطون لبولس وفرجيني ، فرمى برنردين وفرحا بحجر واحد ، وكذلك فعل بقصة جبران « صراخ القبور » ، فخنق فن جبران ولم يفهم خطاً واحداً من خطوطه ، فكان كصانع أحمق ينقض على التمثال بمهدته ليجعل منه زاوية للمدماك .

ثم قلت ان المنفلوطي « قــدم للادباء الحقيقيين قوالب مصنوعة بيد صانع ماهر » .

اما أنا فأقول : وهو يستعير الاديب الحقيقي قالباً من عند أحد ؟! ومتى كانت الروح تخلق قبل الجسد أو بعده ؟!

اليس الكاتب الحقيقي من يخلق الاجساد ولا يستعيرهــا ؟ فهو كالاسكاف وغيره ممن لا غنى لهم عن القالب .

ان الخياط الاستاذ لا يتقيد بالهنداز ، وان فعل فما يخيط ثوباً مهندماً ، بل قباء كالذي خاطه عمرو لبشار .

ثم قلت ان المنفلوطي « كصانع الأقداح يصب الزجاج ويلونه ، وعلينا نحن ان نملأه بالراح » اليس الاولى بالاديب والحــالة هذه ، ان يتشبه بالراعي الذي يكرع من النهر والعين ويترك طاسة الزنخ ؟

وبعد ، فلا تسم هذه الاباريق والاكواز والدوارق والصحون اقداحــاً ملونة ، فيتسرب الشك إلى نفسي فيك ، فلا تزعزع ايماني ، اما ولغ في هــذه القصاع مليون لسان ؟ اما مستها مليون شفة ؟ ليس هذا ما ندعو اليه ابناءنا . اما اذا كنت تريد ان يلهو ابناء هذا الجيل بالقشور فاوصهم بقراءة «افتتاحية» أحمد حسن الزيات في رسالته ، فيشبعوا من هذا الخروب حتى البشم ...

ولما عرضت لما وقع سنة ١٩٣٣ في مجلس المعارف الأعلى قلت : وضعنــا موضع البحث اسم جبران ، فقال هذا العاجز . الا ترى ان هــذا « العاجز » منفلوطية بل اقدم عهداً ؟ انها تستاهل الجواب المألوف : كلك خير وبركة ،

فلماذا هذا التواضع العميق يا شيخ شباب الأدب ؟

اما قولك اخيراً « وليس من مخرج لنا من هذا المأزق إلا ان يتقدم صديقنا مارون عبود باقتراح يرمي إلى ادخال الارشمندريت انطونيوس بشير في منهاج البكالوريا وعند ذلك تنحل العقدة » ...

الله كريم يا شيخ ، ولعل من عقد الامور يحلها ، فليتك تصير جبران ، ويترجمك الارشمندريت ...

وبعد فأراك تتغنى كثيراً بالقصة ، ألم يعجبك شيء من قصص جبران ؟ أليس بين قصصه العربية قصة تستحق الدرس ؟فلماذا تتذرى خلف جبة المطران انطونيوس بشير ، وتتلطى وراء « لاطيته » ؟! ما لنا ولادب جبران الانكليزي ، فنحن نبحث أدبه العربي وأسلوبه وما فيه من فن ، فلماذا المغالطة ؟ هات الجديث فاما ان تشايعني فيه أو انني اشايعك عليه .

اما جبران فهاك رأيي الصريح فيه : هو فيلسوف يلبس مطرف الشاعر وطيلسان الأديب . وبكلمة أوضح ، جبران فيلسوف في أدبه ، وأدب جبران فلسفة ، والعنصران متحدان في كلامه اتحاد اللون والعطر في الزهرة المنمنمة .

حاشية : ايها القارىء الكريم ، لا تتوهمنّ بعد قراءة هذه الكلمة ان جبران لا عيب فيه ، ففي جبران من العيوب ما في كل أديب خطير ، ولكن لا تنس ان جبران من افراد الجيل « العالميين » الجديرين بالنقد والتقدير ، وان ضاق عنه منهاج البكالوريا اللبنانية فحسبه رفوف مكاتب الادباء في العالمين .

لقد عاد جبران إلى خاصته وخاصته لم تقبله ، وكذلك النابغة يزعج معاصريه لانه لا يساير الجماعة كما قال جورج سوريل .

حول عكاظ الحكمة

كتاب ابراهيم المنذر

الجمهورية اللبنانية – مجلس النواب

اخي مارون .

اجدت امس كما اجدت في بعض ما كتبته قبل امس ، شأن كل كاتب وناقد يصيب احيانا ويخطىء احياناً ، وقد خرج الخطباء على الأثر من الحفلة فحييناهم ولم تخرج معهم فنحييك .

اما جبران فقد اصبت في ما ذكرت عنه ولكنك اطلت وطلبت ما ارجح ان المدرسة لا تجيبك اليه ، ولا شك انـــك تذكر اني كنت واياك في جانب جبران وزيدان في لجنة المعارف فلم نفلح . ولا يعني انتصارنا لجبران انتقاصاً من قدر المنفلوطي ، فان اسلوبه في الانشاء (العربي) يفوق أسلوب جبران ، ويجب ان نضم الرجل إلى ناشري لواء البلاغـــة والتهذيب في الشرق فقولك « ان اللجنة ابدلت المنفلوطي من جبران » فيه تحقير للمنفلوطي ، ولا اظنك تعني هذا بل تعني وجوب وضـــع جبران في مصف الكتّاب المصلحين في منهاج البكالوريا .

واما حملتك على شعراء العصر في التهـــاني والترحاب والاستقبالات فحملة مردودة لان كل شاعر مهما علت منزلته في مثـــل هذه المناسبات مضطر ان

يقول كلمة شكر ، ولا تكون كلمة الشكر آية من آيات الفن والخيال والتصور والابتكار .

وهناك ابيات كثيرة من غير هذا الباب فسرتها ، يا ابا محمد ، بغير ما يريد صاحبها ، أو شرحتها باستهزاء والمعنى فيها مقبول مأنوس ، وليس بالصعب على كل ناقد ان يزدري قول اعظم شاعر متهكماً ويجعل الفاظه مبتذلة ومعانيه مسروقة .

بقيت المحاسن يا مارون .. اين هي ، فقد يكون للشاعر بيت في قصيدة يعادل قصائد — ويظهر انك تريد ان تهدم البيوت على اربابها فتقتل جميع ما فيها ، وكم هنالك من كنوز تضيع تحت الانقاض ، وليس هذا عمل النقاد المنصفين .

احييك وادعو لك .

بيروت ، ٤ — ٥ - ٣٦ اخوك المنذر

الجـــواب

الجامعة الوطنية — عاليه ٧ — ٥ — ٩٣٦

اخي وشيخي ابراهيم ،

لا انسى يوم كنت تشجعني فتى—عفواً ما عنيت انك اسن مني كثيراً..— ولكنني اذكر بلذة اياماً كنت امر بها على « مكتبك » فتبسم لي واعدها نعمة ، واني لا ازال احرص على رضاك الغالي جد الحرص .

قلت في كتابك الكريم المفتتح بهذا التعبير ، فـلا حيا الله ولا سلم الله : « اجدت أمس كما أجدت في بعض ما كتبته قبل أمس شأن كل كاتب و كل ناقد يصيب احياناً ويخطىء احياناً ، وقد خرج الخطبـاء على الأثر من الحفلة فحييناهم ولم تخرج معهم فنحييك » .

لم أخرج مع الخطباء لان همتي قليلة فسبقوني ، واكتفيت بتسليمي عليك ، سلام الاحباب بعد الغياب ، قبل ان صعدت المنبر ولم يدر في خلدي قط اني

غير حاصل على رضاك . اما الاصابة والاجادة فحسبنا منهما الافـادة وانهاض أدبنا المقعد ما نستطيـع . اما الخطأ – والعصمة لا أدري لمن – فليتك تدل عليه ولك من الأدب أجر غير ممنون .

يا شيخنا ،

حمل الي استياءك وبلغني رسالتك الشفهية بل نصيحتك الاخوية ، من حملته اياها ؛ فشكراً وعذراً وان كنت تأمر فتطاع ، فأنا ماض في سبيلي ، فادع لي بالتسهيل ... فان تقدمت بهذا الأدب خطوة صغيرة بلغت أقصى الاماني فأنا رجل قنعان .

أما قولك إني أصبت فيما ذكرت عن جبران فلك الشكر على ذلك مني ومن نزيل وادي قاديشا ومجاور الأرز . وأما اني أطلت الكلام عنه وطلبت مـــا ترجح ان المدرسة لا تجيبني اليه فجوابه : إننا في زمن « مطالبات » أو لستم كذلك في المجلس ؟ فـــان فعلت المدرسة أحسنت ، وإلا فلا حرج عليها . الزاد زادها تأكل منه ما تشاء وتطعم مـــا تشاء ، كما قال معن بن زائدة للأعرابي .

ثم قلت لي « تذكر اني كنت واياك في جانب جـــبران وزيدان في لجنة المعارف فلم نفلح » . اني أذكر ذلك ولا انساه ، وقد أشرت بقولي : ولم يبق في جانب جبران إلا المتهمون في دينهم مثله . أي أنت وأنا ومن لف لفنا ...

اما اني قلت « ان اللجنة أبدلت المنفلوطي من جبران » فما هكذا قلت ، بل : وهكذا أقر المنفلوطي في المنهـــاج ونفي جبران من وطنه الذي يردد كل يوم :

ملء عين الزمن سيفنـــا والقلم
أرزه عزه رمزه للخلود

أما ان أسلوب المنفلوطي يفوق أسلوب جبران ، فاننا لا نتفق في هـــذا يا شيخ ، اننا نريد غير هذا الكعك ، انا من العجين ، وبكلمة أوضح قد قرفنا

خبز الملة ...

ثم تقول لي «واما حملتك على شعراء العصر في التهاني والترحاب والاستقبالات فحملة مردودة ، لان كل شاعر مهما علت منزلته مضطر في مثل هذه المناسبات ان يقول كلمة شكر ، ولا تكون كلمة الشكر آية من آيات الفن والخيـــال والتصوير والابتكار » .

أظن – وبعض الظن اثم – ان هنا « التخلص » يا استاذ ، فان شئت رأيي في شعر الفرح والترح فاليكه : ليقل الناس الترحيب والتهانيء والتعازي نثراً فهو خير من هذا الشعر الدميم المقرف . وان وفق الشاعر إلى ابداء عاطفته بفن وابداع فليقل شعراً . أما متى قال شعراً مثل هـذا الذي نقرأ فليطمره ، ولا يدع الهرة أفطن منه كما قال البديع للخوارزمي .

ثم قلت – وأراك تقول كثيراً اليوم – « وهنالك أبيات كثيرة من غير هذا الباب فسرتها ، يا أبا محمد ، بغير ما يريد صاحبها ، أو شرحتها باستهزاء والمعنى فيها مقبول مأنوس ، وليس بالصعب على كل ناقد ان يزدري قول أعظم شاعر متهكماً ، ويجعل الفاظه مبتذلة مسروقة » .

اما اني فسرتها بغير ما يريد صاحبها فلا أظن ، أما شرحها باستهزاء فهذا لا شك فيه ، ولكن هل يتيسر لي هذا الاستهزاء اذا لم تكن الالفـــاظ والمعاني مبتذلة ؟ أما السرقة فاظنني قبضت على مرتكبيها متلبسين بالجريمة ، امـــا المعاني فاعترف لك انني ما عدت أقنع منهـــا « بالمقبول » ولا اغصب نفسي عليه .

أسمح لي ان أصارحك بما في نفسي يا سيدي الشيخ ، يظهر انهـــا قصة الباذنجان .. لا قصة منفلوطي وجبران ، وانك لمروان كما قـــال علي لعثمان .. ليتك تفقأ هذه الدملة فتستريح .

ثم قلت :

« بقيت المحاسن يا مارون .. أين هي ، فقد يكون للشاعر بيت في قصيدة

يعادل قصائد » .

أظن انني أشرت إلى بعض المحاسن يا أستاذنا ، ولكن يظهر ان ما يسرك منها أكثر مما يسرني ، وأنا لا أستطيع ان أرى إلا بعيني ، وهي ضيقة كما يقول الناس ، ولا تكبر الاشياء .

وأخيراً قلت :

« ويظهر انك تريد ان تهدم البيوت على أربابها فتقتل جميع ما فيها ، وكم هناك من كنوز تضيع بين الانقاض ، وليس هذا عمل النقاد المنصفين » .

لا يا شيخ — يقطع السم — تروّ قليلاً ، هل النقد في عرفك هـدم ؟ وهل هدمنا حتى الآن غير أكواخ عششت فيها البراغيث والبق والخنافس ؟! ما هدمنا بعد يا شيخ غير أكواخ خشبية جرياً على قوانين « البلديات » الحديثة . ليتك تسمي من تعني لنجول جولة حول هذه « الرمم » فتوافقني على هدها ، رحمة باولادنا ، ولا يؤثر بقلبك الرقيق عويل أصحابها . .

سيدي الشيخ ،

حييت ودعوت في ختامك ، ولم تقبل وتصافح كعادتك ، أما أنا فحالي معك لا تتغير ، وهي دائماً على حد قول شاعرنا العامي القديم :

لمّن بشوفك بنفعطلك من بعيد وبستحي سلم عليـك بفرد إيد

وأخيراً و كأني بالغضب قد ضيق صدرك الواسع فطويت كتابك على البطاقة التي سطرت عليها ما يأتي : « اذا شئت يا أخي ان تنشر هذا الكتاب وتجيب عما فيه فلك ذلك » .

لبيك يا شيخ والأمر لك ، ها قد فعلت ، وشرطي في الأمر ألا نقف ، وأن تصرح في الآتي ولا تلمّح ... والسلام عليك من أخيك .

مارون عبود

لذكرى جبران الخالد

إلى حضرة الاستاذ حبيب أبو شهلا وزير التربية بالوطنية .

أما وقد نسخ الاستقلال شمار منصبكم الخطير ، فراح وزير المعارف وجاء وزير التربية الوطنية ، أفنرجو تنسيقاً جديداً في منهاج البكالوريا اللبنانية ؟ أم نظل ندرّس فتياننا ما ينعّسهم ، فيرون وجهنا كوجه الناعي ؟

ان الجديد في هذا المنهاج فلتة ، فأكثر شعرائه وكتابه من طراز واحد . نفتتحه بامرىء القيس – أول من بكى واستبكى ، وقيّد الأوابد – فنبحث معلقته بيتاً بيتاً لندل طلابنا على ما أبدع ونفهمهم خطة الشعر العربي .

ونتغلغل في الانجاد والصحاري والبطاح فيقبل علينا زهير ، أبو من ومن ومن ، وربيب أوس المقعد ، فتكبح « سئمت تكاليف الحياة .. » طموح الشباب وتكرههم العيشة قبل العشرين . ونتركه يتبجح بحكمة مبتذلة يضحك بعضها الاطفال ، فيلاقينا طرفة الشاب على ناقته فيصفهـا لنا من رأسها إلى ذنبها حتى يقتلنا الضجر قبل ان يدعونا إلى « كأس روية » وتنبري لنا قينته ونرى نداماه البيض كالنجوم ... فنقول شيئاً غير مـا قلناه في زهير وامرىء القيس .

ولا نخلص من هؤلاء حتى يطل علينا عنترة على ناقته « أولاً » ويبادينـا كالثلاثة السابقين ، في استنطاق دار عبلة بالجواء ، وينزل ذلك الحر الطازج عن ناقته ليركب جواده ويكر ، فيشكو الحصان بعبرة وتحمحم ، وتلين نفس عبلة

العتية امام البطل الطب بأخذ الفارس المستلئم .

وعلى حدود العصر الجاهلي يلاقينا النابغة الهربان من وجه أبي قابوس فينشد في البلقاء وقلبه في الحيرة . فهؤلاء خمسة في واحد لولا فرق زهيد لا يساوي تعب الاستاذ وتلاميذه . فهلا نكتفي بتدريس اثنين ثلاثة منهم ، وان قلنا الحق : فاثنان يشبهان .

ونبلغ صدر الاسلام وهو أعظم عصور تطور الأدب فنتمسك بالفروع ونترك الأصل . ندرس الحجاج بن يوسف ، وعبد الحميد ، وحجتنا « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » وعلى الدنيا السلام ...

ثم نتشرف بزيارة البلاط الأموي فنرى هناك ثلاثة فحول يتناطحون ، وملوكاً وامراء يتلهون في نقارهم . نرى الأخطل والفرزدق وجريراً ينبشون قبور القبائل ويمزقون ألاكفان ويصلبون الموتى على مصلبات الطرق ، فننتظر كارهين إلى تلك المقابر المفتحة ونظمها آسفين ، موصين طلابنا باحترام كل دين ، لافتين نظرهم إلى شعرهم الانساني فقط ...

ولا نتنفس الصعداء حتى يطلع ابن ابي ربيعة « يعدو به الاغر » في ميدان الشعر الحي فتطيب نفوسنا إذ نرى الشعر يقلع ثوبه العتيق ويلبس جديداً .

ويمتد ظل الزمان فنبلغ العباسيين ونرى ابن برد الأعمى بصيراً بالفن ، يقعد القرفصاء بالبصرة ويرسل شعره طيراً أبابيل ، وحجارة من سجيل . ونشهد أبا نواس مقبلاً في ظل كرمه يستعرض القدماء البائسين الباكين ويكركر في الضحك . فنمجد الفن في شاعرين ظريفين : خفيف وثقيل ، أحسا الحياة وأحباها فجعلاها شعراً نسّانا شهوراً سوداء الجبين .

ولا نفارق هذين الشاعرين حتى نعيد سيرتنا الأولى ، فنرى أبا تمام والبحتري وابن الرومي . ان في الطائي غنى عن الكبير ، اما ابن الرومي فيشفع تصويره في تعبيره .

ونطوف مع المتنبي في الامصار فيسمع المعلم والتلميذ ما يرضيهما ، فنهيم

– كل يغني على ليلاه – حتى نستيقظ على صراخ النواحة الأسير في « رومياته » فتمتلىء الغرفة بكاء بليـداً ، ولولا « رائتيه » لفطسنا . فما دعا هذا البكاء الحردان إلى محضرنا ، إلا قول حسود : « بدىء الشعر بملك وختم بملك » . وينقضي نواح ابي فراس فيتلوه غناء الاندلسيين فتشجينا أنغام موشحاتهم ، ونرى صورة حياتهم تتحرك أمامنا .

ويجيء النثر فنرى ابن المقفع في كليلة ودمنة يعلو ويسفل كالمكاء ، فنقول ما يحضرنا في اسلوبه ، وحسبنا منه انه عدل عن سجع الكهان وفصّل الكلام ثياباً للافكار . وتنسى التعب إذ يواجهنا الجاحظ ، أبو الطرف الكحيل ، يحمل على لسانه أدباً نابضاً في كلام راقص ، فنمرح في مقاصيره وجناته التي تجري من تحتها الانهار فيهزنا الفكر يزهو بثوب النكتة الشفاف .

وننتقل إلى مقلده بديع الزمان فنرتاح إلى أدبه الشخصي ونعذره على تقليد باري قيه معاصريه . ثم ننتقل إلى الحريري – شيخ انسنا من ربيعة الفرس – فينعس الصف وليس على الاستاذ إلا ان « ينتف عثنونه من الهوس » ويرفع الصوت جهرة ، ولا بأس عليه من آية انكر الأصوات ... فهو ان لم يفعل يرقد تلاميذه رقدة أهل الكهف ، ونختم درس الكتاب بالترحم على الجاحظ الذي خلق أسلوبه الأصفهاني وكتابه الأغاني ، خزانة الأدب العربي .

اما ابن الأثير ، وحظه قليل من المدرسين والدارسين ، فما أحوجنا إلى درسه ، فهو مهذب الذوق اللفظي ، واستاذ نقد بصير بمواضيع الكلام ، وان نفخنا ادعاؤه ، فالصبر جميل ، ولا سيما أزمة البكالوريا كادت تقتل الانشاء فامسى الطالب وليس يهمه إلا « المنهاج » ليحمل شهادة .

ونشرف على النهضة الحديثة فنرى على قمتها أحمد شوقي وفي يده كتابه مرآة العصور السالفة كلها ، فنرد الكثير من شعره إلى أصحابه ، وندل على ابداعه ، ونلهو وأولادنا بمسرحياته اياماً ، ثم نتركه لنزور بضعة نفر من أضياف المنهاج : اليازجي والبستاني والمنفلوطي وولي الدين ، فنرى الثلاثة يقلدون

القدماء ولا يزيدون إلا صقلاً وتلبيساً ، ونرى عند الرابع تجديداً استمده من نفسه الخانقة لا من جملته ..

وهكذا نمسح أيدينا من تراب المنهاج اللبناني الذي يستغني عن نصفه ويظل حملاً ثقيلاً ، لا نسمع ذكر لبنان إلا مرتين عند المتنبي ، حين رأى جبلنا من خلف ، وعند شوقي في قصائد أنطقته بها المآدب والأوسمة . هـــذا في القسم الأول ، أما في القسم الثاني فلا شيء من هذا ، فلبنان شاعر لا فيلسوف ... فكيف تكون البكالوريا لبنانية ونوابغ لبنان مطرودون خارجاً .

اين زعيم النهضة جبران خليل جبران ، جبران الشاعر النـــاثر الأديب الفيلسوف ، جبران أبو القصة اللبنانية الحديثة ، جبران الخـالق أدباً لبنانياً شرقياً . فموسيقاه من عيوننا وجداولنا ، ورهبته من أوديتنا وكهوفنا ، وأبهته من ربانا وقممنا ، وسفينته من أخشاب غاباتنا ، ومداد الوانه من قوس قزح لبنان .

جبران الذي عاش لبنانياً بين ولولة المعامل وعجيجها فما التهى بجسر بروكلين عن قنطرة المدفون ، ولم ينس نواح المعصرة وهزج البيادر ، فنظم لبنان نشيداً سليمانياً . استوحى هذا الجبل فـكان له برقه ورعده ، وصواعقه وعواصفه ، وصفاؤه وهدوؤه . لم يبـال بناطحات السحاب ، فمات وهو يحن إلى شماريخ لبنان . رأى الخلود كله على القرنة السوداء فنام نومة الابد مغطى باذيال برقعها الناصع البياض .

يا حضرة الوزير ،

ان منهاج البكالوريا اللبنانية ناقص جـداً جـداً ... ولا يتمه إلا اثنان : الشدياق وجبران . فهذان كاتبان مبدعان حقاً ، ونواحيهما شتى ككبار كتاب العالم وادبائه ، وما أبعد النوم والضجر من الدارس والمدارس في ناديهما العامر. فمر بصف كرسيين للاميرين تغنم ثناء الأدب الحي ، وأرحنا من بعض أوثان الأدب ، وأجرك على الله .

اما انت يا جبران ، يا عريس نيسان الذي غنيته في موكبك ، فلا تقنط من رحمة تاريخ الأدب . انك لحي في الكثيرين وان لم تتجمع عناصرها كلها في واحد .

نم يا فتى الليل ، ولا تترجّ القيامــة ثانية يا ابن الفجر ، فهيهات ـ كما قلت لك مرة ـ ان تلدك امرأة أخرى .. هذا حلم رأيته عند صيــاح الديك ولا تعبير له .

ان العاشر من نيسان ليوم تاريخ نهضتنا الحديثة ، ففيه انطفأ كوكب طلع من لبنان ، ودار دورته في الابراج وعاد الينا رماداً مطهّراً .

جبران اللبناني

اذاعت هذه المحطة[1] بمناسبة ذكرى آلام السيد وعيد الفصح المجيد قطعتين من الأدب الجبراني الخالد ، فتذكرت جبران الذي مات في الحادي عشر من نيسان وقلت لقلمي : امش على خيرة الله ولنكتب شيئاً عن جبران الذي لا يموت في ذكراه السابعة عشرة .

ان عناصر جبران الفنية لا تعد ولا يستطاع درسها إلا في مجلد ضخم ، هذا اذا اعتصمنا بالايجاز ، ولهذا أحببت ان أتحدث الليلة عن جبران اللبناني .

ترعرع جبران ونشأ في لبنان فانطبع بطابعه ، ثم طوى سجل شبابه واكتهل في أميركا ، ولكنه لم يحدثنا عن غير الشرق ، فكأن معامل أميركا وعمليتها لم تؤثر شيئاً بروحية جبران ، فعاش بين ناطحات السحاب يحلم بظهر القضيب والقرنة السوداء شاعراً ومصوراً وكاتباً .

فكر أولاً بانشاء مدرسة أدبية عربية فكان مؤسس مدرستين في لغة الضاد الرومنتيكية والرمزية . ففي جبران ، وهو سليل الشدياق واسحق والحداد ، وسبط أيوب واشعيا وارميا وسليمان ، وافرام ويعقوب ، والمعري والمتنبي والفارض ، عناصر تفاعلت فكونت الأسلوب الجبراني .

والرابطة القلمية التي خلقها جبران هي أول مدرسة منظمة في أدبنا العربي ،

---

(١) القيت هذه الكلمة من دار الاذاعة اللبنانية ببيروت .

كان غرضها خلق مدرسة أدبية جديدة ، فاشبهت من جميع مناحيها المدرسة الرومنتيكية الأوروبية ، حتى في التصوير . والأسباب التي كونت هذه المدرسة الأدبية عندنا هي التي كونت تلك هناك ، فهناك الثورة الفرنسية وهنا الحرب العظمى الاولى .

وكما زعم رجال النهضة الرومنتيكية ان الشاعر يقوم بأهم عمل اجتماعي ، وانه فوق الناس ، كذلك اعتقد جبران وتلاميذه . تصوروا ، كما تصور هيغو ، ان الكتاب هم قادة الانسانية ، والكاتب أكبر من المزريان ، وعليه ان يحمل مشعله حتى الموت في يده . وكذلك اعتقد جبران حتى كتب النبي ويسوع ابن الانسان وآلهة الأرض وظل يكافح حتى النفس الأخير .

وكأني بالدكتور فيليب حتي ، حين رأى الناس يسمعون كلمة جبران في حفلة تكريمية ، وقوفاً ، ويقدمون للناس كتبه مجلدة مفضضة كالانجيل والكتب السماوية ، أعلن على الملأ في كلمته التي القاها في تلك الحفلة :

انا نرجو ان يظل جبران بيننا .

وبعد موت هذا المعلم العربي العظيم قال الدكتور حتي أيضاً :

والحقيقة هي ان اسم جبران ، وحده ، لسمعتنا ونفوذنا في هذه البلاد ، يساوي كل ملايين الدولارات التي أدخرناها .

هذا هو جبران اللبناني في نظر المتزمين ، وقلما نري كاتباً تعصب لجنسه وعرقه ولغته كجبران ، فاذا فتشنا عن الالوان المحلية المستمدة من المحيط اللبناني وجدناها صارخة في ما كتب جبران بالعربية والانكليزية . استمد الشاعر هذه الألوان الزاهية في انشائه من سماء بلاده وأرضها . ففي التعابير الجبرانية بياض الثلوج ، وخضرة المروج ، واصفرار البيادر ، وأنين المعاصر ، وشقشقة العواصف ، وشموخ الجبال ، وحزم الأرز ، ونواح الهاوية ، وزمجرة الأودية ، وثرثرة الينابيع ، وعربدة الأنهار ، وهلهلة الضباب .

استمد هذه الألوان واللدونة والمرونة والنعومة من أجواء لبنان ، فاشتعلت

حافات عبارته ، وأرسلت نوراً وناراً وموسيقى . إن تمسك جبران بشرقيته حمله على المحافظة على قوميته ، فوقف كل ثروته على بلدته . ووعده هذا وذاك بشيء من ماله ، ان صحة الرواية ، يذكرني بالثوري أحد بخلاء الجاحظ الذي كان يقول عند الاشهاد « قد علمتم انه لا وارث لي ، فاذا مت فهذا المال لفلان » ، فعلل الكثيرين بالآمال ، وورث واحداً لا غير .

إن جبران لفي غنى عن الانتساب إلى قومية جديدة فهو وحدة قومية . وحرصه على قوميته حمله على ان ينفخ روحاً جديدة في لساننا العربي المبين فقال في ذلك يكتب بعضنا لمن ماتوا ولا يدري ان قراءه في المقابر ويكتب بعضنا لارضاء معاصريه حاسباً أن في ذلك العظمة والخلود فيخطىء المرمى . ويكتب بعضنا لانه ان لم يكتب يمت . وهذا من الخالدين » .

والذي عندي هو ان من يغالي في المحافظة على القديم بحذافيره يكون كمن يحفظ جميع أفراد اسرته ويبقيها في بيته ، فأي رعب يحدث له . فلنكلف انفسنا عناء الخلق ، فالحياة إنما تجدد نفسها بمواليدها ، ولا نخف آلام المخاض واخطار الولادة ، فهذه من لوازم الحياة .

يظن بعضهم ان ليس جبران إلا كاتباً خيالياً ، وقد ضل من ظن ذلك . فلجبران غرض أبعد جداً من هذا يلبسه ثياباً محاكة على نول حديث ومفصلة طرازاً جديداً .

إنني لا أسمع حين أقرأ جبران في جميع أطواره إلا صوتاً عاماً يغني على نايه لجميع النفوس ، صوتاً يغنى لجمال الليل وأخطاره ، ونشوة الصباح البكر ، يرثي الامنيات بنشيدته المحزنة فتصبح صلاة الأطفال عند يقظتهم في الليل . انه ينشد أروع شعره المحزن لتذكاراته القوية التي لا تموت ، فيحس بتساقط أوراق الخريف موسيقى الابدية . وهكذا يريك خطوات الموت واحدة أثر واحدة ، فاذا شئت ان تحس وطنك وتشم أرض بلادك أيها اللبناني، فاقرأ جبران ، واشكر للعناية هذه الهبة ، فقد أعطتك اديباً عالمياً خالداً .

لا تنس أيها اللبناني من لم ينس لبنان حين رأى الدولارات تفد إلى صندوقه

فجمعها ليتركها من أثاره حيث نشأ وحيث يرقد الآن جثمانه . لا تبال بما يقال ، فالذين يحولون إلى الوجوه عنه لن يظفروا بشيء إلا الأسف واللوعة . اسمع الآن صوت جبرانك اللبناني فتعلم ان في الأدب الرفيع نفحة من النبوة . قال جبران منذ عشرات السنين :

« لكم لبنانكم ولي لبناني . لكم لبنانكم ومعضلاته ، ولي لبناني وجماله .

« لكم لبنانكم بكل ما فيه من الأغراض والمنـــازع . ولي لبناني بما فيه من الاحلام والأماني .

« لبنانكم عقدة سياسية تحاول حلها الأيام، أما لبناني فتلول تتعالى بهيبة وجلال نحو أزرقاق السماء .

« لبنانكم مشكلة دولية تتقاذفها الليالي ، اما لبناني فأودية هادئة سحرية تتموج في جنباتها رنات الأجراس وأغاني السواقي .

« لبنانكم صراع بين رجل جاء من المغرب ورجل جاء من الجنوب . امـــا لبناني فصلاة مجنحة ترفرف صباحاً عندما يقود الرعـاة قطعانهم إلى المروج ، وتتصاعد مساء عندما يعود الفلاحون من الحقول والكروم .

« لبنانكم مرافىء وبريد وتجارة ، امـــا لبناني ففكرة بعيدة ، وعاطفة مشتعلة ، وكلمة علوية تهمسها الأرض في اذن الفضاء .

« لبنانكم موظفون وعمال ومديرون ، امـــا لبناني فتأهب الشباب وعزم الكهولة وحكمة الشيخوخة .

« لبنانكم وفود ولجان ، اما لبناني فمجالس حول المواقد في ليال تغمرها هيبة العواصف ويجللها طهر الثلوج .

« لبنانكم طوائف وأحزاب وخطب ومحاضرات ومناقشات « اما لبناني فتغريد الشحارير ، وحفيف أغصان الحور والسنديان ، ورجع صدى الغابات في المغاور والكهوف .

« لبنانكم شرائع وبنود على أوراق ، وعقود وعهود في دفاتر ، اما لبناني فمعطرة في أسرار الحياة وهي لا تعلم أنها تعلم ، وشوق يلامس في اليقظة أذيال

الغيب ويظن نفسه في منام .

« لبنانكم ، شيخ قابض على لحيته ، قاطب مـــا بين عينيه ، ولا يفكر إلا بذاته . اما لبناني ففتى ينتصب كالبرج ، ويبتسم كالصباح ، ويشعر بسواه شعوره بنفسه .

« لكم لبنانكم وابناؤه ، ولي لبناني وابناؤه .

« فابناء لبنانكم هم الذين ولدت أرواحهم في مستشفيات الغربيين ، واستيقظت عقولهم في حضن طامع يمثل دور أريحي .

« اما ابناء لبناني فهم الفلاحون الذين يحولون الوعر إلى حدائق وبساتين . هم الرعاة الذين يقودون قطعانهم من واد إلى واد ، فتنمو وتتكاثر وتعطيكم لحومها غذاء ، وصوفها رداء .

« هم الاباء الذين يربون التوت والامهات اللواتي يغزلن الحرير . هم البناؤون والفخارون والحائكون وصـــانعو الأجراس والنواقيس ، وهم الشعراء الذين يسكبون أرواحهم في كؤوس جديدة ، وهم شعراء الفطرة الذين ينشدون العتابا والمعنى والزجل .

« هم الذين يغادرون لبنان وليس لهم سوى حماسة في قلـــوبهم وعزم في سواعدهم ، ويعودون اليه وخيرات الأرض في أكفهم ، وأكاليـــل الغار على رؤوسهم .

« هم الذين يولدون في الأكواخ ويموتون في قصور العلم . هؤلاء هم أبنـــاء لبنان . هؤلاء هم السرج التي لا تطفئها الارياح والملح الذي لا تفسده الدهور . هؤلاء هم السائرون باقدام ثابتة نحو الحقيقة والجمال والكمال » .

لكم لبنانكم ولي لبناني ، هذا ما يقوله جبران أما أنا فأقول لروحه في ذكراه السابعة عشرة : لقد تحقق الكثير مما تمنيت وحسب لبنان انه له جبران .

في مدينة جبران

ما هذه أول مرة أزور فيها بشري عاصمة مقدمي المردة يوم كان لبنان مهابا . عرفتها سنة ١٩١٢ ، ونمت تحت أرز لبنان الراكب على كتفها ، تنظره من الحدث والديمان فتخاله زهرة ناضرة شكها الزمن في عروة لبنان .

مررت بها في ذلك الحين بعدما زرت شيخ الجبل البطرك الياس الحويك ، بت عنده ليلتين أحلى وأقصر من ليل عمر ... كانت نكاته ونوادره الوجيزة تنعش حضرته ، واذا احتشمنا تحككك بنا لنقول ، ويأبى إلا التبسط فنفعل ، متذكرين قول الفرزدق في زين العابدين :

يغضي حياء ويغضى من مهابته فما يكلم إلا حـين يبتسم

ودرى غبطته أنني زائر الأرز غداً فضحك ضحكة خرساء ، ولكنه خبأ النادرة لساعتها . وجئته في الصباح مودعاً فقال : وأين مكاريك ؟

وجاء المكاري فاذا هو من بطانة الذيل البطريركي ، والبغلة بغلة الكرسي فقال له : توقّ صاحبك ، إصحَ هه ، الطريق عكشه .

وأخذت يده فوضع يسراه على كتفي وقال : زر قصحيا بدربك . فقلت : زرته وما انتفعت .

فضحك وقال : لأن شيطانك كبير ... مع السلامه .

وبت بالأرز ، وكلفني نفس الأركيلة ثـلاثة بشالك — اجرة رسول إلى بشري — وتعشيت كبة نية ، ونمت في خيمة نصبهـا الشيخ نسيم حنا ضاهر

لزوار الأرز . وفي الغد اجتزت بشري فرأيتها بيوتاً متراكمة . أوسع طرقاتها أقل من باع ، وأكثرها أزقة بالكد يسلكها شاب ضخم مثلي .

وزرت بشري بعد الحرب الكبرى مرات فـــاذا هي هي ، بيوت ملزوزة كخلايا النحل ، وقرايا النمل ، فقلت في نفسي : يا ضيـاع الماء والهواء في هذا البلد . هيهات ان تظفر بشري بصيف واحد .

وزرتها أمس فانكرتها . الشوارع مفتوحة كذراعي يسوع حـــين قال : « تعالوا إلي أيها المتعبون والثقيلو الأحمال وأنا أريحكم ، والسبل منفرجة كيدي أم تستقبل وحيداً حديث الكرج والدبدبة . وساحات فسيحة كصدور أهلها الكرام ، وأقنية حديثة تجيش فيها الميـاه جيشان النخوة في صدور أبناء بنت الأرز . وبكلمة تغني عن الف : آمنت بفورونوف ورجوع الشيخ إلى صباه بعدما رأيت بشري تتبرجت بعد حياء وخفر .

فمن أبرز هذه العروس وجلاها ؟ انه جبران . هذا أول أديب عربي اثرى من القلم ، عفواً ، من الريشة . ولست أعني ريشة التصوير بل تلك التي كتبت المجنون ، والسابق ، ويسوع ابن الانسان ، وآلهة الأرض ، وحديقة النبي ، ورمل وزبد .

وصى جبران بهذه الثروة الطائلة لمدينة بشري ، وحرم منهـــا أخته وأهله جميعاً حتى صديقه مخايل نعيمه الذي لم يصح حلمه كما قـــال في كتابه جبران خليل جبران .

اما القائمون بهذا العمل فلجنة جبران الوطنية ، يرأسها شاب ناهض وفيّ هو السيد سليم رحمه ، ومن أعضائها الذين اجتمعت بهم ، وكلهم ذو همة كرئيسها : الشيخ القاضي طنوس جعجع ، والخوري طانيوس جعجع ، والشيخ مجيد حنا ضاهر رئيس البـلدية ، وشابان ناهضان من اسرتي الفخري وسكر ، وأمين صندوق اللجنة السيد منصور حبيب لدوس .

أما أمين الصندوق فشيخ يطل على السبعين ولكنه نشيط حريص على المال

ككل خازن وقيّم يؤلمه انفـــاق فرنك ، على رخصه ، إذا لم يكن طبقاً لنية جبران ، هذا الشيخ لم يعقب وقد جمع مالاً كثيراً أنفقه على البر والاحسان ، وهما في عرفه محصوران ببشري كما حصر جبران ثروته بها .

بشري نائمة في حضن الجبل تغني لهـــا الجداول ويهدهدها الهواء ، ويمر نهر قاديشا تحت أقدامها فهي أبداً في حمام بارد . ينتصب فيها الحور كالعمالقة بين أقزام الأشجار المثمرة ، فلولا البيوت لخلتها غوطة ، ولولا الأجراس التي تقرع دائماً للصلاة ، وخصوصاً جرس الاباء الكرمليين لحسبت انـــك في خلوة . لا صراخ ولا عياط في بشري ، تمر بقهواتها كأنك مـار بغرفة قراءة ، وان لم تر كتباً أو جرائد .

تحيط بها الجبال من الجهات الأربع ، وكيف التفت ترى شماريـخ منتصبة كأنها التماثيل والقباب ، ومن الشرق يتدلى الشلال فتخاله سلسة فضية في عنق « الجنّة » الحسناء ، وترى أنابيب كهرباء قاديشا كأنها الحية التي خدعت أمنـا حواء ، هذا اذا كانت سوداء ، فكل لاهوتي يكسوها لوناً من مخيلته ، أما الماء فمثلوج أبداً ، وهو مريء هدام لما تبنيه المطابخ .

وصلت بشري عصر الاثنـــين ١٢ آب ، وقرب الغروب زرت جبران في بيته الموحش ، في دير مار سركيس المخبأ في عب غابة تجري من تحتها الأنهـار كأنها الفردوس المحكي عنه . يذكرنا هذا الدير بالآية القائـــلة : « وينحتون من الجبال بيوتاً » . وهذا شأن سكان لبنان القدماء وخصوصاً النساك والحبساء . الدير رهيب لا جميل ، كان ملعباً لجبران في صباه فأخـــذ عنه أشباح الليل ومواكب النهار ، تحيد من السكة وتمشي في لحف الجبل قليلا فتبلغ الكنيسة ، وهي خارج سور الدير كعادة رهبان لبنان في ديورتهم ، فالنساء لا يدخلنهـــا أبداً . تلج الكنيسة ، وهي كهف غائر في صدر الجبل ، فيواجهك تابوت جبران المسطح في مغارة كأنها حنية كنيسة مارونية ، شرقية لا غربية ، مزينة برفرف من متحجرات مغارة قديشا التي اكتشفهـا الخوري الناهض طانيوس جعجع ، ومرتبة التابوت مفروشة بخشب زيتون عتيق كأنه مـــأخوذ من البستان الذي

صلى فيه يسوع ، حبيب جبران .

كتب بول بورجه يوم زار بيت غوته شاعر الالمان مقالا جاء فيه : إن صورة الأشياء التي يعيش بينها كاتب عظيم تتحد باثاره لتكملها وتوضحها . إن هذا ما شعرت به ثلاث مرات : الأولى في أورشليم والجليل ، والثانية في المعرة ، والثالثة في بشري .

نمت تلك الليلة متأثراً وأصبحت تاسياً ، فزرت صديقي الاستاذ خليل صادق ثم اجتمعنا برئيس لجنة جبران المنصرف إلى تكميل فندق جميل أحدثه في قلب بشري . وطوفت في بشري يرافقني أمين صندوق اللجنة السيد لدوس ، فأراني أعمال لجنة جبران التي أنفقت في هذا العام على ترميم بشري نحو عشرة آلاف ليرة فحمدت المسعى .

وبلغنا بيت جبران حيث تمت رواية وع وع وع ، التي أتحفنا بها مخائيل نعيمه ، فاجفلت كمن رأى أفعى . إنه أشبه بزرب حمير ، لا سقف له ولا جدران . وأدرك ذلك مرافقي الأمين فانبأني بالمشروع الخطير الذي سيتم في العام القادم ، وقد وافق عليه غبطة البطريرك أنطون ، وهو هدم كنيسة مار سابا التي يعاد بنيانها على حافة الجبل .

يرى البشراويون جبران غير ما نراه نحن الادباء ، يرون فيه مسيحياً مخلصاً حتى للطقسيات، ولذلك يقدّسون لراحة نفسه كل أحد على مذبح مار سركيس، اما الترحم عليه فلا ينقطع .

وانتقلنا من بيت جبران إلى متحفه فمررنا على ساحة جديدة في وسطها ينبوع يتدفق من أشداق الأسود ، ولا عجب ان أوحى إليهم هذا المشهد فهم أسود تلك الغابة .

استقبلنا محافظ المتحف الشجاع وعرفنا فرحب بنا ترحيباً « شوفياً » ينمّ عن وفاء ورحابة صدر ينسيان الضيف وحشته ، وما اكتفى الرجل بالترحيب بنا حتى رحب أكثر من مرة بالسيارة التي حملتنا إلى بشري . وأخذنا تواً إلى

غرفة جبران فرأينـــا تحته البسيط وعليه فراش ذكرني بالفراش الذي للأب اغناطيوس التنوري ، منتثرة فوقه وسائد ومخـــدات ، والصليب معلق فوق رأسه ، وفي الناحية الأخرى شماعدين دهرية أظنها عمل بيت شباب ، فخلت انني في مار روحانا عين كفاع . وهناك أيضاً شماعدين ذات سبعة أنوار وجبران مولع بهـذا العدد . وتحت الرف القائمة عليه الشماعدين مطبخ جبران الزاهد ، من المقلي إلى القصعة والملعقة الخشبية . وقد مدت في أرض الغرفة صورة جبران التي أهداها ميشال العبد إلى بشري ، وهي من بلاط صيني كالتي في بكركي تمثل البطريرك عريضه بتاجه وصولجانه وبرفيره . وضعت هذه الصور هناك موقتاً وستنقل إلى بيت جبران مع متحفه .

ومضينا إلى قاعة ثانية فاذا هناك أيضاً أشياء جبران الكثيرة ، منها عصاه التي رفعها مرة كما أخبرنا الاستاذ نعيمه في رده على الريحاني . وفيها ساعات جبران وكلها عادية ، وأقلام وتحف وطرف وتماثيل صغيرة بينها صورة ماري هسكل وكل عدة مصنع جبران التصويري . وخرجنـا إلى الدار نطوف على الصور المعلقة على جدرانه وأكثرها رمزية توحي حيرة وخشوعاً وعجباً . ذكرني متحف جبران بقول نشيد الانشاد : « هوذا سرير سليمان حوله ستون جباراً ... كبرج داود المبني للسلاح علق فيه الف مجن » . وفي الدار مكتبة جبران أكثرها انكليزية ، أمـــا كتبها العربية فالأغاني ، وبعض كتب نحو وبيان ، وكتب عديدة مهداة اليه .

فتشتها فلفت نظري رواية مخائيل نعيمه « الاباء والبنون » التي يقـول في أهدائها إلى جبران انها أول أثاره يهديهـا إلى عزيزه جبران وهو ذاهب إلى الحرب ، وقد تكون الأخيرة . الحمد لله انها لم تكن الأخيرة ، ولو كانت لخسر الأدب العربي كثيراً .

وأستوقفني أكثر كتاب للآنسة مي ، قدمته لجبران بهذه العبارة : إلى « النبي » مع الرعب . وهناك كتاب آخر منها نسيت عبارة أهدائه .

وأخذت اتأمل الصور المجموعة في جلود من الكرتون وكلها بالقلم الرصاصي فعثرت بينها على واحدة مقدمة لميشلين سنة ١٩٠٨ وهي صورة جبران الشاب بقلمه . وفي المتحف صورتان كبيرة وصغيرة عليها مخايل القدم لم أفهم سرهما ولكني متكل على الصديق الفنان الشيخ قيصر الجميل الذي سيدرس متحف جبران بدعوة من اللجنة .

وخرجنا من المتحف مشيعين بنظرات محافظة الباسل السيد حنا مارون الذي ينام على مسدس كاد يذهب ضحيته ليلة لولا لطف الله به وبعائلته .

وعدت إلى الفندق أتمتع بلطف صاحبه بربر بك الضاهر وإيناسه ، وقبل الغروب جاءني السيد لدوس لنذهب إلى اجتماع لجنة جبران في هذه السنة الضيقة . وفي النادي تعرفنا بوجوه بشري أعضاء اللجنة ، وبحثنا شؤونا تتعلق بجبران الخالد لو كانت وافقت اللجنة لانتعش الأدب العربي كما أراد جبران وفعل . وسرنا خطوة ثابتة إلى الأمام ، والكحل خير من العمى .

لا تتعجب ان قلت لك كنا نخال جبران معنا . فصورته ، بريشة الجميل ، في صدر القاعة التي اجتمعنا بها . إن جبران أول أديب عربي له متحف أثار وبيت يزار ومدفن فخم ، وسيكون له أشياء غير هذه وهو يستحق . وعلى ذكر يستحق أخبرك انه استحق شكر لبنان ، بعد الموت — من الدرجة الثانية — والبراءة معلقة على جدار متحفه .

ان جبران في تآليفه العربية لبناني محض بل أقليمي حتى في سماء بعض أبطال قصصه وأماكنها ، ولا بد للراغب في فهم جبران فهما تاماً من زيارة الاقليم الذي نشأ فيه ودرسه إذ يلمحه في كل مقال كتبه . جبران في هذه الكتب العربية من أعظم مفاخر لبنان الأدبية ، أما في كتبه الانكليزية فانساني شامل وهو فيها مفخرة الشرق كله . حمل إلى العالم عطر الشرق وبخوره وأنوار شموعه ...

هرب جبران من ظل الاكليروس ووقف بعين الشمس ، ولكنه اليوم ينام

بينهم . فهم الذين يصلون عليه كل أحـد كما قلت لك . ثابت عندي ان الذين كرههم جبران من رجال الدين هم غـير كهنة بشري الودعاء النقية قلوبهم . فكهنة بشري ، كما رأيت ، ديمقراطيون لا يعرفون ارستقراطية الاكليروس ولا يرون لانفسهم سيادة إلا تحت القبة وجناح الهيكل .

في بشري نحو ثلاثين كاهناً ! لا تتعجب ، فأنا أذكر انه كان في عين كفاع تسعة خوارنة ، وعين كفاع أربعون بيتاً ، كلهم من طراز : الكبير فيـــكم فليكن لكم خادماً.

وأخيراً لا تتعجب من صوفية جبران ، فموقع بشري مدرسة يعلم الصوفية بلا استاذ ، فحيا الله بشري وأهلها ، وحيا لجنتها الجبرانية العاملة بلا ملل ، ووفقها إلى احياء ذكراه وان كان في غنى عني وعنها وعن منهاج البكالوريا .

من أجل الأدب

إلى الرئيس اده – مجمع جبران وجائزته

سيدي الرئيس ،

أذاعت الصحف انذاراً يمنع رعيتك القلمية ان تذكرك ، فهل يمنعنا هذا ان نتذكرك ونذكّرك ؟

اننا نباهي بثقافتك العميقة الواسعة ، ونعلم انك حفيد شاعر لبناني جري‌ء[1] كان قذى في عين الجزّار وقد أرخ وفاته التأريخ الرائع .

ولا نزال نذكر بالفخر موقفك النبيل عبر البحر المتوسط ، غير ناسين انك باهيت بثقافة هذا البحر . الحق معك يا سيدي ، أترى دول أوربا العظمى تحوم حول هذا الحوض تدعيه ، وتنسى أنت أيامنا الغر على شاطئيه الشرقي والغربي ؟ الا تذود عن حوضنا ولو بالكلام ؟

أراني فهمت كلمتك الشهيرة على غير الوجه الذي فهمه بعضنا . أدركت انك تقول للغرب : ولئن كنا اليوم أمة صغيرة نحضر هذا المعرض بتواضع عميق ، فلا تنسوا اننا كنا السابقين في هذا الميدان ، فاستعمرنا الدنيـــا وعمرناها ، كنا معرضاً جوالاً فتنت العالم محصولاته وكسا ملوك الشرق الغرب برفـــيراً وأرجواناً .

نعم وتعلم انك قلت لاوربا : لئن فاتنا الغاز الخـــانق ولم يكن لنا طائرات

---

(١) الشيخ الياس اده المتوفي سنة ١٨٢٧ .

ومدرعات وغواصات فيا فاتتنا الثقافة ، ولم ينقصنا الاختراع ، فصيرنا البحر طرقاً معبدة فذل لنا وخضع .

ما وجدت مجالاً للفخر بالسلاح المدمر فطاولت بنبوغ أمتـــك الذي عجز الدهر عن طمسه بعد الوف السنين ؛ وكيف لا تطـــاول بهؤلاء النوابغ وأنت واحد منهم ان شاء الله .

فكرت بهذا يا سيدي ورجعت لنفسي في الخـــلاء الوهها ! لقد أفلست يا نفسي ، اما سفـّهك قومك بافراد وجماعات ، فلا غني فتح كيسه ولا جمـــاعة أهتزت لما دعوت اليه ، وبعد الف جهد ظفرت بمئة ليرة ورقاً ، جائزة لاحفاد أولئك الذين أفتخر بهم فخامة الرئيس في باريز فلماذا لا تقرعين بابه ؟

أتفتح لنا يا سيد؟أنت تعلم انه ليس في مكنتنا بنيان دولة عظمى كبريطانيا، مثلا ، ولكنه في اليد انشاء دولة أدبية تمتد حدودها إلى حيث تشاء تخومها كما تروم ، فقل كلمتك وهات يدك .

تذكر جيداً كلمة بطرس ليسوع : « يا سيد قد تعبنا الليل كله ولم نصطد شيئاً ، ولكننا لأجـــل كلمتك نلقي الشبكة » . أنقول هذه الكلمة لأطرح الصوت فيأتي الناس ويعينوني على اخراج شبكتي من بحرك الطامي ؟..

أتكون الفقيه المثقف ويشقى في عهدك الادباء؟ان أشقى الجمهورية اللبنانية ، أدباؤها ، وهم الذين يبنون مجدها الخالد مسخرين غير مأجورين . لست أطمـع من فخامتك بشيء ، فعندي من خير الله وخيرك خبز وكسوة ، ولكني أسألك العون على هذا الادب ، ذخيرتنا الباقية وسلاحنا الفرد . فالادباء أيتام في مأدبة الجمهورية .. لا يذكرهم أحد بكسرة يسندون بها قلبهم . فما يمنع ان تكون لهم « جائزة اده » يتسابقون إلى نيلها واحداً أثر واحد ؛ تشحذ العقول وينبه بين امم الأرض ذكر الجمهورية التي أحببتها .

قلت لك — عفواً اذا تركت الميم — انني لا أتمنى شيئاً غـــير هذا . فوالله وبالله وتالله (بكسر الهاء) بل لا أتمنى الحياة إلا للعمل الدائم في بنيـان هذه

الدولة التي نحن بها مستهزئون .

اننا في انفسنا قوة ولكننا ، ويا للاسف ، عن أظهارها عاجزون . ما نفع « الاستحقاق اللبناني » يعلق على التوابيت ؟ وهل تروق دفيناً جودة الكفن ؟ اذا استعرضنا التواريخ تخبرنا ان الأدب لا يعيش إلا في ظل دولة ، فابسط عليه ظلك ، ورفه عن رجاله تسمع الأناشيد الخالدة. اننا نريحك من الأنغام السمجة .. ونسمعك ما ترتاح اليه نفسك . خذنا حصتك وانت الرابح .

جعلت في الربيع الفائت جائزة ضخمة للخيول الأصيلة ، فجرب أجعلها العام القادم للبشر ، لهؤلاء الذين يصاولون بايديهم وأرجلهم ليخلقوا اللون اللبناني الذي لا يحققه لك غيرهم ، لهؤلاء الذين يجرون كل يوم شوطاً وعليقهم غير مضمون في المساء .

ضع لنا هذه الجائزة وخطيئتك في رقبتي ان ندمت ، انك سترى كل مهر وقارح يجري في هذا الميدان الخالد . سترى بينهم الف عبدو [1] . وبهذا تبني دولة ثابتة لا يغزوها فاتح ولا تؤخذ عنوة ، ولا ينتدب عليها يوماً من الأيام ... وان صح زعمي فهي مفرق طريق الاستقلال التي شققتها لنا ، ولا شك ان التاريخ سيقدر جهادك ، ويذكر البطل الأعزل المظفر في أنصع صفحاته بياضاً . وللتاريخ يحيا الرجال وهو جنتهم التي يخلدون فيها .



اما الآن فلنؤد الحساب لاخواننا الأدباء . إن سعينا المستمر لم يذهب سدى ، ولم تعد يدنا فارغة ، فلجنة جبران الوطنية ما خاست بعهدها ، وإن نفرح الآن فبالنواة التي نسوسها لتمسي دوحة اذا انعشها الهواء وواتاها الماء والغذاء . وهذه قطعة من رسالة رئيس لجنة جبران توضح ما نقول .

---

(١) عبدو اسم الحصان الذي ربح جائزة فخامة الرئيس وقدرها الف ليرة .

« قياماً بما قطعناه من العهد امامكم بجعل جائزة أدبية لجبران عقدت جلسة خصوصية للبحث بهذا الموضوع ، فعلقت اللجنة النتيجة على استشارة رئيسها الفخري غبطة البطريرك عريضه . وفي موعد آخر تقرر ان تكون الجائزة مائة ليرة لبنانية تدفع للفائز نقداً ، وأرصد ستمائة ليرة أخرى لنفقات مجمع جبران الأدبي ، فتكون الجائزة بظاهرها مائتين . ولم نتوفق إلى أكثر .

« وان شاء الله تعلمنا التجربة الأولى وتفهمنا نتائجها وفوائدها فنجعل الجائزة التالية أضعافاً . وقد اتخذ قرار يعهد اليكم بتأليف مجمع جبران من خيار ادبائنا بنظام رسمي معترف به ، وتعطى النتيجة — الحكم بالجائزة — في بشري خلال حفلات ذكرى رجوع جبران إلى بلدته كما اقترحتم في الاجتماع » .

سليم رحمه

رئيس لجنة جبران الوطنية

يقول المثل العربي : أول الغيث قطر ، ويقول المثل اللبناني : مص القصب عقدة عقدة ، وطلوع السلم درجة درجة . امـا المجمع فنحن ساعون إلى تأليفه ووضع قانونه ، اما عدد اعضائه فسبعة ؛ ينضم اليهم عنـد الحكم رئيس لجنة جبران وعضو آخر تنتخبه اللجنة . اما جائزة جبران لعام ١٩٣٨ فستكون للقصة الطويلة يحكم بها المجمع في بشري وفقاً للشروط التي تذاع قريباً مع اسماء الاعضاء ليبعث اليهم الادباء بقصصهم .

اننا نثني أطيب الثناء على لجنة جبران الوطنية ، فلعملها تتهلل روح جبران ، وهو عندي أقرب اعمالها إلى نية الواهب كل مـا يملك لبلدته . فجبران سعى جهده في حياته ، بل وقفها كلها على هذه الفكرة ، فأنشأ الرابطة القلمية التي مرضت بمرضه وماتت بموته. فعسى ان يكون هذا المجمع الجديد من ابناء الحياة فتفرح به روح جبران فرح الجد بحفيده ، وعسى ان نبشر الادباء بجائزة الرئيس اده التي ستكون سنية ان شاء الله .

حاشية – اذا متـع الله هذا الأدب اليتيم بجائزة اده فلتكن محرمة علي منذ الآن ما عاشت وعشت ، وكذلك جائزة جبران التي تحققت . اقول هذا دفعاً لسوء الظن . رب يسر ولا تعسر .

عاليه

اخي الشيخ فؤاد حبيش

قرأت كلمتك الآن عن مجمع جبران وجائزته ، ورأيتك « تود » – وودك في محله – ان يكون للشعراء والمصورين نصيب من جائزة جبران .

سيكون ذلك يا شيخ ، فالجائزة القادمة عام ١٩٣٨ للقصة الطويـلة ، وجائزة ١٩٣٩ للشعر ، وجائزة ١٩٤٠ للتصوير . هذا اذا بقيت الجائزة قزمة ولم تكبر ، اما اذا نمت فسنجعلها للفنون الثلاثة في كل عام . صل معي للقديسة تيريز من كل قلبك . .

شكرت لك ثناءك عليّ ، وتقنفشت ، ثم اقعنسَسْت . لا تتعجب يا فؤاد فالشاعر صادق .

يهوى الثناء مبرز ومقصر حب الثناء طبيعة الانسان

ساعدونا يا اخي ، طوفوا معنا حول الصناديق وانفخوا في الابواق فلعلها تسقط امامنا كما سقطت أسوار أريحا عند أقـدام البطلي يشوع بن نون عدونا الألد . .

ليس فينا من يستطيع ان يحدق إلى الشمس دقيقة ، انما نحن أبنـاء الليل تطربنا موسيقى الزوابع وترجفنا الصواعق ولا تخيفنا ، اننا نرقب وجه الصباح لننام في الضحى كصاحبة امرىء القيس رحمها الله .

اليوم قرعت باب رئيس الجمهورية ، كما قرأت أو تقرأ في صوت الاحرار . أتقول انه يصرفني ؟ لا تنس يا فؤاد ان مارون لا ينصرف ، والرئيس غـير شاعر . عفواً الرئيس شاعر اعمال ، والصرف وعدمـه بضاعة كلام . فسترى

ان رجائي لن يخيب وقد رفعت اليه الآن كتاباً خاصاً ، أحسن الله الجواب والمآب .

اصافحك مشتاقاً إلى احاضك الحبيشية التي تغني عن « معكرونـــكم » ، فاسأل الستار ان يكشف عني هذه الكربة ، وينبت المرعى فلا تبقى حزازات النفوس كما هي . .

أخوكم مارون

ولبراءة الذمة أقول للقاريء الكريم انه لم يتحقق شيء من آمالي .

خطبة بشري

جئت وفي نيتي ألّا اتكلم ، ولكنني فعلت اذ بلغني ، والعهدة على المخبرين انكم سيدات وسادات ، مشتاقون جداً إلى طلعتي البهية . اشكركم جداً ، فقد جبرتم خاطري المكسور ، وفهّمتموني ان الله لا يبـلو حتى يعين ، فهو ان تكرم علي ببطن كافوري يتقدمني بلا حيـاء إلى كل محضر ، فقد رزقني من يقبلني على علاتي .

سيداتي وسادتي ،

لست اليوم خطيباً ، ولكنني محشٍّ ، اعلق على الهوامش ، وبكلمة أبرع : رجل يقطع من كل واد عصا ، فانعتوه ما شئتم .

جئنا لتعظيم جبران ولا بد لكل زعيم في الدنيـا والدين من ناس تؤيده ، فحاكم لا تشد ظهره رعية لا يهـابه الناس وأمره يكون رخواً ، وقديس لا يطلب شفاعته أحد ولا تقرع له صدور العجائز يعيش بلا شأن في عالم الايمان . فالقديس برلام ، مثلا ، زبائنه قلائـل جداً ، ولا يعرف أحد باب بيته مع انه اختصاصي بحب الصبا والنمش .. وله رأي مفيد يشفي من المغص .. وان قلتم من اين جئت بهذا القديس الذي لم يسمع به حتى الخوارنة العتاق منا ، اقول لكم راجعوا السنكسار فاسمه مدرج فيه كبقية الآباء القديسين .

اذن لا بد من تعظيم جبران ، وتمجيد أورفليس مدينة المصطفى . فهنا أروع أودية الدنيا ، كان وادي الحبساء والقديسين ، وصـار اليوم وادي النوابـغ

وابطال الدنيا والدين .

يقولون ان الله موجود في كل مـــكان ، وفي ملتي واعتقادي انه ، لاسمه السجود ، يمضي أغلب أوقاته في الجبة ، فجبة بشري جبة الله ، والله في الجبة كما قال الحلاج المتصوف المتهوس .. فلا عجب ان يصيّف سبحانه وتعـالى بين الأرز والديمان . فهذا الماء يطول العمر ، وهذا الهواء يصفي الأرواح وينقي الأبدان .

واذا كانت السماء يا أخي عمر فاخوري ، جنات تجري من تحتها الانهار كما وصفها الله في كتابه العزيز ، فهي ، علم الله ، هنا ، أو هنا ملحق لهـا كما هي الحال في لوكندات المصايف . وكأني بالجبة من الحدث إلى اهدن قد خلقها الله مقراً لعباده الصالحين الذين يصابون بالضغط العالي وتصلب الشرايين ولا يستطيعون الاقامة عنده في أعلى عليين .

واذا كان في بيت أبي يسوع منازل كثيرة ، كما حدثنـــا انجيله الطاهر عن مساحة السماء ، فهنـــا أحد هذه الامكنة . أجعل اللهم نصيبي من جنتك في بقعة خيّرة كهذه ، وما يضرك لو تخلدني بشحمي ولحمي فالاقيك في السحب مع الجدين الجليلين : ايليا واحنوخ . وان لم تعد ، كما وعـــدت ، فخير وبركة ، فالاقامة هنا لا بأس بها .

سامحوني ان تفلسفت اليوم قليلا فقد فعلت دفعاً لتوهم الناس انني مع هذه الشيبة الطاهرة لا أعرف اتفلسف . الخير فضلتي يا جماعة ، وانا كالمتفلسفين من معاصري ، والفرق بيننا ، انهم يتفلسفون « رسمياً » وبكشرة تقطع الرزق ، وانا اتفلسف ضاحكاً ومضحكاً . تلبس فلسفتي ، غصباً عن رقبتي ، ثوب المرافع القليل الحشمة ، وما حيلتي فيها ؟ انهـــا تحب الرقص ، فاعذروها اذا لم تترصن ..

هنيئاً لبشري ارزها الخالد ، وبطركها الشيخ الفتى ، وواديها الرهيب ، وجبرانها العبقري ، ومغارتها العجيبة ، كاتدرائية الله — لا تنسوا انه يصيّف

هنا – ما اعظم حظ بشري ! اعطاها الله وكثّر ، وهي تستاهل .

واذا ذكرنا مغارة قاديشا تمثل لنا الخوري طانيوس جعجع : كولومب الجبة أو القائد المتنكر بثوب خوري ، كما سمّاه الجنرال غورو . فعسى ان تشمله الحكومة الكريمة بنظرة ، فابتسامة ، فكلام تأويله استحقاق شكر لبنان .

في لبنان أعياد صيفية أكثر من أعياد الطائفة المارونية ، فعيد كبير للشجرة نتمنى ان تثمر طحيناً وبرغلاً ، وعيد أزهار نتمنى ان تضفر أكليل حمد لحكومتنا الساهرة ... وفيه محاضرات في عواصم الاصطياف أحدثها وزير التربية والاقتصاد الوطنيين ، فشكراً لما يبذل معاليه من جهود جبارة في سبيل الانعاش .. أخذ الله بيده .

أف ! لعنة الله على الشيطان ، نسيت أعياد ملكات الجمال . ليتهم يجعلون جائزة للجمال المعتدل ، ولو مرة ، فأريحها واستريح قليلاً . فلا راحة لي ما دامت غلة الأدب : سلم بوزك .

اذن لا عيد أدبي في الصيف الذي يضيع اللبن ، الا عيد جبران ، نبي لبنان . لست أريد النبي بمعناه الديني ، فالانبياء قد ختموا ، ولكن عنيت جبران النبي باسلوبه وتفكيره وخياله ، ان جبران وسام رفيع ، لا كالأوسمة ، علقه الدهر أبو العجائب ، على صدر لبنان ، مصدر البرفير والأرجوان .

واليوم يحدثكم عنه أديبان خطيران يفهمان سر الأدب ، ولا شك ان حبيبنا جبران سيغتبط جداً إذ يسمع ما يقال فيه من الاستاذين عمر فاخوري وخليل تقي الدين . ولما سيكتبه الحبيشي غداً في « مكشوفه » ساتر عورات الكرام .

فلحفلة هذه السنة معان كثيرة يستنتجها اللبيب ، ففيها المراعاة للمادة ٦و٦ مكررة ، ومنها يعلم ان في لبنان كنيسة أدبية جامعة من امرائها جبران وفرح انطون والشدياق ، ودفتر العياد في دار المكشوف . كثّر الله هذا النسل المبارك ، فبه لا بغيره تمتاز الجمهورية اللبنانية .

ان في لبنان اليوم بنائين جداً يزيدون على هذا الهيكل قبباً شامخة تسر العيون ، وأجراساً عبّودية تشرح وترعد . فكاتب « الباب المرصود » أديب بكل حواسه ، بل هو الرصد الذي ينشر أمامك ذهبه ، ثم يحوله حجارة ان جهلت قيمته ، فحذار . فكلما يحققه العقل يخلقه خيال الأديب أولاً .

هلم ايها الاستاذ واركب المنبر في هذا الزمن العصيب ، فمهما يكن شموساً فان ظهره سيلين لك ...



قد سمعتم عمر فاسألوا الله ان يقلل من كسله ، وألا يشغله السجل العقاري عن تسجيل قطع أدبية واسعة الأطراف مغلال يملكها أبناؤنا وينعمون بخيراتها .

اما السيد حليم كنعان الذي أقدمه لكم الآن فهو كاتب فتي جديد يتأهب باخلاص واجتهاد للمعامع الأدبية ، وانني أتوسم فيه خيراً ، وان زججناه اليوم بين الفحول فليتعود ان يسد المكان الذي سدوا ... والآتي قريب .



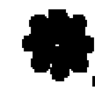
والآن جاءت نوبة الاستاذ تقي الدين ، والشيخ خليل من رجال الحكومة كصاحبه عمر أفندي . عمر يقيّد صكوك البيع وخليل يراقب تدوين الحكي ، أي ما يقال في مجلس النواب ... ولكن هناك إلى جانب الحكي كتاب « عشر قصص » وهي حكايات بلدية طيبة كعرائس المروج والأرواح المتمردة ، انما بصورة أخرى . ولو كان خليل أصغر سناً لقلت جبران قد تقمّص . « القضية ثابتة » يا شيخ ، وجبران يؤمن ان امرأة أخرى ستلده ...

اننا ننتظر من خليل تصوير « الخلوة » وما فيها ، كما صوّر جبران الصوامع والديورة ، فأدبنا مفتقر جداً إلى تصوير الخبايا والزوايا والتكايا ، وبدون هذا لا يصير عالمياً .

المنبر يدعوك يا شيخ ، فانس ثرثرة مارون ، فللعمر حق ، وللسن حصة

كبيرة ... اسمع جبران صوتك ، فبيته قريب منـــا ، وان شككت مرة فبطرس شك ثلاث مرات ، وبولس أكل كفاً سخناً على طريق الشام ...

لو كنت على رأس الدولة لعزلت خليل تقي الدين – لا تخافي يا ست ، مـع المعاش وحبة مسك – وما فعلت إلا لأصرفه إلى الأدب الخالص، فيخلق أبطال قصصه وأحاديثهم كما يشاء ، لا كما تقتضي الجريدة الرسمية .



يظهر ان الحـــال اقتضت ان يتكلم الاستاذ الشهير فؤاد افرام البستاني ، فأكثركم ان لم أقـــل كلكم ، يعرف صاحب الروائع ، ومن جهله فستعرفه به محاضراته المتتابعة كقافلة ابن العاص إلى ابن الخطاب ... ان كلمته استغاثة ، كما سماها لي ، فعسى ألا تكون من « الأعماق » .



أما كلمة الختام فلا ترعبكم ، فليس هناك خطيب آخر ، انها كلمة : شكراً، شرفتم ، قوموا إلى المأدبة .

الحدّاد وجبران

الخوري يوسف الحداد هو ابن عمتي ، وابن ضيعتي ذات الطريق المشهورة .. وهو أيضاً أحد شيوخي الذين أخذت عنهم ، وكثيراً ما حاولت ان أظهر عبوديتي لهذا الذي علمني حروفاً وأمسكت قلمي . خفت ان تتهم حكومتي فيه وان يقرأني « مادح نفسه » سلاماً أنا مستغن عنه .

ظهرت « النجوى » كتاب ابن عمتي الحي بتفكيره وتعبيره ، فقرأت أقوال المنصفين ولم أحرك ساكناً كما يقولون ، وما لهذا الخوري ذنب إلا ان أباه منذ مئة سنة اختار عمتي من بين الصبايا .

وعام أول ، أو هذا العام – لا أذكر – أذاع معهد الحكمة الخطير اسماء الذين حرثوا كرمه ونسي الحداد . مع انه ذكر الجميع حتى فاعل الساعة الحادية عشرة ... فعتبت وجاء العذر مقبولاً ، فكان العتاب صابون القلوب .

واليوم وقعت عيني على كلمة الاستاذ الياس ابي شبكة مقدراً الاستاذ الكبير منوهاً به بعدما تناساه كثير ممن أحبهم حباً جماً شاركه فيه الكير والمطرقة والسندان ، عدة الحداد ...

أرى ان عقل الاستاذ ابي شبكة وقلبه قد اشتركا في المقادرة بين الخوري يوسف الحداد ورجال زمانه . عده الأسبق في الطبقة الأولى من ادباء الجيل السابق ، وهذا حق نتفق في سبيل تأييده عن سعة . اما العاطفة ففي قول الاستاذ « ولا أذكر انني هففت إلى رجل قطع هذه المرحلة من العمر كما أهف

إلى الخوري يوسف الحداد » .

لقد صدق الاستاذ ، فكل من عرف شيخنا الجليل يهفو اليه . فتحت جبته السوداء قلب كالذي تمنى داود ان يخلقه الله فيه ، ونفس ذكية لا تحتـاج إلى الغسل بالثلج . ذهبي الفم على المذبح ، كناري في المجالس ، وهبه الله احدى خصال امه ، بلغه الله عمرها ، فهو يحبو إلى الـثمانين ولا يزال كايوان كسرى الذي يقول فيه البحتري :

وكأن اللقاء أول من أمس ووشك الفراق أول أمس

فشكراً لابي شبكة عن سيدي الرائـح الجائي كل مساء بين ساعدي شط جونيه اللازوردي كأنه الرمح دارجاً ، مشغولاً في جسده عن متاعب القـلم ولكنه — كما وصفه أبو شبكة — « مـا برح أخضر الذوق ، طري التفكير ، طلي الحديث » .

كتبت اليه عام ١٩٣٦ أسأله عما ترك جبران في ذهنه من أثر ، فأجاب غير عابىء بتقطع النبض وأدرجت مكتوبه في ظرف « وثائق جبران » فنام مـع النائمين فيه ينتظرون الساعة . ولكن كلمـة الاستاذ ابي شبكة أيقظت كتاب ابن العمة في تلميذه جبران ، وهذا رأيه فيه مكتوباً يؤيد الحديث المرديّ :

ابن الخال الحبيب ،

السلام عليك ، وعلى شق الطريق إلى عجوز ابن الخطاب .

كتبت الي تستفسرني عن جبران ، وهل كان من تلاميذي في مدرسة الحكمة ، ثم تشعرني بتوفيقك إلى شق الطريق ...

اما جبران فهاك عنه ما يعلق بذاكرة استاذه ، درس عـليّ جبران سنة واحدة فيها كنت له لساناً وقلماً ، وكان اذناً تعي ما عناها ، وقلباً تابعاً لهوى متبوع ، ونفساً وثابة ، وعقلاً متمرداً ، وعيناً هازئة بكل ما تقع عليه ، مقلاً من الاخوان ، يزرع حقله في عقله وفي يوسف سعدالله الحويك ، مجتزئاً به بين سائر

الرفاق . كثير الانتقاد ، شديد التمسك برأيه ، مفكراً قلّما ترتسم الابتسامة على ثغره ، طموحاً تحت مهماز لا رفق معه ، يجدّ ليجد ناظراً في أفق بعيد .

وفي قص خبر اتصاله بي ما يفتح لدرسه منفـــذاً يطل عليه ، وكثيراً ما يقاس الحـــاضر على الماضي (والطبخة الطيبة تعرف من العصر) إسمع : في أواخر تشرين أول سنة ... قرع علي باب غرفتي ، وعلى كلمة « تفضل » دخل شاب ربعة ذو وجه حنطي مشرب حمرة ، وعينين ناعستين مـا بين أجفان ذابلة كزهرة تطل من أكامهـا ، ترسلان نظرات طويلة مثبته ، وله شعر مرسل يلامس أذنيه .

– الاسم الكريم ، وهل أصلح لخدمتك في شيء ؟

– أنا جبران خليـل جبران من بشراي ، أنهيت دروسي في الانكليزية ، نائل شهادة الفلسفة ، أتيت لبنان لادرس آداب لغة وطني وأبدي فيها أفكاري ، فكان نصيبي الصف الابتدائي .

– ماذا تعرف من مبادىء العربية ؟

– أحسن القراءة فقط .

– أفلا تعلم ان السلم يرقى درجة درجة !

– وهل يجهل الاستاذ ان الطائر لا ينتظر السلم في طيرانه ؟

– انني لم أرك قبل الساعة فمن دلك علي ؟

– عيني رأتك وقلبي دلني .

اقشعر بدني من الجوابين وشعرت ان أمامي عقلية بارزة في فتى له حكمة الشيوخ ، وذكرت للمتنبي : ليس الحداثة من حلم بمانعة .

– والآن ماذا تريد مني ؟

– رأيتك مراراً فسألت تلميذك يوسف الحويك من يكون هذا الخوري ؟ فقال : هذا أستاذنا الحـداد وله رفق بتلاميذه وعطف ، وكلمته مسموعة عند الرئيس ، فجئتك في أمري . دعني أحضر عندك لا أسأل ولا أُسأل ، واني

دافع مرتب المدرسة كله حالاً ، وأنا المسؤول عن نفسي ، لا أمي ولا أبي ، وان لم أنل مطلوبي فتشت عن غير هذه المدرسة التي تتعلق بحرفية القانون ولا تفهم تلاميذها .

— مهلاً وأعود ... وما زلت بالرئيس حتى قال كلمته « التاريخية » : النتيجة يا حبيبي أنت المسؤول ، وأين راتب المدرسة ؟

— حاضر ..

وعدت إلى جبران . وما رآني حتى أقمر ليله وابتدرني قائلاً : انقضى غرضي يا أستاذي .

— ومن أين عرفت ؟

— من وجهك الضاحك وعينيك .

وثاني يوم كان جبران بين تلاميذي على مقعد التدريس ، وقدامي على المكتب كتابة منه : قبل مرور ثلاثة أشهر لا تسألني عن شيء وبعد ذلك سل ما تشاء ..

لم يكن جبران وقت القاء الامثولة يفتح كتابه بل كان اذناً وعيناً ، وتلك الاذن العطشى لا ترتوي وتلك العين لا تشبع . وكان يختلف الي حيناً أثر حين يلقي علي أسئلة ويستشيرني في انتقاء كتب المطالعة فحولته على كليلة ودمنة ، والأغاني ، ومقدمة ابن خلدون ، ونهج البلاغة ، ورسائل بديع الزمان ، والدرر لاديب اسحق ، والمتنبي ، والبهاء زهير ، والتوراة ... ودرس الطبيعة وطبائع البشر واخلاقهم وعاداتهم والتواريخ .

وكان يأتيني بمقالات من عندياته يستقل بها ، فارى منها جسماً متناسق الأعضاء عليه مسحة من الجمال تحت ثوب من اللفظ لا يشاكل المعنى ، فامشي معه في ثقافته مشية من يرى تلميذه أكبر من تلميذ . وضعت له هذه القاعدة : فكر طويلا ، وأكتب قليلا تكتسب كثيراً إلى ان تفيض القريحة فيضاً .

ومن أول مقال له أدركت ما هو جبران وقلت له : انك صائر شاعراً

مطبوعاً ، وكاتباً خيالياً فاتق الله ، إلى الامام .

وكان جبران ينمو في أسلوبه نمـــو الحورة وينبثق انبثاق الحوض ، ومعه تقوى الروح الوثابة العابثة المتمردة .

وفي آخر السنة تركت المدرسة ولم أعد أذكر إلى أين اتجه إلى ان أهدى إلي كتابه وعليه العبارة « أنت أولى بأولى بواكيري » فكتبت اليه في بعض نقط فقطع الحبل . . . . . وكل ما أقوله : لا تتعجل بنشر نقد جبران قبل ان تلم به من كل ناحية . وجبران كان يحذق فن التصوير وهو في المدرسة .

لا أقدر أن أبدي رأيي في جبران لاني لم أطالع تآليفه كناقد ، ولا جلد لي اليوم ، بل أعتقد انك بدرسك له الدقيق تجد الغث والسمين . وعسى نقدك ان يكون نظير عصا موسى وراء عصي سحرة مصر ... إن شاء الله الذي لا توفيق إلا منه .

ابن عمتك الخوري
٩ آذار سنة ١٩٣٦

شيء عن ميّ

يا حبذاه !!

هكذا أجابتني مي إذ دعوتها إلى الكلام في حفلة جبران التذكارية . كانت يومئذ مجاورة بالفريكة ، بعد محنتها ، وقد صحبنا إلى زيارتها صديقنا وصديقها الريحاني .

تلك أول مرة رأيت فيها وجه مي الذي أطراه الناس نعتاً. رأيتها فخلتني أمام كنيسة مهجورة ، في عتمتها روعة وجلال ، وفي شقوق جدرانها رائحة الفن والدهر . من أين جاءت إلى ذهني ، في تلك الساعة ، صورة ابن الفارض كما رسمها جبران ؟ لست أدري . رأيت في محياها ظل الشباب مسفوحاً على الهرم . قعدت على « طراحة » كعادتنا اللبنانية ، وجلست هي على كرسي بالقرب مني ، فاعتراني اضطراب القاعد قرب جدار متداع . أدركت فوراً انني أمام امرأة لبنانية لم تمح مصر ولا مدنية الغرب خطاً واحداً من خطوطها الجميلة .

يا حبذاه ! تلك عبارتنا الاقليمية عند الحسرة الممزوجة بالألم ، فهي بنت قرية من قرانا المتواضعة وهي ما برحت تحتفظ بلحن عذب تحدث به لبنانياً عتيقاً لا يتمطق ولا يلوك لسانه ، قابلته ماري زيادة بالمثل ، وهي بنت الجبل مثله ، لا تعرف مضغ الكلام ولا صبغ الاحاجيب كبدويات المتنبي .

كم كنت غليظ القلب في الحاحي عليها ، فواعجباه ثم واعجبا ! كيف لم

أفهم ان هذه الهاء هي هـاء السكت والندبة . كيف لم أدرك ما احتوت عليه « يا حبذاه » من تفجع يعتلج في صدر تلك المسكينة ، فرحت أزيد الطين بلة ولا أحس . كانت مي تلك الساعة :

كعصفورة في كف طفل يهينها تقاسي عذاب الموت والطفل يلعب

قد ، والله ، كنت أقل من طفل ، واني لاذكر ذلك وضميري يؤنبني . فمغفرة يا روح بنتنا العزيزة .

كنت أتأمل مي، وأنا في حضرتها ، كأنني غيلان أطوف بربعها الخرب . كانت تحدثنا بصوت في قرارته حسرة تحاول اخفاءها فلا تختفي . رأيتها تأبى الجلوس بين الصديق الشيخ فؤاد حبيش والسيدة عقيلته ، عملا بتقليدنا اللبناني الذي تلقته في مدرسة البيت . لم تبدر منها بادرة لا عهد لي بها ، فباتت في عيني مثال المرأة اللبنانية ، لا تجود باكثر من ابتسامة لما كنا نقهقه من نكات شاردة حضرتنا في تلك الساعة . اسمعت بقولهم : بنت مقهورة . لقد رأيتها تلك الليلة بشخص مي فاستغنيت عن البحث والتفتيش .

قرأت ان الدكتور فهمي ختم خطبته ، وموضوعها « نزعات مي في حياتها» بهذه الكلمة التي يقال انها كتبتها قبل موتها : « هذا قبر فتاة لم ير الناس منها غير اللطف والبسمات ، وفي قلبها الآلام والغصات ، لقد عاشت ، وأحبت ، وتعذبت ، وجاهدت ثم قضت » .

من نكد الحظ ان تبتدىء حياة مي بالمقلوب ، فبعدما أمست الكاتبة الأولى أحبت الكاتب الأول فمضى لسبيله . وكان الكبت وكان الانفجار ، ولم تفز مي بالتصعيد الفرويدي المزعوم لتتسامى بفنها وتستولي على الأمد . فلو أحبت في فجر طلعتها الأدبية لظلت أمامها رقعة الأمل واسعة ، ولكنها أبتدأت حيث ينتهي الناس فلم تتحول غريزتها الجنسية إلى أسمى من الهوى ، إلى حب الجمال والموسيقى فذهبت ضحية « الفكرة الثابتة » .

« الفكرة الثابتة » شر من التنين الذي رآه يوحنا ، فاذا أحتلت ساحة

الشعور سيطرت عليها واستعمرتها ، وكيف لا تفترس حملا وديعاً لا حاجب على حظيرته ولا بواب . مات الأب ولحقت به الأم ، وأمست البنت وحدهـــا ، وجهها والحيط كما يقولون ، وجيرانها أمسى عريس البلى .

قد يقال ما هذا الحب وبينها بحور أقل أمواجها جبل . فنجيب ان بشار ابن برد قد أنبرى لحل هذه العقدة فاستفتوا شعره . واذا كان علم النفس يعلل الحب العياني زاعما ان المرء لا يحب شخصاً حقيقياً ، بل يعشق شخصاً خيالياً فينتزع من نفسه أشياء يسبغها على معشوقه حتى يخال انه اكتشف بذلك أسرار النهاية وحقيقة الوجود ، فكيف بمي المفتونة بسحر جبران حتى ترى فيه شخصاً أسمى من البشر ؟

ان التقاليد التي شن عليها جبران الف غارة هي التي ختمت مأساة من أحبته حباً جماً ، هذا الختام الفاجع . أبت البنت ان تخفف رأسها وتذهب إلى لقاء الشاب ، فعلى الشاب ان يسعى . وقبل ان يلها حلا ملائما مـــات جبران وعاشت مي بعده كراحيل لا تريد ان تتعزى . استبدت بها « الفكرة الثابتة » فابغضت الناس ولحامتهم لانهم سعدوا دونها ، حتى أبت أن تستقبل الدكتور طه حسين الذي سعى اليها ، بل انبأته – كما روى – بان ليس بينها وبين غيرها من الناس اتصال ، ولا خطاب ولا حديث إلا من طريق الكتابة فان كانت لك كتب لم أقرأها فارسلها الي ، وأما شخصك فلا أراه ولا يراني .

أقيمت لمي في العالم العربي أعراس تليق بالعروسة الخالدة ، ولا بدع ان كان خيرها عرس مصر ، فقد أسدت إلى الكنانة خير الأيادي ، وجددت عهد الاندلس في ذلك الوادي البهيج. فهذا اسمعيل صبري باشا يتلهف بشعره الرصين إلى يوم الثلاثاء – يوم صالون مي – ليرى مي وإلا فلا كان يوم الثلاثاء . وهذا أمير المنبر الدكتور نقولا فياض يهتف من على منبر الجامعة الاميركية :

يا مي ، هـــذي ساعة الميعاد فسلي فؤادك عن خفوق فؤادي

وهذا الدكتور طه حسين يقول في ناديها : (وحسبكم انني استطعت ان أصل اليه حين

لم أكن أكثر من طالب بالجامعة القديمة) .

وهذا الدكتور شميل يخاطبها بقصيدة لتلين ويفرخ روعها بعد ما دخل خدرها محتشماً فافزعها :

اذا ما قمت أطري الحب يوماً   ألا تدرين انـك في خيالي

ومي ترصد هذا الحساب الضخم بما أوتيت من فصاحة ولسن وشدةعارضة. كانت في ذلك المعترك ، معترك العقول الكبيرة لا الأحداق والمهـج ، كما يقول المثل اللبناني : يا بحر ما يهزك ريح : وظلت شامخة كانها سنديانة الكنيسة حتى اقتلعتها العاصفة الشمالية .

ليس بين يدي من كتب مي إلا كتاب واحد عنوانه بين (المد والجزر) كأني به عنوان حياتها ، ولكنه لا يكفيني لرسم صورتهـا كاملة . بيد انني أستعين بذاكرتي فاتخيلها وارسمها ببضعة خطوط قد تبدي للاذهان صورتهـا المصغرة .

مي غربيّة شرقية في تفكيرها ، تفاعلت في قلمها الثقافتان فكان من نتاجها تعبير رصين لم تظفر بمثله أنثى قبلهـا . فميّ الـكاتبة خير انثى عرفها الشرق العربي ، وهي في أسلوبها المتين تبز الكثيرين من الفحول كما قيـل في بنت عمها الخنساء .

نفست الخنساء كربتها بما قالته في رثاء أخيها صخر ، واعتصمت مي بالحياء فهاتت بدائها . ولها عذرها فالأم غير البنت ، والشقيقة غير الحبيبة .

في منثورها رائحة شعر ذكية ، وفي تعبيرها موسيقى بعيدة الأثر . كان أدب المقالة مسيطراً في عهد صباها فتأثرت كغيرها باسلوب الشدياق والحداد واسحق وغيرهم من كتاب القرن التاسع عشر ، ثم ضمت إلى قسماتها الفنية بعض ملامح جبرانية ريحانية .

الكثير من ادب مي يؤثر بقارئه لانه ابن الانفعال ، والانفعـال كما يقول

ريبو ، خميرة الابداع الفني .

يحس قارىء مي انها قرأت كثيراً ، وتمثلت مـــا قرأته فاخرجته متسماً بطابعها الشخصي ، وان لم يكن في هذا الطابع نتـوء يدلك عليه فتعرفه أنى وجدته . والذي عندي ان مي ليست ممن يرسلون المقال عفو الخاطر بل تنقح وتحكك ، فاذا كان الحطيئة عبد الشعر ، فمي أمة النثر . اما أثرها في بنـــات جنسها فبعيد جداً ، انها ربة البند والعلم، وبحق يعقد لها اللواء في أدبنا النسائي الحاضر والعابر ، وحسبها هذا .

رحم الله فتاة نابغة هي إحدى حلقات سلسلتنا الذهبية ، وفي ذمة الله حياة ضاعت (بين الجزر والمد) « ان المطرة ظلت وحدها تشيـع السفينة — سفينة نبي جبران — بنظرها حتى توارت بالضباب .

أشارت اليها المحبة فاتبعتها ، فدرستها على بيدرها ، وغربلتها لتحررها من قشورها ، وطحنتها لتجعلها نقية كالثلج ، وعجنتها بدموعهـــا حتى تلين ، وأعدتها لنارها المقدسة ، فـكانت خبزاً طاهراً ، ومحرقة نقية » .

أمد الله في حياة اخواتها الـكاتبات وأبقى لهن رداء الشباب .

ما بين ميّ وجبران

رسالة تكشف الغطاء وتزيل الستر

نعيمه وكتابه « جبران خليل جبران

يا صديقي ،

لا تتعجب ان أخاطبك بياصديقي ، فقد كنا وما زلنا أصدقاء وان ضرب الدهر بيننا ، وفرقنا أيدي سبا .

تذكر أيام المدرسة ، وقد شبت وشبنا. وحينما – تمرون الديار ولم تعوجوا – أنظر إلى حركاتك وسكناتك فأتذكر مارون المرح كالبرذون الفاره . لا تسعه الأرض التي يحلها أو يحتلها . وعندما اسمع حديثـــك أو أقرأك اتذكر لواذع نكاتك التي كنت ترمينا بها فنفرنقع عنك بعد تكأكئنا عليك نتحرش بك . أتذكر « عاصي » و « الناكوزي » وغيرهما ؟!.

تلك أيام « وهيدي بدالها » يا مارون .

سمعت حديثك في راديو الشرق فعرفتك ... ارشدني اليك ما في صوتك من بحة وصحل لا أزال أذكرهما – ماركة مسجلة – فبقيت أسمع حتى انتهت كلمتك عن مي – الله يساعدها – واعلن المذيع انك انت هو ، ذلك المارون الذي كنا نحب قوارص كلامـــه كالنساء اللواتي يستطبن اللطم والضرب ... أسمعت بهن ؟ يظهر مما اقرأ لك انك بكل شيء علم – الحمـــد لله على هذه النعمة ...

قد طال الحديث وأتصورك كعادتك سئمت وقلت : أيش بدّك يا خيي ! قل وحل عني .

ألومك يا مارون ، لانك نبشت قبر مي ، وشرّحت تلـــك المستورة على قارعة الطريق . اليس الراديو مثل قارعة الطريق وأكثر ؟ ما كنت ألومك لو لم تأت ما نهيت عنه . أما لمت الكاتب الكبير ميخائيل نعيمه حين تحدث عن حب جبران لميشلين ، وما كان بينهما من علاقات ؟ أليست هذه كتلك ؟ ماذا تهم الأدب هذه النواحي ، اليست عيوباً يجب ان تغطى ، فالانسان ضعيف ، وما خلق الهاً كاملا منزهاً عن كل عيب وضعف .

الامضاء ب. ع .

ب. ع. نصف بعبع . من هــــذا ؟ لست أدري . جمعت قوي ذاكرتي واستعنت بدفاتري ، وانتظرت الفرصة انتظار القــــارم اللحم والصائم بيضة العيد فقرأت ، كتابي الجوائز لسنتي ٩٠٥ و ٩٠٦ من الجلد إلى الجلد ، فلم أوفق إلى شخص عرفته وعرفني في مدرسة الحكمة يبتدىء اسمه واسم اسرته بهذين الحرفين .

ذكرني هذا الرفيق بايام « البنوتية » التي لا أنساها ، وأحس انني أحياهــا وانا ازاحم الستين . فلم أبلغ بعد الساعة التي أقول فيها مع أبي نواس : وأراني أموت عضواً فعضواً . واظنني لا ابلغها . .

اسمع ايها الصديق « الحشري » . انا لم ألم الاستاذ مخايل نعيمه لانه قال ان جبران بشري أحبّ كما يحب الناس ، ويشرب كما يشرب عبيدالله ، وجمع من حطام الدنيا مثلما يجمع معظم الخلق . وهــــل أنا مجنون لاعتقد ان جبران لا يعيش باللحم والدم كسائر الناس ؟

لا أشك أبداً في ان دم جبران حار جداً ، وان زعمت غير ذلك فرسومه تكذبني . إن تياراته الفكرية في أدبه وفنه تتجه دائماً صوب الحب الذي يراه الحياة كلها . ومن قرأ أول حرف وآخر حرف مما كتبه جبران — حتى يسوع

ابن الانسان – رأى « الحب » كنجمة القطب واليها تتجه سفينة جبران .

ولست اشك أيضاً في ان حياة الأديب الفيلسوف مخايل نعيمه أقرب إلى الصالحين المتعففين ، وان حياة جبران أقرب إلى الوثنية اللبنانية العريقة منها إلى المسيحية الطارئة . ولكن كل هذا لا يدعو إلى تلك (الزحمة) الكبيرة التي صرف اليها نعيمه همه ، بدلاً من ان يدرس أدب جبران درساً جامداً وعلى ضوء لا يترجرج ولا يتذبذب .

انا لم اكتب حرفاً بعد عن كتاب نعيمه في جبران ، وان كان ، في نظري ، على علاته ، خير ما كتب عن جبران . ما ابطأت عن ذلك إلا لأنني سأتكلم عن مدرسة جبران وأثرها في أدبنا الحديث حين تتجمع لدي الوثائق الكافية فلا بأس علينا من قول كلمة عابرة .

بين كلامي وكلام نعيمه فرق واضـــح . إن الاستاذ نعيمه تحدث عن (فضائح) وأنا لم اتحدث إلا عن حب طاهر ابن منه الحب العذري . قد رأى جميل بثينة ، والمجنون ليلى ، اما ميّ فوا لهف قلبي عليها .. ان نعيمه يروي حديثاً يعجز عن اثباته بالوثائق التي هي مقطع الحق الأول . أمـــا انا فسأريك – امهلني قليلا – مـــا يزيل كل شك يخامرك ولا يمس مي وجبران بضر . إن حبهما كحب ابي وامي ، وابيك وامك يا صديقي ب ع . اما مـــا ذكره الاستاذ مخايل – ولا استبعد وقوعـــه إذ ليس جبران اعظم من داود – ففيه جموح وتعدّ يؤاخذ عليه من قال فيه نابغتنا الدكتور فيليب حتي : ان ملايين الدولارات التي كسبناها في هجرتنا لا تساوي جبران خليل جبران .

ليست (ميشلين) شخصاً وهمياً في حياة جبران ، فهناك صورة لها بريشة جبران محفوظة في متحفه ، واذكر ان تاريخها سنة ١٩٠٨ . إن ميشلين شخص من لحم ودم مرّ في طريق جبران ، ولكنه اصبح – كما اظن – تحت قلم الاستاذ نعيمه شخصاً روائياً .

فكتاب نعيمة في جبران وان كان ذا قيمـــة فنية رفيعة ، فهو كروايات

ديماس يختلط فيها حابل التاريخ بنابله . أخرجه الأديب الكبير بشكل رواية بدأها بوع ، وع . وختمها بغر « غر . أي من المهد إلى اللحد . وهدف نعيمه في كتابه اعلامنا ان جبران بشر مثلنا – آمنا وصدقنا .

وما رأيت نعيمه يملك وثيقة تؤيد مـا زعم ، ولا هو شاهد عيان ... بل لا يملك آخر مقطع من مقاطع الحق وهو « التواتر » . فاكـثر الذين خالطوا جبران ولابسوه ردوا على نعيمه بعنف وقسوة .

خاف نعيمه ، كما ظهر من مقدمة كتابه ، ان يصير صديقه جبران أسطورة أو نبياً ، فارانا ان جبران انسان لا غير . والا فما هـذه الحـكايات عن فلانة وفلانة ... والاوربيون يذكرون المرأة التي أحبها الأديب ليبينوا أثرها في فنه وأدبه ، ولم نرَ شيئاً من هذا في كتاب نعيمه . فميشيلين وفلانة أشباح لا علاقة لها قط في الأدب الجبراني ، وقد يكون لهن عـلاقة ولكن شيئاً من هذا لم يذكر . فكأن الغاية القصوى من سرد الحوادث بيان ان جبران أحب حبـاً خسيـاً واعلان ان جبران « نبأ كاذب » .

يقول ذلك نعيمه في (ص ١٧٩) ويروي ان جبران قال ذلك عن نفسه . اراد ان يعترف لصديقه في البرية ، ولكن تواضع ميخائيل حال دون سمـاع ذلك الاعتراف القاسي . (هالني ان يمضي في اعترافه امامي فيجلد نفسه العاتية المتمردة أمام عيني ، وينزع عنها دروعها العديدة ، ويتركها عريانة وبلا سلاح . ومن ثمّ فمن أنا لاقتبل اعتراف نفس وان تكن اختاً لنفسي ؟! وقـد تكون نفسي احوج إلى الاعتراف منها) ص ١٩٠ .

ليته سمع ذلك الاعتراف وحلّ جبران من خطـاياه بعد التثبت من توبته وندامته .. وجـاءنا بالتفاصيل ولم يتركنا فيما تركنا من حيرة . فأنا اجلّ الاستاذ نعايل واحترم اخلاقه النبيلة واصدقه اذا قـال سمعت باذني . وبعد فهذا الاعتراف يذكرني باعـتراف دوستويفسكي لتورغنيف ، ولكن نعيمه كان أرحب صدراً .

لقد وفق الاستاذ نعيمه كل التوفيق في اخراج قصة جبران ، فهي خير ما كتب ، وخير ما أذاع وما اذيع له . شاء الدكتور طه حسين والاستاذ توفيق الحكيم ان يكونا بطلي قصة فكتبـــا ، في سالنش ، قصة « القصر المسحور » ولكنهما قصرا جداً عن الاستاذ نعيمه في كتابه جبران خليل جبران ، الذي هو ابن عم المثل السائر لحـّا . فكثيراً ما يلتقي نعيمه بابن الأثير فيدّعي أبو الفتح ويتواضع مخايل والمطلوب واحد .

ولنعـــد الآن إلى حب مي المسكينة ، فقد كان له أعظم أثر في توجيه حياتها ، فختمت تلك المأساة ، كما علمنا وعلمت ، ايها القارىء العزيز . فمي بين الحبين كداود بين التائبين . توبة داود متقدة صارمة ومحبة مي مؤلمة عارمة . وفي كلتيهما لذة كالقشعريرة التي تأخذنا عند فجر أيـــلول في الخيمة . واذا صح ما زعم علماء النفس في تولد الهوى كان الجاني على مي خيالها القوي .

يعلمنا مبحث اللاشعور ان ميول النـــاس واعتقاداتهم تتبدل ، من حيث لا يدرون ، اذا خابت امالهم وكبت خيول أمانيهم في ميادين الحب . والخبر عن مي ، كما روى أدباء مصر الذين خالطوها بعد محنتها وقبل ان يلفها الغسق ان ان عاطفتها الدينية نمت وتضخمت في طورها الأخير . إن طور اليأس والغم والقنوط ، ومنبعه الكبت ، يوجه الضعاف إلى هذا الملجأ المنيع . فكل عمود من أعمدة قصر العواطف الدينية يرتكز على قمة هرم قطعت حجارته من مقلع ميول وأهواء مكبوتة .

تلك حالة المغلوب اذا كان رجلا فكيف به وهو امرأة بل بنت (مقطوعة) منبّتة . فكم أدى الفشل الحبي إلى ظلمـــة الديورة ، وما الفرق بين فتاة تدفن حبها المقهور في قرنة ، وبين مي التي جعلت من بيتهـــا ديراً قبرت حبها في زاويته ، وصلت عليه صباح مساء . إن عزلة مي لمفزعة ، فقد عادت طفلة في دنيا الحب والهوى اذا اعتبرنا الحب كما سماه برغسون « طفولة جديدة » . وقد انتهت مي في طفولتها الجديدة إلى نسيان (الانا) فصارت ميولهـــا (غيرية)

وعالية ، كأنها أدركت ان سفينة امالها الأنانية قد تحطمت على صخور جزيرة الحب ، فكتمت داءها واستعلت على حبها بينها وبين النـاس . اما بينها وبين نفسها فظلت متمسكة بذلك الخيط الواهي تجد لذتها في ألمها ، وفي الألم لذة لا تخفى على الخبراء ..

ولا بدع في ان تلجأ مي إلى دينها في تلك العزلة الموحشة ، فالحياة الدينية ينبوع العواطف العذبة والاحلام اللذيذة : طوبى للحزانى فانهم يعزّون .

والعاطفة الدينية تنمو غالباً في تربة الحرمان ، وتمتد جذورها حتى الطبقة التي يعيش فيها الكبت ، وهي الطبقة القريبة من النار في قلب العـالم الأكبر الأصغر – الانسان –

وكأني أسمعك يا صاحبي ب ع تقول : قتلتنا يا هو ! هـــات البرهان ودعنا من اللت والعلط . فاقرأ اذاً يا صاحبي المجهول هـــذا الكتاب من مي إلى جبران .

١٥ يناير سنة ١٩٢٤

مصطفى :

« ماذا جرى للبريد ، لقد كان يصل سابقاً في ثلاثة أسابيع أو أقــل أحياناً . وها مكتوبك يصل بعد أربعين يوماً ، ومعه تذكرتا بريد في غلاف خاص تمثلان الوجهين اليونانيين البديعين تناسقاً ومعنى . ما أبطـــأ الرسائل في انتقالها ! أتراها تجيء من أقاصي الدنيا ، من أميركا ، لتصرف كل هذه الأيام في الطريق ؟ .

عيد ميلاد يسوع ، يوم رأس السنة ، عيد معمودية يسوع وميـلاد جبران في يوم واحد . أتتصور كم في هذه المواسم من فراغ ووحشة لا سيما عندمـا تمر أمامنا وجوه ، ثم وجوه إلا ذاك الوجه الذي نشوق اليـه . ونسمع أصواتاً ثم أصواتاً ثم أصواتاً إلا ذالـــك الصوت الذي نطلبه ونناديه فيلبي منه الصدى (المفترض) . حتى نسيت ان تمايدني يا كثير النسيان ! في حـــين ان بعض

أصحابنا يغتنمون هذه (الفرصة) ليهنئوني (كثيراً) . أو على الأقل ليتحفوني بزركشة كهذه : يا مي عيدك يوم وانت عيد الزمان الخ . .

لقد كنت يوم ٦ يناير بطوله موضوع تفكيري . وكنت مـــائلاً أمامي بصورة طفل ، نونو نونو ، تتحرك يداه الصغيرتان في الهواء باشارة الباحث عن أدوات قدّر له ان يحملها ويعالجهـا . وتيسر لي أن أتفرغ للتفكر والتأمل في المولود النونو ، لاني كنت مصابة بنزلة طفيفة علمت من رسالتك انها جاءتني منك (كيف ذلك ؟) تستفهم أنت ؟ ذلك انـــك اجتزت كما تقول ، مسافة طويلة ليلا وفي سيارة مكشوفة فكنت معرضاً نفسك للبرد فظهرت نتيجة ذلك البرد فيّ . مفهوم ؟ فلتوفر علي في المستقبل جميـع صنوف النزلات والوافدات ومـا شاكلهن . لا تعرض نفسك للبرد وأتق كل ما يؤذيك . مفهوم ؟ وهـــل يوافق مصطفى على هذا الاقتراح ؟

كأنك تلومني لاني أسألك عن صحتك ! وهـــل يمكن الا أسأل ؟ انك مدين لي بأن تقول عنها ما قلته في هذه الرسالة ، فتسعدني بعد ان كنت تطعنني في الرسائل السابقة كلما قلت انك مريض . وبـــدلاً من أشكرك على هذه البشرى أراني مسوقة إلى العتاب لان في نفسي لك قسطاً وافراً من العتـاب ، على ما يلوح .

لماذا لم تخبرني بشفائك قبل اليوم ، قبل ان أسألك ، قبـــل ان نعود إلى التراسل ؟ لماذا لم تقل لي انك شفيت منذ ان شفيت ؟ لست مغرمة بحـــكاية ابريق الزيت إلا إلى حد محدود. ولكن كيف استطعت ان تهمل تطميني وانت تعلم ان ليس من يطمني غيرك ؟ كيف استطعت الا تفكر فيّ كل هذه الشهور ولا مرة واحدة ؟ .

(علامة الاستقلال هذه) ، قد تقول انت . (النسيان بعض أشـــكال الحرية) قد يدل كذلك على شيء آخر في بعض الظروف .

(اذا تخاصمنا في المستقبل فيجب ألا نفترق مثلما كنا نفعـل في الماضي بل

ان نبقى تحت سقف بيت واحد حتى نمل ّ الخصام الخ) .

سمعاً وطاعة ، يجيب أهل اهدن . ولكن الرجـاء إلى سيدي الاستاذ ان يذكر انه لا بد من اثنين للخصومة ، فيجعل لأهل بشري نصيباً من النصيحة الحكيمة التي نفح بها جيرانهم ومناوئيهم . وأن يذكرهم (هم يعني أهل بشري) بأن نصائحه ومشوراته أثمن من ان يفرط فيها كم فعـلوا (هم أهل بشري الذين فعلوا) يوم ان نسوا (هم أهـــل بشري الذين نسوا) صندوق الذهب الحلو المليح الذي كان يصلح الأمور ويحل المشاكل . افدني — أجـــارك الله من غضبات أهل بشري — أيجوز لجيراننا هؤلاء ان ينسوا ذلك الصندوق الواجب الوجود ؟

أما من جهتي فلدي من خطير المشاغل ما يبعدني حيناً عن كل تنازع وضوضاء. اني عاكفة على تفهم هـــذه الأعجوبة : أعجوبة أبيضاض الشعر بفودي تلك الجبهة التي أعرفها . يا للتفصيل الحلو الحلو الفتان ! انه يستحق لفرط لطافته ان يدمج في صف ّ واحد هو والذقن المطبوعة .

وعلى ذكر نقرة الذقن لا تحسب اني سأخاصمك لأجـــل اللحية التي تهددني بها . بل بكل حصافة وهدوء أتشرف بأن أحيط مولانا علماً بأن من الشؤون ما لا شأن فيه لمولانا . وإن ذقن مولانا من الشؤون التي لا شأن فيهـــا لمولانا . فليتفضل إذن — بلا مؤاخذة — فيقف عند حده .

انتهيت من الكلام الرسمي الحصيف . واذا شئت ان أترجمـــه لك بلغتي العامية قلت : انني لا أريدك بلحية . واذا أبيت إلا ان يكون لك لحية توليت أنا أمر حرقها . ها !

« هذه الابنة — يحتد مولانا — هذه الابنة تصل منها الجرأة بل الوقاحة إلى اخطاري بأنها ستحرق لحيتي المنوي ارسالها » !

الأمر كما تفضلت يا مولانا . سأحرق لحيتك ضاحكة كما أضحك الآن . ولا أحتاج للقيام بذلك خير قيام إلى أكثر من سيجارة أقدمها لك ،وعود كبريت

(أتلطف) باشماله . وهناك يكون ما أريد . فتظل الذقن على مـــا ارادتها الطبيعة تحمل بين هضـــاب (الجمود والنقمة) صورة مصغرة للوادي المشحون بشتى المعاني ، وصورة من عطف الزهرة التي وضعت عليها علامتها ..

اما (الشروط) التي تتعهد بتتميمها بعد الاطلاع عليها فحسبي ان أقول ان هذا كلام يليق بقائله . فاعـــلم إذن ان البند الأول من هذه الشروط هو أن يهتدي اليها (المغلوب) من تلقاء نفسه . أما البنود الأخرى فتـأتي بالتتبع . فهات ارنا مثالاً جديداً من ذكائك الفريد ! واحـذر خصوصاً ان تخطىء في معرفة ذلك البند لئلا تزعج حسن ظني بفراستك وصدق نظرك !

ما احلى رسالتك في قلبي يا مصطفى . ما احلى كلامك بين قافه الكـلام وركيكه ! ان الفاظك وسطورك جدول نور وندى وتشمع وحرارة ولطافة وانشاد . ومع ذلك فقل"ما اخبرتني به عنـك . لم تقل شيئاً عن كتاب (نحو الله) وعن تلك الرسوم الزيتية ، وعما يشغلك الآن من كتابة أو تصوير أو هجس ، ولا نصف خبر عن الوادي ! أيصدق اني أشعر بأسف كلما فكرت في الرسوم التي تنقشها ولا أراها ؟ فأستعيض عنها بالنظر إلى الرسوم المنشورة في كتبك واكتشف فيها كل مرة شيئـــاً جديداً . هي خاصة فنك الاولى ان يكون زاخراً بالاسرار والمعاني ، متفلتـــاً من كل تعريف ، هازئاً بكل حصر وتقييد .

جبران . كتبت كل هذه الصفحات ضاحكة لأتحايد قول انـك محبوبي . لأتحايد كلمة الحب . ان الذين لا يتاجرون بمظاهر الحب ودعواه في السهرات والمراقص والاجتماعات ينمو الحب في اعماقهم قوة ديناميكية رهيبة . قديغبطون الذين يوزعون عواطفهم في اللألاء السطحي لانهم لا يقاسون ضغط العواطف التي لم تنفجر . ولكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون ان يتمنوها لنفوسهم . ويفضلون وحدتهم ، ويفضلون السكوت ، ويفضلون تضليل قلوبهم عن ودائعها والتلهي بما لا علاقة له بالقلب والعاطفة . يفضلون أي غربة وأي شقاء (وهل

من شقاء وغربة في غير وحدة القلب ؟) على الاكتفاء بالقطرات الشحيحة .

ما معنى هذا الذي أكتبه ؟ اني لا أعرف ماذا أعني به . ولكني أعرف انك محبوبي واني أخاف الحب . اني أنتظر من الحب كثيراً فأخاف ان لا يأتيني بكل ما أنتظر . أقول هذا مع علمي بأن القليل من الحب كثير . ولكن القليل في الحب لا يرضيني . الجفاف والقحط واللاشيء خير من النزر اليسير .

كيف أجسر على الافضاء اليك بهذا وكيف أفرّط فيه ! لا أدري . الحمد لله اني أكتبه على الورق ولا أتلفظ به . لانك لو كنتَ الآن حاضراً بالجسد لهربت خجلاً بعد هذا الكلام ، ولاختفيت زمناً طويلاً ، فما أدعك تراني إلا بعد ان تنسى . حتى الكتابة ألوم نفسي عليها أحياناً لأني بها حرة كل هذه الحرية . أتذكر قول القدماء من الشرقيين : انه خير للبنت ان لا تقرأ ولا تكتب ؟ ها قد صح علي ارتيابهم وصدق فيّ سوء ظنهم . لا تقل ان القديس توما يظهر هنا . وليس ما أبدي هنا أثر الوراثة فحسب ، بل هي شيء أبعد من الوراثة . ما هو ؟

قل لي أنت ما هو هذا ؟ وقل لي ما اذا كنت على ضلال أو على هدى . فاني أثق بك واصدق بالبداهة كلَّ ما تقول . وسواء أكنت مخطئة أم غير مخطئة ، فان قلبي يسير اليك وخير ما فيّ يظل جاثماً حواليك يحرسك ويحنو عليك .

غابت الشمس وراء الافق . ومن خلال السحب العجيبة الأشكال والألوان حصحصت نجمة لامعة . نجمة واحدة هي الزهرة ، الاهة الحب . أترى يسكنها كارضنا بشر يحبون ويشوقون ؟ ربما وجد فيها من هي مثلي ، لها واحد جبران ، حلو بعيد بعيد ، هو القريب القريب . تكتب اليه الآن والشفق يملأ الفضاء . وتعلم ان الظلام يخلف الشفق . وان النور يتبع الظلام . وان الليل سيخلف النهار ، والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة ، قبل ان ترى الذي تحبه . فتتسرب

اليها كل وحشة الشفق وكل وحشة الليل فتلقي بالقلم جانباً لتحتمي من الوحشة في اسم واحد : جبران ! » .

ماري

لم أتناول بحث حب مي لجبران اشفاقاً من ان تصير ميّ نبية مثل صفورة ، وجبران كموسى أو أحد الأنبياء ، ولكنها نواة درس نبـــدأ به على ان يتمه غيرنا ان لم نتمه نحن .

عد بنا إلى الوراء ، إلى أول كتاب مي ففيه كلمة جبران النونو . إن الطفل يا صديقي يشغل حيزاً كبيراً من دماغ مي . وجبرانها النونو يذكرني باحلام الصبا ، فكم عرس كاذب اقمناه ، وكم بنيّة رأيناها تحتضن دميتها وتحنو عليها حنو المرضعات على الفطيم . أقرأ لمي في (ظلمات وأشعة) (أنا والطفـــل) تعرف حب مي للاطفال . طالع أولاً قراءتها مـــا خطته يد الأقدار في كف روبرت من خطوط الحياة والعقل والقلب ، وكيف رأت تلّ المريخ يرتفع في تلك الكف الصغيرة متهدداً متوعداً . (ص٧)

ان مي أنقلبت مع روبرت – اسم هذاك الطفل – (بصارة براجة) وهذا ما يثبت ما يؤكده علم النفس من ان صاحب الميل والهوى يتعلق بحبال الهوا ويصدق السفاسف . واذا بلغت (ص ٣٤) وقعت على مقالة (بـكاء الطفل) فتقرأ فيها (فدنوت منه متوسلة « وضممته الي بذراعي التي لم تضم يوماً أخـــاً أو اختاً صغيرة ، وأجلسته على ركبتي حيث لا يجلس سوى أطفال الغرباء) .

(صمت الطفل حائراً لانه شعر بان روحاً تناجي روحـه . صمت هنيهة ثم حدق فيّ سائلاً عن أعز عزيز لديه . وقال بصوت هادىء كأصوات الحكماء : ماما ، ماما) .

(صغيرك يناديك فلماذا لا تجيبين ، يا أم الصغير ! لست بالعليلة لاني رأيتك منذ حين تميسين بقـــدك تحت برنيطتك ، والجواهر تطوق العنق منك . أنت صحيحة الجسم فلماذا لا تسرعين) ؟

(عودي من نزهاتك الطويلة ، وزياراتك العديدة . وأحاديثك السخيفة ، عودي وأركعي أمام الصغير واستميحيه عفواً . لقد خلقت امرأة قبل ان تكوني حسناء ، وكيفتك الطبيعة أماً قبل ان يجعلك الاجتماع زائرة) .

(تعالي أسجدي أمام السرير ، سرير الصغير . اسجدي امام هـــذا المهد الذي لعبت بين ستائره طفلة ، وحلمت به فتاة ، وانتظرته زوجة ، فما خجلت ان تهمليه أماً) .

هذه هي أحلام مي . هذا هو الشوق الكمين في سجاياها ، والحنين الدفين في لا شعورها ، هذه أحلام الفتاة الكامنة في كتلتها كمون الحياة في البرعم تحت برد كانون ، وعواصف شباط ، وصواعق أذار ، تنتظر نيسان لتبرز . ولكن نيسان مزق سجوف أحلام مي ومات جبران فيه ، ولاح لها غدها الأشمط .

ان أدب مي نوعان : أدب منبري ، وأدب شعري ، وفي أدبيهـــا كليهما تسود عاطفة الشفقة والحنان والرحمة ، وهذه كلها وليدة الألم . فمي تألمت جداً وأنكى الامها الحرمان . حرمت الزوج والامومة وهي ترى ان المرأة مـــا خلقت إلا لتكون اماً .

يلوح من مكتوب مي انها البادئة في اعلان حبها ، وان جبران كان كعادته يطوف حول الموضوع ولا يلجه . إن بين سطور (مكتوبها) مشاهد وآلامـاً وشجوناً فيه حب ميّ وأطواره كلها . وفيه ارتياع من مستقبل هذا الحب . وفيه شروط وبنود لا يوضحها لنا إلا المفقود من رسائلها، فرسائل مي لجبران، ورسائل جبران لمي – الموجودة مسودتها – لم تسعفني على البت في حل عقدة مصير هذا الحب .

قرأت في كتاب (حياة مي) للاستاذ محمد عبد الغني حسن ان مي أعادت رسائل الادباء إلى أصحابها ، فالى من أعادت رسائل جبران يا ترى ؟ فهل من يرشدنا اليها وله الشكر .

لسنا نسأل عنها لنتثبت أمر هذا الحب ، فهو لا يحتاج إلى اثبات ، وقـــد

حالت تقاليدنا الشرقية دون تحقيق هذه الأمنية . فجبران لم يستطع المجيء أو لم يجيء ، والبنت لا تذهب ، وهذه هي البنود والشروط المومى اليهـا في رسالة مي .

وان زالت مي من دنيا الحب والهوى فهي باقية في دنيا الأدب بقرب حبيبها جبران . وقد تكون صارت اليه أقرب ، اذا اعتقدنا كما يعتقد أصحابنـا تلاميذ جبران . .

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل . بل ما أقل عقل الانسان . إن العقل في المعنويات كالبطنة في الذاتيات أصل كل بلاء . فيا ويل الانسان من عقله .

الى شكر الله الجر

أخي شكرالله ،

يخلق الشعر كل يوم عروساً	مثلما تخلق الحور الحبابا
تتجلّى لنا العذارى فنكسو	عريهـا من بياننا جلبابا
لا تقولوا شبنا فما الشيب عيب	ان في الشيب من يبزّ الشبابا
رب شيخ قضى الحياة فتيّا	وغـلام في موعة العمر شابا
رب شيخ يظلّ عارض رمح	يتصابى لو استحـال ترابا
لو أتتنا الحياة تسترزق العزم	خلعنـا على الحياة شبابا

هكذا أنا يا عزيزي شكرالله ، فما زلت كما فارقتني على مقعد التدريس في جبيل . أراني ، كما كنت تسمع مني ، من على ذلك المنبر :

يفنى الزمان وصبوتي تتجـدّد	فكأنني في كل يوم أولَـد

لقد صدق الحوراني ، فما يأخذ الدهر مني مثقال ذرة عزماً ، ولم ينل الزمان من همتي قدر (حبة الخردل) ، وفيّ من الايمان بالحياة أكثر من مقدارها ، ولهذا أحس انني أستطيع ان أقول للجبـل انتقل من هنا هنا إلى هنالك فينتقل ...

تطلب صورة (معلمك) لترى تلك الكهولة الصالحة ، ولا تقول الشيخوخة لئلا .. فاليك أحدث صورة في مكتبه بعاليه ، واليك أيضاً صورة أخرى وهي

صورة تلك (الدابّة) التي تتصورني أركبها منتصباً من فوقها كالرمح ، وهي من تحتي تغني الميجانا والعتابا وتدق موسيقى .

لا تسلني اين ذهبت شوارب الزناتي خليفة ! فقد سددت بها منذ زمان فم الدهر ليراني الناس جديداً أو أقل سنين ، فاطلب ان يطوّل الله عمري لاؤدي رسالة ندبت نفسي ، او لا ادري من ندبني اليها.. وانى لأتخيل انني استأجرت الدنيا من الذي نفسي بيده ، فآجرنيها عشرين سنة ، وعسى ان نجدد العقد بعد انقضاء مدته ... ومن الشروط بيننا وبينه ان يظل (الطابق العالي) عامراً ... ابشر بطول سلامة يا مربع ، ان لم يجد ما يفسخ الايجار ، والا فاقول انا :

وما مات من عاشت بقاياه مثلنا شباب تسامى للعلى و (فحول)

لا اخالك ناسياً ايام جبيل ، مسقط رأس جدك وجدتك لامك ، وملعب صباك ، ولا يوم كنت تجلس قبالتي على مقعد التلمذة ، كأنك (الحركة الدائمة) التي اخترعها ابوك وحده ... تدندن كالنحلة في القفير ، وتحاول نظم الشعر الذي افلحت فيه ، فكنت تلميذاً طاهراً كبطرس ، وحبيباً كيوحنا .

أي يا بنيّ في الأمس ، وأخي اليوم ، نقّ الكلمة التي تريدها ، لا تهب الشيخوخة فتشيخ قبل الأوان . هات اصبعك من وراء البحار والمس فؤادي ان كنت لم تصدقني ، وكن مؤمناً لا غير مؤمن ، اسمعت يا توما ؟

اقرأ السلام عني جميع اخوتك ، رسل الأدب العربي المبشرين بعهده الجديد. وليكن شعاركم – وهو كذلك – ما قاله سيد الشعراء :ما جئت لاحل الناموس بل لاكمل .

كملوا رسالة القدماء ولا تنقضوها كلها ، ففي ذلك القديم جديد رائع . إن شعر الحياة يبقى جديداً إلى الأبد ، وهذا ما يجب ان يعلمه الادباء واخص الناشئين منهم .. إن أدبنا كبيت قديم راسخ بنيانه ولكن ابوابه شبابيك ،

وشبابيكه نوافذ ، فعلينا ان نوسعها لتدخله الشمس ، ويصح البدن ...

الحياة عندنا – عنيت الأدبية ولا يعنيني غيرهـــا – في نشاط ، والشباب المثقف يسعى إلى مقعده وسيجلس عليه أو كايم . ويا ويل من لا يماشي الزمان ويظل قاعداً أمام دكانه يكـّش الذبان عن « الحلاوي » المحمّضة ...

ان مملكة لبنان الأدبية ، كمملكة انكلترة ، لا تغرب الشمس عن أرضها ، والفضل لكم أيها المجاهدون ، وللغزاة الفاتحـين وزعيمهم جبران وأركان حربه الذين شيدوا وأسسوا قبلـكم فلا تنسوهم . لا نكن كاولئك الملوك الذين كان يمحو الخلف منهم أسم السلف ويكتب اسمه موضعه . فليضع كل منا مدماكاً في هذا الهيكل العظيم كايفعل القرويون حين يبنون كنيسة لتمجيد ربهم ، واكتساب رضى قديسهم ..

ان من يفعل هكذا فقد وفى نذره ، أما من يفعل كذلك الملك فهو ديوث منافق .

كتبت اليك اليوم من مكتب عاليه ، وأوراق تلاميذي أمـامي تنظر إلى بالف عين ، وسأكتب اليك غداً من « أبرشيتي » الصغيرة – عين كفاع – صفحة من ذكريات الماضي ، وما أكثرها ، وما أحلاها ! أما الان فأعانقك ، واعانق كل أخ لنا بالأدب ، وراء البحار في امبراطوريتنا الواسعة ...

عاليه ، الجامعة الوطنية ١٩٣٧/٥/١٧

الشدياق والجاحظ والمتنبي

ضريح الشدياق
الشدياق بين مصر ولبنان
يوبيل مئوي
الشدياق وهيغو
أبو الأدب العربي ، الجاحظ
ليلة جاحظية
ابو عثمان وأبو علي
زيارة شاعر

ضريح الشدياق

يظهر هذا الكتاب ويكون قد مر على ميلاد أحمـــد فارس الشدياق مئة وخمسون سنة ، فهل يفوز الشدياق اليوم بمـــا لم يفز به في ذكرى مرور خمسين سنة على وفاته ؟

أيكون لبنان المستقل برّاً بنوابغه العرب أكثر من لبنان الانتداب ؟

أتقوم « جمعية أهل القلم » بهذا القسط وتحيي ذكرى أبي النهضة اللبنانية ، وطليعة ادبائها ؟

قد يقال : اتظل تتحدث عن شدياقك ، امـــا كتبت كتاباً عنه وسميته صقر لبنان ؟

بلى يا أخي ، ولكن لا يزال عندي شيء لا بد منه : لقد أحبطوا مساعينا هناك ، فنرجو ان نقوم هنـــا ببعض ما يجب نحو الرجل . فكثيرون لم يفهموه بعد .

اما عده الاستاذ محمود تيمور ، في محاضرة « القصة العربية » التي القاها في مؤتمر الدراسات العربية ، في الجامعة الأميركية ، بين كتاب المقامات ، وهو لم يكتب الأربع مقامات في (الفارياق) إلا ليستهزىء بكاتبيها ويضحك منهم .

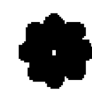
وذاك الضريح الذي ثرنا على مكانه الشائن ، حتى قضت هندسة طريق الشام بنقله ، هـــا هو يغرق اليوم بين البيوت التي أحدثت حوله ، حتى خشينا على الشدياق ان يقطس .

لقد أمست قبور حكام لبنان في غمرة لا تنجلي . ولكن جبار القرن التاسع عشر يظل في قبره الحالي ارفه منه في قبره القديم الذي قلنا في وصفه منذ بضعة عشر عاماً ما يلي :

قبر أحمد فارس الشدياق مثل عين كفاع ، بــلا درب . يعترضك الشريط الشائك ان حاولت الدنو منه ، فعليك ان تنـط نطاً ، او تحلق ، ان تقدر ، كما حلق شعراؤنا الكبــار في (مناسبات) شتى !... اما اذا كنت اكرش مثلي فعليك ان تترقى الشريط لئلا يعلق بشيء منـك ، فيغضب لك الشيخ في قبره ...

القبر في الحازمية عبر طريق الشام ، يمر به الناس غير دارين انه مرقد الذي ملأ مشارق الأرض ومغاربها ، وانفتحت لنبوغه ابواب ملوك عصره وسلاطين زمانه . شكل الضريح الخارجي مثمّن مقبب كأنه فانوس هرقـلي ، او قفص شكّ في رأس قبته هلال ، باهت كالدرويش في مفرق الطرق . داخله افخم من ظاهره وابدع ، كالكتب التي ابدعها الراقد فيه .

زرته ، اول مرة ، منذ سنوات ، فرأيت درابزين صفته ساجـداً ، وبابه مفتوحاً للزائرين من ذوي الحاجات ... والوسـخ للزئار ... فتألمت وغضبت للنبوغ الممتهن . لم ادر من اسبّ فالتقطت (الدهر) سبة الضعفاء ، واشبعته سباً وشتماً فانفشت كربتي ، ومضيت في طريقي . ثم عدت بعد اشهر فرأيت الحال قد تحسنت : القبر مكنوس ، والباب مقفل ، امـا الدرابزين فمقلوع ، كأنهم استصعبوا اعادته كما كان فحذفوه ، وفي الحذف بلاغة ... سلمت يد من فعل ففي تسكير البـاب احسان وأي احسان ، وحسبنا استراحة الفقيد من زيارة الاوباش ، واثارهم الظربانية ...



ثم انقضت سنوات ولم أعرج عليه حتى جئته منذ ثلاث جمع فكدت انفسخ قبل ان أتخطى الشريط ، وما بلغت القبر حتى طفت حوله أطلع على ما فيه

من شبابيكه ، فرأيته قد أمن غزوات الفاتحين القليلي الحياء... وبينا أنا واقف اذا بعجوز صملاء ، شمطاء ، هركولة ، تقبل علي متخصّرة فسبقتها إلى التحية بقولي : الله معك يا ستي .

فاجابت الله يخيرك يا عمي .

ظننتها تقول يا ابني ، فقالت يا عمي ، رأتني أعجز منها ، فتألمت جداً وترحمت على الأخطل الأصيل ، واين من مصيبتي ، فالتي دعتني (عمها) عجوز محطمة . وفيما انا افكر ببقية شباب نعتها الي هذا العجوز الدردبيس ، اذا بها تشق الحديث قائلة : الميّت من قرايبك ؟

قلت : رجل هو أم مرأة ؟

قالت : يقولون رجل تركي .

قلت : وماذا رأيت فيّ يا خالتي من ملامح الترك ، أوجهي الأبيض الحلو !!

فابتسمت وقالت : هكذا حسبتك ، ما تعودنا نرى أحداً يزوره . لا تؤاخذني .

قلت : حاشاك يا ... وابتلعت المنادى لئلا تبالغ في توقيري فتجعلني جدها . وتذكرت في تلك اللمحة يوم حبسني تخرب دواليب سيارتي في خان معرة النعمان . ما عرفوا اني اتيت خصيصاً لزيارة قبر ابي العلاء حتى اخذوا يتساءلون : منو ابو العلاء ؟ فقال واحد منهم : هذا رجل من عندنا كان مثل الزير وعنتر واكثر .

وقال آخر : وله شعر كالزناتي ، ومعارك تشيب الاطفال . فتجلى لي حينئذ سبب تبرم أبي العلاء ، وتركت الخان كئيباً ، اؤثر عليه قارعة الطريق وعين شمس المعرة التي تشوي العصفور .

وأمس اصابني هكذا في الحازمية ، فالمرأة القاعدة ببيت على كتف قبر الشدياق لا تعرف جارها ، وتحسبه تركياً . وما انتبهت من غفلتي حتى رأيتها

توليني ظهرها فقلت لها : كلمة واحدة يا عمتي ، أمس كانت هذه الأرض بوراً فكيف زرعتم وغرستم حول القبر ؟

فقالت : فلانة الحاج اشترت الأرض من الميرِ ، الأرض ملكها أما القبر فلا.

فضحكت وقلت : كنتم اشتريتم القبر أيضاً ... أين المفتاح ؟

فأجابت : مع الحكومة . وكأنها شعرت باستيائي وظنتني شيئاً ، فقالت بتلطف : ماذا ضروا القبر يا شيخ ، كان العليق آكله عندما اشتروا .

قلت : بارك الله فيك . فتمتمت : وفيك يا أخي ، فسرّي عني قليلاً لانها صغرتني ، وشعرت انها ردت الي شبابي مثلما كان . وطـــابت نفسي وأردت العبث فقلت : أيامكم وزراعة البطاطة ، فالمرحوم كان يبغضها لكثرة مــا أكل منها في بلاد الانـكليز .

فنظرت الي مشدوهة ثم قالت : مليح ، لا نزرع بطاطة . قلت: ولا الفجل ولا الرّشاد ، فهو يعير الانـــكليز انهم أرادوا أن يسقوه القهوة ، ويطعموه معها الفجل والرشاد .

فقهقهت وقالت : يا تقبرها أكلة، الحق معه ، من يشرب القهوة ويأكل معها الفجل والرشاد !

قلت : الانكليز ، كما يقول هذا المقبور هنا .

فاقتربت صوبي وقالت لي : بحياتك يا ابني تقول لي أيش كان دينه ، وأيش كان يحب .

وحلقت بي تتوقع الجواب ، فقلت لها : النساء فقط ، هن دينه ومعبوده .

فصفقت بكفيها وعلى فخذيها وقالت : يه ، يه ، يه ، يا صباح الشوم .

قلت : نحن عند المساء يا ست ، لا تقولي يا صباح الشوم .

فأجابت بتواضع : ستك العضرا يا عيوني ، هذه كلمة تقال .

قلت : لا تخافي منه ، هو يحب الفتيات لا العجائز مثلي ومثلك . ولا أدري اذا كان فعل كداود في مرضه الأخير ...

فقالت : وماذا فعل داود ، فقلت لها : اسألي معـــلم ذمتك – الخوري في لغة العتاق –

فتأوهت وقالت : يا حسرتي ، راح سافنا وسماقنا ، أيش بقي منـا ... ثم تأملتني وقالت : أراك تحب الضحك .

فأجبتها : وجارك هذا كان يضحك أكثر مني .

فقالت : الحق معك ، اضحك ، كل حياتنـا مضحكة ، ولكن بشبابك تقول لي اسمه .

فتمنفصت وقلت : أحمد فارس الشدياق .

فصكت وجهها وقالت : أقبر عمري ، أنا خرفت ، عرفته ، عرفته ، هذا فارس ابن الشيخ يوسف ، هذا ابن ضيعتنا .

قلت : نعم . من الحدث انت ؟

قالت : نعم نعم ، كثر الله خيرك يا عم – فاعادتنا إلى الحس من ذي قبل – ولكنني كتمتها وقلت : وخيرك ، وخير هذه الأمة التي لا تكلف نفسها ارشاد الناس إلى صاحب القبر .

وتركتني ومشت صوب الشمس ، وهناك قرفصت تسند الحائط كأنها تخصر في العشي كعمر بن ابي ربيعة . فقلت في قلبي : لو أفاق احمـــد فارس ورأى هذه الجارة الفرفورة ماذا كان يعمل واية نكتة يكتب ؟ وحضرت النكتة ولكنني ارجعتها بسلام كأبي تمام ، فالحقوق محفوظة للشدياق ، ومعاذ الله ان نكون من المقلدين والمفترين ...

وفيما أنا افكر اذا بانثى أخرى تطل من فوق سائلة : من الذي عندك ؟ فقالت عجوز الخير همساً : رجل غريب مطحول ، كثير الحـكي .

فقالت تلك : من هو . فأجابت العجوز بنبرة : تعالي اسأليه ، انا مـــا سألته ، وما عرفته .

فلاوصت لأرى أمي كالتي حدثتها فاذا العصا من العصيّه ، والفرق بينهما زهيد جداً ، فأسرعت إلى السيارة ، وقلت للسائق : إلى عاليه .



— جان تذهب بكرة إلى الحازمية ومعك آلة التصوير .
— شو بيروخ يامل — يعمل —
— تصور لي قبرا .
— كبر مين هادا ؟ — قبر من هذا —
— قبر احمد فارس الشدياق .

فردد : كبر اهماد فاريس الشد ... وظل يشد لصف ساعة وما استطاع ان يخرج الباق من فمه .

فأخذت ادله عليه فلم يفهم ، واخيراً قلت له : يا جان ، اتعرف قبر الباشا؟

فقال كبر والي . قلت : أي نعم ، اسمع ، تحت قبور الباشاوات قبر وحيد لا سرو حوله ولا شربين . حوله شريط شائك يصون المغروسات الجديدة من الحمير والبقر والمعزى .

قال : ما بيعرف ، فقلت : يا جان ، تعرف الهلال ؟
قال : وفّ ، كيف ما بيعرف الهلال .
قلت : تصور القبر الذي عليه هلال .
قال : كبر موسلم ؟ قلت : نعم مسلم .
فقال : شو بيريد انتي من كبر موسلم هتيك — عتيق —
قلت : هذا لا يعنيك ، صوره وخذ اجرتك !

قال : والمسروف — المصروف — قلت : انا ادفع المصروف ، وثمن الصور ، ولك مني علاوة اعلان عن فصاحتك .

وبعد يومين عاد جان يحمل الي صورة الضريح وخبرني احاديث شتى جرت بينه وبين جيرة القبر . فقد تركنام حيارى ولا سيا انهم رأوا زواراً عديدين

في هذه الأيام – من اساتذة الجامعة الوطنية وطلابها – حتى ظنوا ان انقلاباً عظيماً يحدث في الجمهورية ، أو ان قديساً ظهر هناك عندهم ولم يعرفوه .

فهل لي ان اقترح على بلدية بعبدا أو الحدث ، أو على الحكومة اللبنانية الجليلة وضع بلاطة فوق باب ذلك القبر الفخم ، أو على دكة امامه ، للدلالة عليه ، فيعلم المتشرقون والعلماء والمشايخ والادباء والشعراء والصحافيون انهم مارّون بضريح الشدياق ، العالم والأديب ، والشاعر والكاتب ، واول صحافي شرقي عربي من الطراز الأول ؟ أيكون انبغ رجالنا ومؤسس نهضتنا الحديثة نكرة بيننا ، فنمر بمثواه كأننا نقطع وادياً كجوف العير؟

وهل تفكر الحكومة الجليلة بل الدولة الفتية بعمل هامش لهذا الكتاب الخالد المطروح في الحازمية ، فتعلق عليه الحواشي والشروح الدالة على يقظتنا الروحية ، لتعظيم اخلص ابنائنا للغة الفصحى ،واعظم العرب ادراكاً لاسرارها؟

قد يكون الناس مشغولين باحاديث المعاهدة ، والاستقلال ، والتظاهرات ، ولا تلذ لهم قراءة هذه السخافات– الأدبية – اما أنا فأقول لهم ، وسواء عندي اسمعوا أم لم يسمعوا ، ان للبنان دولة أدبية يعز بنيان مثلها على اضخم الدول، فعلينا ان نخلد زعماءها . الدولة السياسية تضيق وتتسع ، وقد تكتسح ، أما دولتنا الأدبية فخالدة ابدية ، لا يكتسحها فاتح ، ولا يدخلها غاز عنوة ، فابوابها مشرعة لعابري السبيل ، والفضل لمن يدخل ، ولا يزيدها هذا الا مناعة وقوة . فهبوا إلى احياء رجالها، فهم ميراثنا الخالد .

سئل امير الجبل الأسود مرة : ما هي حاصلات بلادك ؟ فأجاب بابهة الملوك وغطرستهم : الاميرات . لأن أكثر الملوك – قبل الحرب الكبرى – كانوا أصهاراً له .

أما لبنان فلو سئل مثل هذا السؤال لأجاب :

الأدمغة الكبيرة ، والتاريخ يشهد له .

الشدياق

بين مصر ولبنان

استولت مصر العزيزة على مبادرتين كان من واجب لبنان ان يستولي عليهما: الأولى يوم مجدت ذكرى مارون النقاش ، ابي المسرح العربي ، والثانية حين خصص مجمع فؤاد الأول جائزة ، لأدباء مصر ، قدرها الفا ليرة لبنانية يعطاها من يكتب أحسن بحث موضوعه : أحمد فارس الشدياق وأثره في اللغة ، والأدب ، ووضع المصطلحات الحديثة .

هذا نبأ اذاعته أول من أمس وزارة التربية الوطنية عندنا . ترى ، هل فكر من يعنيهم الأمر فيها ان يدرجوا في منهاج البكالوريا العتيد اسم من أقرت له مصر بالفضل ! حييّت يا مصر ، لكأنك تقولين لنا : هذا رجل النهضة لا غيره . لقد ظن المتعمدون طمس ذكره انهم أحيوا غيره وأماتوه ، فما حاق المكر الا بأهله . لا بد لاحياء الموتى من مسيح جديد ، ومن أين ! .

ما كنت لاعرف من عدل ذاك المنهاج لو لم أرَ « في كل وادٍ أثراً من ثعلبه ». كنت أسائل دائماً : اما نزلت طبخة عجوز ابن الخطاب ؟ فيجيبني الصديق جوزف شمعون رئيس الديوان في ذلك الزمان : منهاج يرضيك ويعجبك . ولما فرض علينا ما أنكرت منه ، ما كنت أعرف انها شنشنة أعرفها من «أخزم»..

عجيب غريب !! الا يكون لرب البيت مكان يسند اليه رأسه ، الا يذكر الشدياق في منهاج وطنه وهو أمرؤ قيسه ، وجاحظه ، وخليله ؟ أيمكن ان تبنى نهضتنا على أساس ان لم يكن الشدياق حجر الزاوية ؟ ترى ، بماذا كنا

نباهي لو لم تكن آثاره ؟ حقاً ، لا يكرم نبي في وطنه !

هل من يقول لي ، وأجره على الله ، أي عمـل للخلاصة اللاهوتية في منهاج البـكالوريا ؟ أنحن نعد أكليريكيين ؟ وبعد فهل يعرف ذلـك « الذكي ! » من الخلاصة اللاهوتية غير أسمها . أما الهمه شيطانه حين جعل فلاناً وفلاناً «فرضاً» ، يجعل الشدياق « نافلة » مثل جبران !! أتقر سوريا جبران في (متن) منهاجها ونضعه نحن على (الهامش) .

لماذا طرد الشدياق خارجاً ... ألانه انتصر لاخيه الذي قتل صبراً ... اما حمل فولتير قبله حملات غواشم ، وهو يدرس في مدارسنا ومدارس من لم يهادنهم قط ... قد يقولون : في كتب الشدياق أحمـاض ، فهل في كتب ابي نواس والجاحظ وعمر ، وروسو لافونتين ، كنافة بجبن وعسل بشهده ؟!

ماذا يريد « رتيلاء » وزارة التربية ان تدرس أبناءنا من آثار من أقروهم في عصر النهضة ! فواحد ، أجزل الله ثوابه ، جمـع ولمّ كثيرا ، ولكنه لم ينشيء شيئاً ، وآخران ما كانا إلا مقلدين للقدماء . ومقدمة سليمان ليست مقدمة ابن خلدون ولا سفر الجامعة . كان لها شأن قبل ان وجدت كتب الأدب المختصة ، اما اليوم ؟؟

اننا نفهم منهاج البكالوريا معرضاً لانتاج نوابغ الأمة ، لا مأوى عجز . ان لبنان موطن الحرية الأمية . فلنعمل له منهاجـاً بريئاً من كل ميل ، فـكم هي مضحكة تلك الخلاصة اللاهوتية في منهاج أدبي . فمتى كان المنهـاج نوفيسيا Noviciat يا جماعة الخير ! ومتى كان يأوي المنهاج غـير بلغاء الكتاب والمبدعين ؟!

تعد وزارة التربية الوطنية بمنهج سويّ فأين غرباها ؟ عفواً . اين الددت..

ان الغرض الأعمى ونعراتنا القومية والطائفية تحول دون التطهير ، فلا بد لنا من مكنسة لا شعور لها لتقذف الاقذار ، مكنسة كهربائية لا تحس بما تعمل فلا تشفق على أحد ...

ان لهذا المنهاج التربوي قصصاً أطول من قصص الحيات . ففي عام ١٩٣٢ التأم ما كانوا يسمونه بمجلس المعارف الأعلى ، فكان كسفينة نوح ... دار البحث فيه حول الفطاحل فرفعت الطائفية اذنيها وكان الشدياق كبش المحرقة . امـا كتب أحمد فارس (الفارياق) فكيف تطلب من رجال الدين وربيبتهم ان يؤيدوه ! لا أعيد عليك قصة جبران فقد سبق ذكرهـا بالتفصيل . ولكنني أريد هنا ان أريك ما حصل بعد حين لتعرف مقدار التعصب البشع .

في عام ١٩٤٨ ائتمرت دول منظمة الأونسكو في لبنان ، فكانوا أربعـاً وأربعين دولة . وشاء لبنان ان يريهم وجهه الادبي فاختاروا منتقيات لاعلام ادباء النهضة وشعرائها ، فكانت المقدمة وتراجم ادباء هذه المجموعة من نصيب الاستاذ فؤاد أفرام البستاني ، المقيم العـام (الدائم) في وزارة التربية ، فهو الضيف الخفيف الظل الذي لا يحول ولا يزول من تلك الوزارة . كتب تلك المقدمة (أعزه الله) ببلاغته المعهودة .. فقال في المقطع الأخير منها :

« فأتت المجموعة انسانية المرمى ، وافرة التنوع فكراً وتعبيراً ، جامعة بين الرصانة التقليدية والجرأة الظافرة ، تتدرج شعراً من تامر الملاط وداود عمون إلى فوزي المعلوف والياس أبو شبكة ، ونثراً من ابراهيم اليازجي إلى عمر الفاخوري ، ومن بطرس البستاني إلى شبلي الشميل ، وهي ، على أي حـال ، تحمل ذلك الطابع من العمق والشمول الذي ماز الأدب اللبنـاني على مختلف العصور » .

انتهى (الفرمان الشاهاني) ولكن اين أبو النهضة الحديثة احمـد فارس الشدياق ؟ انك تجده في طليعة المنتقيات في الصفحة الخامسة والسبعين من كتابهم (اعلام اللبنانيين في نهضة الآداب العربية) اما كيف أبعده الاستاذ فؤاد افرام في مقدمته السابقة الذكر ، فهذا دهاء اقتبسه الاستاذ وتدرب عليه .

انه أراد ، إذ لم يستطع حذفه بالمرة ، الا يذكره في مقدمته ، والا فكيف يستطيع ان يذكره قبل المعلم بطرس البستاني كما جاء في ترتيب الكتاب .

وأبى قلم فؤاد افرام إلا ان يغمز من قناة احمد فارس ، فقال حين ترجم له في الصفحة السادسة والسبعين :

« ولم يبد ان ضاق به دينه لينتقل إلى آخر فآخر. ذلك انه ليس في الكثير الذي يقرأ للشدياق ما يدل على أزمة ضمير » .

وانتقلتُ إلى ترجمة المعلم بطرس لاقرأ ما قيل في دينه ، فما وجدت أقل اشارة إلى ذلك ، مع ان الرجلين رحمهما الله ، عافا مارونيتهما .

اظنك أدركت الآن اين هو حجر العثرة في طريق المنهاج التربوي اللبناني

تعصب قومي طائفي ، ورجال هم هم يولجون أصبعهم في المنهاج ... ويأبون إلا أن يكون حسب ميولهم وأهوائهم . تلصق تصرفاتهم التعصب بالمارونية ، والمارونية قومية قبل ان تكون طائفية ، والبرهان على ذلك صراعها المستمر مع رومية محافظة على « المجمع اللبناني » دستور استقلالها . كانت ولا تزال في نضال دائم لتحفظ هذا الدستور ، وكان الغربيون يحاولون دائماً هدمه ،وأخيراً تم لهم النصر « ليتنوا » الكثيرين من كهنة الموارنة ، فتبرنطوا وعافوا « الاكليل والقاووق » . ومات « المجمع اللبناني » ولم يدفن دفنة مكرمة ، فأصبحت الأساقفة تعين كما يعين « الضابط » وينقلون كما ينقل .

رحم الله البطرك الياس الذي قال لي حين كتبت محتجاً على انه ليس منا كردينال :

اسكت يا صبي ، تريد ان تجعل بطرك الموارنة موظفاً عند الفاتيكان ، ينقله حين يريد إلى حيث يريد .

بطركك مستقل أكثر من البابا ، والأول في لبنان أفضل كثيراً من الثاني في روميه . الا تعرف هذا المثل ؟

فقلت : وكيف !

فقال : فاذن أسكت . سد بوزك .

الحاذق يفهم .

يوبيل مئوي

لكلمة تحققت بعد قرن

غداً تبتلع هاوية الزمان هذه الضجة الصاخبة حول مرّة البطرك الماروني على بيروت، بطريقه إلى رومة المدينة الأزلية ..

وبعد غد تفتح اللجة حنجرتها، وتزدرد الشؤون والشجون، هـذا القيل والقال، فتنام الألسنة في مضاجعها وتسكت المحـاضر سكوت الأرض بعد العاصفة، وترمح السنونو في الأفق مبشرة بربيع جديد.

وبعد سنوات معدودات ينسى المؤرخ ما اصيبت به الجسوم من حكاك ... ولا يسجل التاريخ إلا ثلاث كلمات ستكون فاتحة عهد جديد. وكما يحمل الفجر بين اناملة الوردية قرصة برد، هكذا يبتدىء هذا العهد. فليطمئن المخلصون المصلحون، فما بعد الفجر الا النهار، والنهار لا يكون ليـــلا مهما تلبدت في سمائه الغيوم ..

سينسى التاريخ طقطقة خيـول الحرس الجمهوري، وزفيف الدراجات، وتحيات العسكر، وارتعاشات الموسيقى، ورنـين الكؤوس، وكياسة المرحبين، وبلاغة الخطباء ... انه سينسى كل هذه ولا يحفظ في ذاكرته الا ثلاث كلمات فقط.

ان المؤرخ كالناقد، لا يبالي الا بالروائع. وروائع زيارة صاحب الغبطة في

بيروت ثلاثة اسطر . فلا تلك المآدب ولا الحفلات ، ولا السيارة ولا النعم ، ولا الألوف المؤلفة من جماهير النظارة ما يصفه المؤرخ الذي يماشي الدهور ، انه سيسجل هذه السطور الثلاثة .

زار البطرك انطون مفتي المسلمين .

زار البطرك انطون حاخام اليهود .

زار البطرك انطون المرسلين الاميركان .

وان لم تأت الزيارة الأولى بالحب المروم فمتى ثنيناها وثلثناها يكفل الزمان عقد الخطبة . ستثمر هذه الزيارات في الزمان الآتي ، وتبنج الأعصاب المتوترة ، وتنسى عناصر البلاد — وما أكثرها — (رقم ٦ و ٦ مكرر) كما نحت أنامل الدهر البطيئة غيرها من مواد .

الله كريم .

كثيراً ما تخرب الصحف ما يعمره الأدباء ، الصحف تنظر إلى حوادث اليوم ، أما الأديب الملهم فيرى ما وراء القرون . يحلم الأديب فيضحك قومه من أحلامه ، أما الأيام فتحققها بعد حين . قد يضطهد الأديب المصلح حتى يموت لأجل اطمئنان الخلق ، فيضحك الناس خلف جنازته — ان مشوا خلفها — وتمتزج قهقهتهم بقضقضة عظامه ، ولكن دمه يسقي نواة الحق وينميها حتى تصير دوحة يتفيأ ظلالها الهازئون ، ولا يذكرون الغارس والساقي .

قد يكون أعداء المرء أهل بيته كما فعل طنوس الشدياق — صاحب تاريخ أعيان لبنان — شقيق أسعد الشدياق حين تنصل من تبعة ضلاله ، والتمس له المغفرة من البطريرك . أما أخوه فارس — أحمد فارس الشدياق — فتمرد ، وهاجر متمرداً ، وعاش متمرداً ، ومات متمرداً ، واليك الخبر :

في مطلع القرن التاسع عشر قدم مرسلون بيبليشيون أي انجيليون [1]

---

١ — تاريخ المقاطعة الكسروانية للخوري منصور الحتوني .

قصد الانذار في لبنان في شيعتهم ومعتقدهم... فتصدى البطريرك يوسف حبيش لمقاومتهم بأشد غيرة ، وأبرز ضدهم « منشورين » بهما ينبـــه ويحرض ويحتم على أبناء طائفته ليكونوا محترصين من خداعهم (كذا) .

ففي المنشور الأول يحظر البطرك الحبشي على الاكليروس والعلمانيين الموارنة الا يقتنوا كتب البروتستان ، والا يبيعوها أو يشتروها ، أو يأخذوهـا هبة ، والا يطالعوها لأي سبب كان ، أما هذه الكتب فهي التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب صلوات ومواعظ وجدل ديني ، وعلى كل من عنده شيء منهـا ان يحرقها أو يرسلها إلى الكرسي البطريركي ، والا يتعلموا في مدارسهم ،والا يطالعوا مؤلفاتهم ، وان خالف ذلك اكليركي كان « مربوطاً » أو علماني كان «محروماً».

وجاء المنشور الثاني في ٤ كانون الثاني سنة ١٨٢٦ فكان أشد لهجة . أمـــر فيه البطرك الحبيشي أبناء ملته ان يتجنبوا البروتستان التجنب التـــام دينياً ومدنياً ، فلا بيع ولا شراء ، ولا قرض ولا استقراض ، ولا مؤاكلة ولا محادثة ، وبالاختصار لا سلام ولا كلام . ومن يخالف ذلك يسقط في (الحرم الكبير) المحفوظ حله للسلطان البطريركي .

هكذا أمر البطريرك ، وهكذا كان ، فأصبح الماروني يهرب من البروتستاني هربه من الجدري والطاعون ، وان يخالف فالويل له . فالبطرك الحبيشي بطرك تقي صارم لا يحابي ولا يهاود . كان يحكم لبنان دينياً حكم الأمير بشير مدنياً ، وهما معاصران شهيران يعرفهما تاريخ لبنان .

في ذلك الزمن العصيب نهض شاب ماروني يحبو إلى الثلاثـــين ، هو أسعد الشدياق فعصى أوامر البطرك الخطيرة ، ولم يبال بظهيرة أمير الجبل الرهيب ، وناصر البروتستان علانية ، فاستدعاه البطرك اليه ووبخه ، ويئس من ردعـه فسلمه إلى الحاشية ليرشدوه فتناوبوا الأمر ولم يفلحوا ، فصدر أمـــر البطرك بسجنه في قنوبين – الكرسي البطريركي – وهناك مات سنة ١٨٣٠ .

احفظت الأرقام جيـــداً ؟ اني اراجع : اصدر الحبيشي منشوريه ضد

البروتستان سنة ١٨٢٦ ، ومات أسعد الشدياق في سبيلهم سنة ١٨٣٠ .

ووقف فارس الشدياق — أحمد — في جانب أخيه أسعد ، ولكنه لم يسجن في قنوبين بل هرب إلى مصر ينادي بحق أخيه أسعد في الحريـة ، وينتصر له ويشكو إلى الدنيا ظلامته ، ويخطىء في (فارياقه) مضطهدي أخيه ، ونادى منذ قرن بما نكابر من يتفوه به اليوم : الدين لله والوطن للجميع .

وفي سنة ١٨٣٧ جاء أحمد فارس الشدياق إلى لبنان سراً ومما قاله لجماعته : أن رأس الفقير ليس بأضيق ولا أصغر من رأس الأمير ، وان يكن أكبر عمامة منه وأغلظ قذالاً .. ارفعوا فرق المذاهب من بينكم فذلك أدعى لكم إلى الحظ والسرور . واعلموا هداكم الله ، ان فرق الآراء في الأديان لا يمنع من الألفـة والمخالة [1] .

هذا ما قاله في ذلك الزمن الأسود ، أحمد فارس ، أخو أسعد الذي نام في كهوف قنوبين نومة الأبد .

لم انشر هذه الصفحة المطوية من تاريخ الحبيشي البطرك الماروني (١٨٢٣ — ١٨٤٥) لأقبح عمل ذلك الراعي الصالح ، فنحن نعلم انه لم يفعل في زمانه الا واجباً دينياً نام بعده مستريحاً على رجاء القيامة بالرب ، والفوز بالأجر الجزيل ، ولكن لنفهم اخواننا « اليائسين » مما يحدث غالباً فيؤخر التقدم المنشود . فلا تقنطوا يا اخوتي من رحمة ربكم ، واصبروا فالزمان بطيء السير ، وأقدامه تمحو حتى النقش في الحجر . ان تطلبوا مني برهاناً ، فزيارة البطرك انطون للمرسلين الاميركان بشخص زعيمهم الدكتور بيار ضودج رئيس الجامعة الاميركيـة برهاني .

ففي سنة ١٨٢٦ حرمهم الحبيشي مرتين كما قرأتم ، وفي سنة ١٨٣٠ ذاق أسعد الشدياق غب انضمامه اليهم فمات فتياً ، وفي سنة ١٨٣٧ قال أخوه أحمـد

---

١ ـ الفارياق طبع باريس ص ٤٦٣ .

فارس : ارفعوا من بينكم فرق المذاهب فذلك ادعى إلى الحظ والسرور الخ . فلم يصدقه أحد .

وفي سنة ١٩٣٧ أي بعد قرن ، زار البطرك انطون المرسلين الاميركان وشرب الشاي مريئاً . لم تنقل الصحف ما قيل هناك ، ولكنها نقلت ما قاله الجالس اليوم على الكرسي الذي جلس عليه الحبيشي ربع قرن ، وهذا هو كما سمع في بيت سماحة المفتي الجليل الشيخ توفيق أفندي خالد .

« الخادم منا السيد ، والكبير صغير ، والصغير كبير ، وكلنا أخوة . يجب ان يحب بعضنا بعضاً حباً صادقاً ، نحن البشر جميعاً انحدرنا من أب واحد ، إذن نحن جميعنا اخوان مهما اختلفت مشاربنا ووجهاتنا في الحياة ، فكل فرد منا يسعى لتمجيد الله ، والله ينظر إلى نفوسنا . علينا ان نحسن أعمالنا وتكون رابطتنا اخوية . »

وعدت في مساء ذلك النهار (٢١ نيسان) إلى عاليه فنظرت إلى قبر أحمد فارس المعزول فرشقته بوردة ، أما ضريح أخيه أسعد فلا وصول اليه لأنه في وادي قنوبين .



سالني ويسألني كثيرون ماذا عند أحمد فارس حتى تطنب في الثناء عليه هذا الاطناب وتنادي به أباً وزعيماً للنهضة ، فجوابي إلى هؤلاء كلهم : طالعوا كتب أحمد فارس فهي لا تقرأ من عنوانها ، ان في كتب الشدياق لأدباً وعلماً وسياسة . ويقولون : والاحماض ؟ فأهز برأسي وأعجب من هؤلاء ، وفيهم من يدعي سعة الاطلاع ، فكأنهم لم يقرأوا من كتب أدباء العرب غير مختاراتها ، فلو قرأوها كلها لعلموا ان أحماض أحمد فارس أقل من التي عند (المؤلفين) العرب الذين اتفقت جميع المناهج العربية على تدريسهم .

ما كان أحمد فارس منشئاً مقلداً ، بل كان كاتباً عملياً مجدداً ، جريئاً إلى أقصى حد ، يخطىء الدول العظمى ويعنفها ، ويلوم الملوك والسلاطين ، ويعالج

المجتمع معالجة النطاسي .

ان في كتبه لخيرات كثيرة ، وعلى مائدته طعام مختلفة ألوانه يوافق كل ذوق ومزاج حتى أصحاب الحمية منكم ...

لا تسألوا المغامر من أية الطرق وصل إلى القمة فهـذا لا يعنيكم . كبروا الجرأة والجسارة والجهاد ، فليس الفنان من يحمل البركار والزاوية ، والذراع والهندازة ، الفنان لا يبالي بالمقاييس لأنه هو يخلقها ويتركها بعده للذرية . ليت شعري من علم أيوب وداود وسليمان واشعيا وارميا ويوحنا مقاييس الفن .

اقرأوا كتب نابغتكم تعلموا عظمته . ففيه كل سمات الأديب الذي يستحق الدرس والتعظيم . يرحم الله بودلير الشاعر الفرنسي القائل : لا يكون للأمم رجال عظام الا على كره منها .

الشدياق وهيغو

اذا وضعت الكتبة الانكليز ، سكيث ، وامرسون ، ورداووردورث، وبلوز، في شخصية واحدة ، امكنك ان تتصور جيداً عظمة الشدياق . ولو ولد هذا الرجل في اوروبا لدفن مع نخبة العظماء ولنصبت له التماثيـــل في أكثر مدن بلاده ...

الاجبشيانْ غازت

خففوا من عتبكم أيها الأخوان فما مت وما افلست كما ظن أحدكم ، وما أنا خصم أحد من الناس فاصالحه وتكون الغرامة سكوتي . لا أسكت حتى تقوم ناقة صالح ، ولكني أخشى ان أفضح شبابي الغض ان بحت بمـا عاقني ، فعذراً أيها المراسلون ، ولتكن كلمتي هذا جواباً لكل منكم .

ثم أليس من الصقاعـــة والبلاهة ان نبحث الأدب والحبلى على الكرسي تتمخض وتملأ البلاد طحيراً وزحيراً ؟

أليس من الخفة والسخف ان نغني النهاوند والرصد للغوغاء والضوضاء ؟

فوالله لو فعلت وحدثتكم عن الأدب في موسم الانتخابات لقلتم ما أبلده وما ابرده . الدولة تعلم الحياة الدستورية وهو غارق إلى أذنيه في الكتب الصفراء . صدقتم يا بشر ، ولكن دستوركم المسخ يكلفنا كثيراً ومـا لنا منه إلا الاسم . فهو ، وحياتكم ، مخلوق غريب عجيب ، كثير الرؤوس كتنين يوحنا الحبيب،

وعديد الأيدي والأصابع كالأخطبوط ، يأكل ولا يعمل ، فلا أبوه فرح بميلاده ولا عين أمه قرت به ، بل جفلت منه تنظر اليه كناقة عمر المجنونة .

عفواً ، ما لنا وللسياسة ، قد اشتط القلم والشدياق في الحازمية ينتظرنا ، مرت على رأسه ثلاث وزارات : أبو شهلا ، وبللمع ، وثابت . فلعل الثالثة ثابتة كما يقول المثل اللبناني ، فيعمل صاحب المعالي الجديد جورج بك ثابت شيئاً يبيض وجه الأدب . أبو شهلا نوى واستعد ، وبللمع قامت قيامة الانتخابات في عهده وغطست الوزارة على دررها ففزنا بعد تلك الزوبعة بعقد أطول من (العقد الفريد) فيه ثلاث وستون خرزة من خيرة المعادن ؟ . .

لعن الله هذا القلم فهو شموس جموح لا يخاف الملوي المحصد من القد كناقة ابن العبد ، ان أخذت من لجامه قنطر كأنما سرت اليه العدوى من أحاديث الناس ، فماذا أفعل به ؟

أما الوزير الثالث في عهد ذكرى الشدياق فالله نسأل ان يبسط السكينة فوق كرسيه في عهد الائتلاف ... ليعيرنا اذناً صاغية . وينجز ما وعد به زميله الأسبق .

واخجلتنا من جريدة « البورس اجبسيان » الافرنسية التي كتبت ما يلي تحت عنوان : فارس الشدياق شاعر الشرق الأدنى الكبير .

« ما بين سنة ١٨٠٢ و ١٨٨٧ نشأ رجلان ان اختلفا موطناً ولغة فقد اتفقا في الاتجاه والمثل الأعلى . من المفيد جداً ان نعلم ان هذين الرجلين اللذين لم يتعارفا أبداً قد جريا لغاية واحدة طول حياتهما فهذان الرجلان المعلمان المطلقان للغتهما قد تصرفا بها كما شاءا بسهولة عجيبة . اسخطهما محيطهما فعاشا يهجوان ، شعراً ونثراً ، المتسلطين في عصرهما ، مقبحين الاساءة والجور .

هاجم فكتور هيغو الهيئة الاجتماعية من الجهة المدنية فهجا العظماء ونابليون فأرسله إلى المنفى ، أما الشدياق فانتقد في معظم كتبه رجال الدين الذين تتألم منهم بلاده وهم الذين سببوا موت أخيه أسعد الشاعر المعروف في الثانية

والثلاثين لأنه بشر بالمذهب البروتستاني . ثم انتهى أمر الشدياق باعتناق الدين الإسلامي .

اما هيغو فاقامت له فرنسا التماثيل وتغنت بذكراه ، وأمـا الشدياق فلم تذكره شعوب الشرق الأدنى الا هذه السنة أي بعد مرور خمسين عامـاً على وفاته ، إذ شعروا انهم لم يفعلوا شيئاً حتى الآن لنقادتهم الأكبر ، وسيد فقهاء لغتهم في القرن التاسع عشر . ادركوا ان منشىء أول وأشهر جريدة عربيـة الجوائب — أمسى نسياً منسياً ، وان مؤسس الصحافة العربية لم يعرفه الشعب في احتفال وطني .

ففي تشرين أول ستقام ببيروت أعظم حفلة عرفتها تلك البـلاد ، يترأسها فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية وتمثل فيها أمم الشرق الأدنى لتكريم ذكر لبناني كان اجرأ وأعظم نقادة ، بل أعظم علماء القرن الثامن والتاسع عشر .

فنتمنى للنابغة العظيم الذي دافع طويلاً عن مصر وخديويها في جريدتـه الشهيرة ان تكون حفلة ذكراه لائقة بمقامه السامي .

قلت : يا ليت ..

ان حكومتنا تقدر ، لو شاءت ، ان تناصرنا على احياء ذكرى مفخرة من أسمى مفاخرنا ، ودرة نفيسة من درر تاريخنا الخالد .

هذا غوبلز وزير الدعاية الالمانيـة أعلن ، أمس ، في « اسبوع الكتاب » فقال : ان السياسة القومية التي تمثل الأمه تتجلى في الكتاب ، والثورات قامت على اكتاف الخطباء والمفكرين ، والانقلابات تقوم على المبادىء لا السلاح .

ثم أعلن في آخر خطابه الذي نقله الينا البرق ان حكومته خصصت مئتي ألف مارك لمساعدة الأدباء والشعراء والفقراء .

قلنا : اما والميزانية اليوم تحت الدرس فهـل تفكر حكومتنا بتخصيص شيء لنابغتها الأكبر ؟ انها تفكر ببث الدعوة للاصطياف ، فلماذا لا تكون ذكرى الشدياق احدى هذه الدعوات ؟

يا ليت شعري أية ذخيرة تفاخر بها هذه الجمهورية ؟ أهناك غــير الأدمغة الكبيرة . وإذا كانت حكومة المانيا ، وهي من أعظم الدول سلاحاً ، ترى الكتاب مبعث قومية ، فلماذا لا نعني نحن بكتب الشدياق الفريدة ؟

عسى ان يحقق وزير معارفنا الجديد هذه الآمال ، فقــد طال الانتظار ويبس الكمون .

أبو الأدب العربي

أبو عثمان ، عمرو بن بحر الكناني ، عصامي الأدباء ، كان بياع خبز وسمك بسيحان ثم استحال زعيماً أديباً ، بل أبا الكتاب العربي فجعل النثر يقف تجاه الشعر وقفة الند أمام الند . أراد ، أولاً ، كما فعل المتنبي بعده ، ان يقيد اسمه في التاريخ « إماماً دينياً » فوضع « الجاحظية » وكان نصيبه السجن ولكنه ارعوى فصار إمام الأدب العربي . قضى التسعين عاماً كاتباً باحثاً فأمست كتبه مستودع المعرفة يرجع اليها الناطقون بالضاد حتى عصرنا هذا . وهكذا خلد ذكره في تآليفه التي صورت الحياة في عصره أصدق تصوير وكانت لنا ذخيرة لا تنفد مادتها مهما استطالت المدة .

وظل ذلك الرجل يعالج الكتب ويحشدها حتى تحينت منه غرة فانقضت عليه وفطس تحتها كما زعموا . عجز الفالج عن وقف قلمه السيال ، وحار عزرائيل في قبض روحه فحاربه أخيراً بسلاحه ، فحق للجاحظ ان يقول : اتق شر من احسنت اليه . مات الجاحظ ، بياع الخبز والسمك ، فاضرب قصر الخلافة ، وقال المعتز بالله لوزيره : يا يزيد ، ورد الخبر بموت الجاحظ ! فأجاب يزيد معزياً الخليفة الكئيب : لامير المؤمنين البقاء ودوام النعماء .

يقولون : لا يصدر عن القبح شيء مليح ، وأنا لم أر أحلى وأظرف وأجمل مما كتبه هذا الرجل هجاه الشاعر بقوله :

لو يخلق الخنزير خلقاً ثانياً ما كان الا دون قبح الجاحظ

فاذا عدّت الأمم كتابها وقيل للعرب بمن تعتدون ، فهل نستطيع ان نقدم أحداً على ابن بحر ؟ لقد كان بحراً حقاً ، وما زلنا على بعد عهدنا بـه نغرف من خضمه . إذا جلسنا اليه خلنا أننا نعيش معه في ذلك الزمان إذ يعرض علينـــا رجال عصره من ملوك وأمراء وسوقة ، عرضاً غريباً عجيباً . فمن منا لا يعرف باب بيته ، ومضيفته وسفرته المدودة التي « لا تنقشع سماؤها لكثافة غيمها » . لقد شقّ للعرب طريق الثقافة وعبّدها ، ومهد عقاب العلوم فسارت الذرية في شعابها باسمة ضاحكة ، لا تلهث ولا تكلّ . وعى صدره علوم ومعارف البشر اجمع في زمانه ، فكان ، وحده ، جامعة تلقى المباحثُ عن منبره ، فتتلقاها الامصار معجبة ومكبرة .

فمن يقاس بأبي عثمان الذي ناقش أرسطو كالاعرابي وجعل عقـــله حكماً يرشده إلى نجمة القطب . فكم فك من عقد ، وكم حلّ من طلاسم أكبرها غشّ النظر ، فزخرت الحياة حيث مرّ قلمه . ارانا عوالم جديدة منها المكتشف ومنها المبتدع . ومن رأى قبل ابن بحر أن في غير القصور حياة ، بـــل من راز أدب عوامّ الناس قبله فصفّ الأمراء والسوقة في معسكره ، فكانوا جميعـــاً أبطاله الخالدين . ان أدب الدهماء الذي يعارض بـــه أدباء العالم اليوم أدبَ الطبقات العالية ، أنشأه منذ اثني عشر قرناً ، مولانا أبو الكريمتـــين البيضاويتين . فلئن فخر الفرنج بموليرهم فهذا موليرنا في بخلائه .

هنيئاً لمن تهكم به الجاحظُ فقد ابقاه .. فما الاصبهاني والهمذاني والمعري وابن العميد القائل : كل من جاءوا بعدَ الجاحظ عيال عليه ، الا مقلدون له وآكلون عن طبقه حتى البشم .

قد يعجب من لم يقرأ كتب الجاحظ ان قلنا له : الجاحظ عالِم يدرس طبائع الحيوان والنبات والمعادن ، ولاهوتي يقضي عن الله في الأرض فيجعـل بعضنا لجهـــنم وقوداً ، ويجلس البعض على سرر متقابلين . حكم عقـــله في القضايا السموية ، وعينه في المشاكل الأرضيـــة ، فبنى بيته على البصيرة والبصر ، يوم

كان الناس لا يفكرون . رحل في سبيل تمحيص العلم إلى الأقطار حتى شرفنا بزورة يوم كان يقال : السفر قطعة من العذاب .

لم يعرف العرب قبل هذا الرجل المظلم الملامح أدباً نيراً ضاحكاً ، أدبــاً يترقرق فيه طيب الحياة فتقرأه كأنك في مجلسه الراقص . كان معلماً صادقــاً فأفاد الالباء ، اما المقلدون فرجعوا من عنده رجعة الحمار من العرس .

ما رأيت لعظيمنا شبيهاً الا فولتير ، أديب أوروبا الاعظم ، فكأنهما جبلا من طينة واحدة حتى اتفقا في ابن الأخت . صبهما الباري في قالب واحـــد ثم كسره وهيهات ان يبدع ثالثاً .. من يجعل من الحبــة قبة غير الجاحظ ، فلله بشاعته ما أحلاها ، وما أكثر خير دمامة خلعت على أدبنا العربي جمالاً وظرفاً، فهل لنا ببشع آخر يملأ عالمنا الأدبي حقاً ونوراً بعدما مُلىء مواء وهريراً .

لقد كبر عقل الجاحـــظ عن السفاسف ، فما هال امتدادُ الظل ذلك الذي يحدق إلى الشمس ويراعيهــا . لقد حطّم النطّار الذي يفزع ثعالبَ الحقول ومشى بحرية الفكر خطوات .. ما عاق رجله القيد الذي كسره جَدّ الانسانية الطالع ولا خنق عنقه الغل ، فلم يكن ، والحمد لله ، (ثاني اثنتين إذ همــا في التنور) ، بل عاش للعلم والحق والحياة والأدب الحي . فلولا بقية وجدان في صدر القاضي ابن أبي دؤاد لانحدر النور وطمر كنز الثقافــة في القبور إلى يوم يبعثون ، وكان العرب بلا جاحظ . قيل ان انكلترة قد تتنازل عن أحـــد مستعمراتها ولا تتنازل عن شكسبير . أفلا يصح هذا في الجاحظ ؟

ليس الجاحظ الا تلك النبعة التي تخيلها الأخطل في مدح أصحابه الأمويين ، بل تفوقها الشجرة الجاحظية سمواً ، ففي كل فرع منها جمال ، وفي كل ثمرة طعم خلقه فيها كوثر الجاحظ .

ان اكسير « الحدقي » حقق أحلام العرب وحوّل اتفه المعادن ذهباً ابريزاً ونفخ من روحه فيما كتب فأرانا في كل كلمة عرقاً ينبض ، وفي كل جملة دماً حاراً يحترق ويحرق . ان ذاك المركب الشنيع مستودع جمال لا ينضب ، ظل حتى

مضى لسبيله في موعة الشباب . ولا تزال جدته القديمة تهزأ حتى الساعة بظرف هذه الأيام .. أليس بيننا وبينه ألف ومئة عام ؟ أجلس اليه لترى كيف انك تحدّث ابن اليوم لساناً ومعرفة ، وتعلم ان لغة العرب تصلح لكل عصر لو أحسن التفكير ولكنهم قليلو المروّة .

ابى الجاحظ ان يكون تعبير العربي كعباءته ، تصلح لكل شخص ولا تلائم أحداً ، فعبر بلسان فصيح يتصل بالحياة والأحياء ، فحرّك القلوب وانعش النفوس . وابى الا العمل َبكـُلوا من طيّبات ما رزقناكم فأكل أكل غير محتشم . متّع بالحياة استمتاعاً عريضاً ، وشاء بختِه فكان طويلاً ، وعاش للأدب قرناً كاملاً كتب في اخرياته بشقٍ واحد ، فحقق اسطورةَ العرب في كاهنيها سطيحٍ وشق أنمار .

ليت شعري ، هل عندنا رجل يُحد من الجهات الأربع غير الجاحظ ! والغريب اننا نرى كيف التفتنا ، رجلاً كاملاً متين العضلات ، هو البحر من أي النواحي اتيته ..

يعجز القلم عن تصوير الجاحظ في كتاب ضخم ، وأشهد اني ما رسمت لأعظم شخصية أدبية الا صورة شمطاء كلحية الأشيب الحنّاة .

هذا الغرب الذي نقلده في الملبوس والمأكول والمشروب وكل أساليب العيش يكرم كبار أدبائه ويحيي ذكراهم من السنة إلى آخر الأرقام ، انه يحتفل بميلادهم وبذكرى تصانيفهم الخطيرة . فهل خطر لنا ان نذكر أديبنا الأعظم ولو بعد مرور ألف ومئة عام ! !

يسمع الناس ان للجاحظ كتاب الحيوان . أما من قرأه فيعلم انه كتاب الإنسان ، فهو مستودع كل ما عرفه الانسان في ذلك الزمان . يسرد الجاحظ كل ذلك باسلوب قصصي واقعي ، وهو لا يلقي سلاح الجدل والمنطق في جميع جولاته . ميزانه منصوب دائماً على منصة العقل ، وهو لا يقبل إلا ما يسلم به تفكيره الصحيح .

كان الزمانُ أكبر مثقف لذلك الرجل . فحياته تاريخ قرنٍ كامل ، بل تاريخ زهرة العصور العباسية ، فقد شهدت عيناه الكبيرتان أعظم صراع سياسي وفكري ، وخرج هو من ذلك المعترك بنتائج باهرة لم يظفر بمثلها أولئك الذين نعدّهم فلاسفة وعلماء .

كان مولانا أقدر الناس حجةً ، تبرز لك شخصيته من وراء كل عبارة خطها قلمه . لا ترتيب ولا نظام عنده ، ولا تبويب لما يكتب . مزج العلم بالأدب ، والشعر بالفلسفة والحديث ، فهو كرُخٌ ألف ليلة وليلة ، ينقلك من واد إلى جبل ، ومن جبل إلى بطحاء ، ثم يعيدك إلى حيث كنت ، ولا تدري الا انك تقرأ الجاحظ . يتخير أجمل الألفاظ وأحسن التعابير ويفر سريعاً من الاسلوب العلمي إلى مناحي الأدب حيث يتنفس بملء رئتيه .

وإذا سألتني تحديداً للاسلوب الجاحظي قلت لك ما قاله ديكارت لخادمه : لا (تخربط) عدم نظام مكتبي .

ان اسلوب الجاحظ هو عدم الاسلوب ، فلا تحاول تقليدَه إلا إذا كنت ذا شخصية كشخصيته .

ليلة جاحظية

كنت أفكر في إحدى امسيات تشرين بموضوع اكتبه بمناسبة انعقاد الاونسكو في لبنان فنمت مهموماً. وكأنما الأحلام بائتة تحت مخدتي، فما أسندت رأسي اليها حتى سحت في دنيا الله الواسعة ، وبعد طواف أضناني رأيتني في بيتي في عين كفاع انشر على مكتبي كتاباً دهرياً فيه تخاريب وانفاق . وبينا كنت أتبين كلمة أكل أكثرها سمك المكاتب ، إذا ببابي يدق دقاً غريباً فقلت : من ؟ فلم يجبني غير قلقلة المفتاح في القفل كأن فاعلها لا عهد له بالأقفال الحديثة .

وطال الدق والقرع ، فنهضت أرجف غضباً ورعباً وفهت بما يدور على لسان كل غضبان . وفتحت الباب بنزق فانشق عن رجل ما رأيت قط أبشع منه وجهاً بعينين مثل الكلوتين وشفة كقطعة من طحال ، مربوع بدين ، كل ما فيه راعب حتى الابتسامة . فصحت من هلعي : اسم الصليب وذكر الصلبان .

فما راعني الا زائري الجميل يرد علي بقوله : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم .

فصرخت به لما انكشف عن انسي : وأنت تبسمل أيضاً يا حلو !

فضحك وقال لي : لامك الهبل ، اوحسبتني شيطاناً ، أين الذنب والقرون يا ذكي ! ..

ولم يمهل حتى ادعوه للجلوس بل استوى على الكرسي ثم قال : اجلس ،

جئناك ، قل ما تريد منا . فسكتُ . ثم حاولت الأخذ بالحديث فيما قدرت ، وفيما أنا أتفرس فيه رفع يده وحركها في وجهي قائلاً : لماذا تعوذت باقانيمك الثلاثة ؟

قلت : لأخزيك ، هكذا علمتني أمي ، ورعبني جمالك الفتان يا شيخ. وأنت لماذا بسملت ؟

فمجمج في حديثه ثم أفصح قائلاً : اتراك أجمل مني ؟ أحقاً خلتني شيطاناً ؟

قلت : نعم ، ومن يدريني ..

قال : لعن الله تلك اليهودية .

قلت : مَن الشيخ ، ومن أين مقدمه السعيد ؟

قال : لولا عرفتني لانفرج شدقاك ، وامتلأ فمك فرحاً .

فقلت : هلا تقول وتريحني ؟

فأجاب بعد قليل : إنا نبلوك ليكشفك الامتحان ، كيف لا تعرف من تمنيت زورته ، وقلت ليته يعود الينا ساعة فتراه ، قد أدرك مالك شهوتك هذه فأشّر لي آذناً بالمجيء اليك .

فاستغربت حديثه وقلت له : منو مالك ؟

فأجاب بلا اكتراث : خازن النار .

قلت : إذن لا بد من جواز سفر حتى في مملكة جهنم ..

قال : لا يكون شيء إلا من بعد اذنه .

ورأى ارتباكي وتعسر معرفته علي فأشار بمدراه وقال : انك لا تفلح ، وما في الناس عبقري كشيخ النار ..

فعرفته بها وعلمت انه الجاحظ لا شك فيه ، فقمت اليه اصافحه قائلاً : اهلا برجل ينوب عن الجحيم بنفسه . ليتك اسقطت عن نفسك هذه المؤونة . كنت أمرت فذهبت اليك .

فكركر في الضحك قائلاً :

كل آت قريب .. طرقتك زائراً الليلة وساردّها لي، ان بي لشوقاً إلى رؤية جهنمكم ، وتقبيل وجنتيك .

قلت : ابهاتين الشفتين القرمزيتين الرقيقتين ؟

فقال مشيراً إلي : ليس البق منهما بهذا الجمال الساحر ، والشباب الغضّ ، والجسم البضّ .. وكان يعض على الضاد فتخرج من فمه عريضة ضخمة كأنه لم يبرأ من الفالج كل البرء .

وامتد بنا السخر والتهكم والمزاح حتى تجرأت عليه، وقمت اعلق في جيبه منديلاً يقي صدره من اللعاب السائل . فضحك وقال : ذاك كان في دنيا كم ، أو ما تراني غير مـــا سمعت بي ؟ فضحكنا وقعدت استمط . فما رأى علبقي حتى انقض عليها بمخالبه الخمس كأنه يأخذ ملحاً لقدر هريسة ، ثم غيّب العاطوس في أنفه ولم يعطس ولكنه تجلى وفرح ، ثم فرك انفه وقال ان عاطوسنا افعل من هذا وستفرح كثيراً يوم تصير إلى جنتنا ذات اللهب ، فنظراؤك كثر هناك ، ان حققهم الذهبية ملأى من العطوس الروماني .. انه اطيب من هذا .

قلت : ويحك ما أمر نكتتك ، الا تتركها حتى في النار ، فكيف حال من فارقت ؟

قال : بخير يسلمون عليك .

قلت : بحياتك تقول لي أين موقع جهنم ؟

فأجاب : في الدرجة الثالثة والثلاثين من عقلك .. وما يهمك هذا الأمر ، ان طريقها معلمة ، والجاز غير قلق .

قلت : والزبانية أهم على كيدهم لنا ؟ وكيف حال لوسيفورس ؟

قال : نعم ، ولكنهم سيحتفلون بقدمك احتفالاً لا تنساه .

قلت : ما بال هؤلاء الشياطين حاقدين علينا ؟ أنحن من وسدهم تلك المهاد ، ونحن وقفناهم على النار ؟ عليهم بميخائيل وجنوده من كل ذي جناح في الجنة ..

قال : هو كذلك في دين النصارى، اما في ديننا فلولا سجدوا لآدم دخلوها.

وسكت بغتة ثم قال : قريتني كلاماً يا هذا .

قلت : عفواً يا عمرو ، الفرح ينسي ، ناهيك بأني تائق لاخباركم .

فاستبشر لما دعوته بأحب الأسماء عليه وقال اني لم اطعم منذ يوم وليلة ، فقَدَ الزاد في الطريق ، ونفضت الجراب على رصافة هشام قدام كنيسة مار جرجس .

قلت : وهل رأيت الأخطل هناك ؟

قال : لا اخطل ولا مخطل ، أين العشاء ؟

قلت : ليتك نفضت جرابك على هذا المكتب فكنت أرى طعامكم .

قال : سوف تراه وتشبع منه ان شاء الله ..

وسكت وسرت لأقول على عادتنا : أهلاً وسهلاً بالضيف ، شرفتني بأن جعلت راحتك عندي الليلة .

فصاح : اف ، اف ، حقاً انك بليد ، حطّ الطبق ثم ثرثر ما شئت .

قلت : حقاً انك جوعان و ..

فقال : هفوان ، اين العشاء وما هو ؟

قلت : هو مضيرة وسمك ، ورزّ بارد ..

فضحك وقال : يسخك الله مثل رزك ، هات السمك والمضيرة ومرحباً بالفالج ..

فقلت : وكيف حال ابن ماسويه ، فقال : رفعه الله إلى أسفل ، فصار طبيب خازن النار الذي سميته أنت .. ماذا سميته يا ربي .

قلت : لوسيفوروس .

قال : أي نعم . ورأى الطبق مقبلاً فتحرك ليحكم قعدته فسقط بضعة مجلدات عن الرف فأجفل وانتصب .

فقلت : لا يلدغ مؤمن عن حجر مرتين . فأجاب وعيناه في الطبق : ولا كافر مثلك ..

قلت : لولا تموت بها يا شيخ مرة ثانية فترتاح من عذاب النار . فتبسم وقال بعد ان بلع اللقمة : اصدقت هذه الرواية ، فلو اهوى علي جبل عبّود، واطبق فوقي أُحد لما فطست ..

وانقض على الطعام بالسكين والشوكة فقلت : كأنك ابن زماننا يا أبا عثمان !

قال : نعم ولا فخر ، قد علمني فولتير آداب سفرتكم .

وتذاكرنا الشعراء على الطعام فأثنيت على جديـــد بشار ، فغص الجاحظ ومصمص لسانه ، فغمزت الخادمة فصبت له الخمر في كأس نواسية وتمثلت :

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس

فانسته حلاوة أبي نواس مرارة بشار . فاستزاد من الخمرة المعتقة حتى كرع ثلاثاً اخطليات وقال : ان شرابك المفلفل لخليق بذاك الظريف الديّوث ..

فقلت له : لقد أجدت يا استاذ العرب وسيد الأدباء .

قال : وبماذا ؟

قلت : بقولك في ابياته هذه بلسان أحدهم وهو جرار : هذا شعر لو نقر لطن ..

قال : حزرت ، وماذا يهجس في صدر الزجاجة ..

وجاءت الجارية لترفع الطبق ، فصوب الجاحظ نظره فيها وصعده فقلت له : لا تخف ان عدت الينا مرة أخرى ، فهي ليست سندية فتقول (الجاحد) أو (الحلقي) بالباب . فبدهني بقوله : ولكنها تقول المسيو جاهز ، أو المستر هدكي ..

وادركت حقارتي ازاءه فتوقيته ، ورفعت الحديث وقلت : ما أدري كيف اغفلك أبو الفرج الاصفهاني ولم يترجم لك ،

قال : لأنه مثلكم يعني بالشعراء ، ويبخس الكتاب اشياءهم .

قلت : الحق معك يا استاذنا الأعظم ، ان العرب ليباهون بك ، وما هـذا الإنسان ، وان أنا ذكرتك دونهم فلانني اتدارسك مع تلاميذي فأنت أحـد

الثلاثين (الخالدين) في منهاج البكالوريا اللبنانية .

وردد كلمة بكالوريا حتى استقام له لفظها وسألني : ما البكالوريا؟ فخبرته فاستضحك واثنى ثم قال : وهل سألوهم عني ؟ قلت : نعم وكنت ميمون الطالع عليهم يا أبا عثمان .

أما الاحتفال بذكراك فهذا مجد للعرب ، بل هو قسط من دين لك عندهم مستحق منذ ألف ومئة عام ، أما هززت (العصا) في بيانك وتبيينك دفاعاً عنهم ، فلله أنت من ابن بار . .

فتناول الكلام وقال : ولله انت ، ولله ابوك ، ولله جدك ، يا اديب الادباء وسيد البلغاء ، وامام الفصاحة واللسن ، ونبراس الزمن و . .

فصحت : وي وي وي وي ، ايش هـذا ، حقاً انك ابن بحر . أخرفت يا شيخ ؟

فقال : لا والله ، عشت مئة وخمس سنين بعقل كامل ، ولكنني سررتني بكلام ففرحتك بمثله . اتريدني على الصمت وقد اطريتني حتى فلقتني .

قلت : أنا لم أعد القيام بالواجب لك .

قال : ومن قال لك اني لئيم ؟ فأنا رجل لي بصر بالكلام وانشاؤه صناعتي .

قلت : لقد صدق ابن أبي دؤاد إذ وثق بظرفك ولم يثق بدينك .

قال : عليه لعنة الله ؛ فهو كسفود النابغة في سقر . .

قلت : اتتشفى ، وأنت كيف ؟

قال : في نعيم ، في نعيم مقيم ، ثم مسح فمه بكمه وقـال : قم بنا فنزور الاونسكو ونرى ما عندكم من علم وأدب .

فقلت : اما وقعت على غيري .

فأجاب : ان الطيور على أشكالها تقع . ان سيري معك أسترُ لي . مجنون أنا حتى انتقي غيرك خرّيتاً .

فصحت : يا ويلاه . أما وجدت غير كلمة خرّيت يا أبا عثمان ؟ !

فضحك وقال : لكل مقام مقال ..

وبلغنا بوابة مدينة الاونسكو فرأى الأعلام منصوبة على الركائز فعدها وقال وهو يقهقه : أم أربع وأربعين .. وما دخلنا قاعة المحاضرات حتى سمعته يقول : كأنها دارة جلجل .

فقلت : أتراها صالحة لاحدى اللذات الأربع المنقوصة . فأجاب : لو كان فيها ماء :

وشاع الاستغراب والرعب في وجوه النظارة والهيئات حين دخولنا ظنوناً من عالم آخر ، أما المحاضر فكان يتحدث بحرارة عن السلام والمحبة . وأفاض في الكلام فمال علي الجاحظ وقال : دعنا من سحر الكلام ، فهو ألهية لا غير .

ودق جرس التلفون فانقطع الحلم . كان المتكلم الاستاذ بهيج عثمان يطلب مقالاً للاونسكو فقلت له : الليلة يكون عندك ، ولكنني كتبت موضوعاً آخر يطابق مقتضى الحال ..

أبو عثمان وأبو علي

هذا رغيف عتيق جداً ، من كعب الجراب، بالغ من العمر سبعة عشر ربيعاً. العمر كلّه ان شاء الله ، وهذا غير بعيد ما دام الأدب عندنا عنوان بؤس ، وحسبك برهاناً على هذا، كلمتنا المرددة منذ أيام ابن المعتز: ادركته حرفة الأدب.

سبحان مقسم الحظوظ ! فبينما نرى العراق يدعو رجال الفكر في أقطار المسكونة ليحتفل بذكرى أبي علي ابن سينا إذا بايران تدعيه ، وكذلك تركيا. أما الجاحظ الأديب ، العالم العربي الأصيل ، فرجونا بشأن ذكراه الألفية وزيرين عراقيين السيدين صادق البصّام ويوسف عز الدين وما عملا له شيئاً .

كان ذلك عام ١٩٣٦ فجاء جواب البصّام كما نقرأ : نشكركم جداً على ما ابديتم من عواطف سامية في كتابكم المؤرخ ١٩٣٦/٦/٢١ . راجين لكم اضطراد التقدم والنجاح في خدمة العلم والأدب . وفقكم الله لما فيه خير البلاد وصلاح الأمة . ودمتم بخير .

صادق البصام
وزير المعارف

وراح البصام بعد أشهر وجاء عز الدين ، فكتبت اليه فكان أكثر اهتماماً من سلفه وذهب الجاحظ بلا ذكرى ، وان كان الخالد بدونها .

ان ما حدث اليوم بين دولتي العراق وفارس ، هو وفق لما يحدث في كل بلد. يختلف « ملاّكان » على شبر أرض ويهملان املاكهما الواسعة ، ويتركانها بوراً بلا حرث ولا غرس .

قرأت في جريدة تلغراف : « ان الايرانيين يعتبرون ابن سينا مواطناً لهم بسبب ولادته في احدى مناطق بلاد العجم . » هذا ما ظهر اليوم ، أما الحقيقة فهي ان الايرانيين لا يعتبرون ابن سينا ، وحده ، عجيباً ، بل يحصون في تاريخ الأدب الفارسي الكثيرين من كبار رجالات الأدب العربي كابن المقفع ، وبشار ابن برد ، وبديع الزمان ، وغيرهم . لقد طالعت هذا المؤلف منذ أعوام فقلت في نفسي لم يبق لنا غير أبي عثمان، ولما وقع حول أبي علي هذا التنافس تذكرت هذه الصفحة مطوية ، فبعثتها من مرقدها .

ان الشيخ الرئيس ابن سينا عظيم حقاً ولكن هذا لا ينسي العراق ابنها الأصيل . ان الرجل الذي دق اسفيناً في كل صخرة من صخور الفلسفات والمذاهب ، ولم يسلم من غمزاته أحد حتى ارسطو ، ليستحق ان يحتفل وطنه ولسانه بذكراه .

ليت شعري ، ايفاخر العرب الموالي ، فخراً لا غبار عليه ، بغير الجاحظ والمتنبي والمعري ؟ لقد قضت الشام واجب الاثنين وما بقي غير هذا ، فهل تهتم العراق بابنها العبقري ، ولو بعد فوات الأوان ؟

التقى الجاحظ وابن سينا في حرم العقل ، واحب كلاهما الحياة وملاذها ، وإذا كان الشيخ الرئيس ابن سينا قد عالج الجسد ، فالجاحظ هو أول من طبب العقل وفك عقاله . واني لا أستطيع القول ، ولا ينكر علي أحد ما أقول : ان الجاحظ هو أول عربي دق باب الإيمان المصفح بيد الفكر الحر ، ففتح أمام الفارابي وابن سينا والمتنبي والمعري وغيرهم باب الشك في « جاحظيته » ثم في كتبه ، فجرّأ ابن سينا على القول فيما بعد :

دخولي باليقين كما تراه وكل الشك في أمر الخروج

كانت حياة ابن سينا (عريضة قصيرة) كما كان يقول انه يريدها ، وكانت حياة الجاحظ طويلة عريضة ، وكلاهما خلف لنا تراثاً ضادياً خالداً ، فمن الانصاف ان يسوّي العراق بينهما في التكريم والإجلال .

أليس الأقربون أولى بالمعروف !

زيارة شاعر

صافحته مرحباً ونفسي تقول لي انه المتنبي ، فصعدت نظري فيه وصوبته ، وقلت له : كن أبا محسّد ، فأجاب : أنا ذاك . واجـــال نظره في مكتبي ثم استوى على امثل كرسي .

قلت : منذ شهر وأنا اتلفن إلى الجنة ثلاثاً ، كل يوم ، فـــلم يجبني أحد لا رضوان ولا بطرس . وتلفنت إلى الجحيم فأجاب مالك ليس عندنا مَن اسمه أبو الطيب ولا المتنبي ، ولا أحمد بن الحسين ، فضربت لك الكائنات كلها ولم يأتني نبأك ، فمن أين هبت ؟ بحياتك تقول لي ؟ !

فأجاب بصوت يكاد لا يسمع :

وهـــذه الأرواح من جوه   وهـــذه الأجسام من تربه

قلت : إذن لا جحيم ولا نعيم ، وأنت بين بين . .

فبسم كالساخر وقال : اما فرغتم بعد من هذه المعضلة ؟ عدّ عن ذا . .

فقلت بعد صمت يسير : كيف تجدك بعد ألف عام ؟

قال لا أحمد الله على شيء .

قلت : ولا تقول ان شاء الله . .

ففطن لها واستضحك قائلا : وكيف أنتم ؟

قلت : كما وصفتنا منذ عشرة أجيال بقصيدتك : أحق عاف بدمعك الهمم . . وجعلت انشدها حتى اتيت على خامس بيت ، فزفر ، وامسكت . وخفت ان يبرح بغتة فقلت له : من غرائب الاتفاق ان تحتفل بيروت وباريس بيوم واحد

في ذكرى شاعرين كلاهما شغل الناس .

فكشر عن أسنانه وأجاب : ولا فرق بين الذكريين ، ذاك تحت قبة المجد ، وأنا تحت المصابيح الحمراء ..

فظننته يهزل فقلت : وأين تريد ان يضعوك وأنت القائل :

كم قتيل كما قتلت شهيد　　لبياض الطلى وورد الخدود
يترشفن من فمي رشفات　　هن فيه أحلى من التوحيد
كل خمصانة أرق من الخمر　　بقلب أقسى من الجلمود

أوتطمع بعد هذا ان تكون بين الكنيسة والجامع !

فنظر إلي نظرة كادت تقتلني .. وكان سكوت .

وحضرت القهوة فحساها بعد امتناع ، فاستعطاف . ورأيت الأجمل ان نكب عن هذا الحديث فقلت : أترى أعمى المعرة في جوكم ؟

فأجاب : نحن الشعراء لا نعرف إلا من تقدم ، أما من تأخـــر فيعرفنا ولا نعرفه .

قلت : تعني ان المعري استضاء بنورك ، وفصّل ما اجملت .

قال : وأقول أني لا أزال نهباً مقسماً للشاعر والشويعر والشعرور منكم .

قلت : ان في لسانك أثراً من كل مصر .

قال : الا تذكر قولي : أبداً أقطع البلاد ..

قلت : واليوم ، أين بيتك ازرك في ديوانك ؟

قال : أما منزلي فكما علمت ، وأما ديواني ففي دواوين شعرائكم .

قلت : ما عنيت هذا يا أحمد .

فامتعض لأنني لم اكنه ، الا انه ابتلعها وقال : بلى وأكثر من هذا تعني .

فانجز الحديث وقلت له : حقاً يا أبا الطيب لقد نهجت نهجاً جديداً في الشعر العربي وقلت كلمات لا تفنى ، ابصرها العميان واسمعت الصم .

فانتفش وطابت نفسه ، فقلت : ولكن . — وحدقت اليه فاذا القيامـــة

تنشر مطارفها – ولكن لو .. لو نظمت لنا ملحمة عربية كشاهنامة الفردوسي لتمّ أدبنا كما يزعمون .

فحك صلعته واتسعت حدقته ، وانتظرت الجواب فقال بعد اطراق : ما عرفت شاعراً اسمه الفردوسي .

قلت : ولا أبا القاسم ؟

قال : أعرف كثيرين ولكن بلا شاهنامه . ثم زحزح كرسيه وأقبل علي وتوكأ على الطاولة حتى واجهني وقال : الشعر يا أخا العرب ، عسجد يضرب نقوداً على السكة الرائجة ، فلو قامت لكم سوقنا فعلتم فعلنا .

قلت : ولكنها دنانير تفر من البنان .

فتعالى وقال : أقرأتها جيداً ؟

قلت : مرات .

قال : إذن أنت تدرك اننا نبز الشعراء لو قلنا مثلهم .

قلت : نعم يا سيد المتقدمين والمتأخرين ، ويا عظيم شعراء الأرض قاطبة .

قال : كنت تحدثنا بهذه اللهجة ، من قبل ، فتطيب نفسنا ، فومن نفسي بيده كنت ظننتك الصاحب بن عباد .

قلت : لا أحكم فيه شططاً ، فوالله العظيم لولا انك تستحقها لما سمعتها مني وأنت المتنبي .

قال : انك تغيظ الناس وتحفظهم عليك ، يريدون الثناء من فم قربة وأنت تقطره تقطيراً .

فقطعت عليه الكلام وقلت : أما سمعت حسين هيكل يغفر لك بلسان مصر هجوك اللاذع ؟

فانتفض وقال : وما ذنب الأمة فاهجوها ، فوالله ما كنت إلا معرضاً لها على ذاك العبد الخصي .

قلت : فلندع ذا ، أعرفت لبنان قبل العام ؟

قال : عهدي به بعيد ، وكان ذلك في الشتاء .

قلت : إذن أنت تستحق شكر لبنان .

قال : وعلى ماذا ؟

قلت : على هذا ، أما ذكرته ؟ وحقك لو دروا بوجودك لمنحوك وسام الاستحقاق اللبناني الأسمى .

قال : وما الوسام ؟

قلت : سبيكة صغيرة من النحاس أو الفضة أو الذهب .

فهش ، يا سبحان الله ، عندما ذكر الذهب .

وكركر في الضحك إذ درى ان الوسام يشك في الصدر .

وخرج التلاميذ للتنفس ربع ساعة ، وكان من دروس يومهم : لا افتخار إلا لمن لا يضام .. احدى فاتنات المتنبي ، معشوقة الملك فيصل رحمه الله ، فأخذوا ينشدونها أجواقاً ، بصوت جهوري لتعلق في أذهانهم ، فانتهض المتنبي فجأة وبرز لهم من الشرفة .

فما أبصرنا التلاميذ حتى صاحوا بملء أفواههم : يعيش الشاعر العربي ، يعيش يعيش يعيش ، وهم يظنونه معروفاً الرصافي ، كما صورته الصحف في عباءته وكوفيته وعقاله .

أما المتنبي فأخذ يختفي — كظل صموئيل من وجه شاول بعد ما احضرته عرافة عين دور — وسمعناه يردد في الفضاء :

وتركك في الدنيا دويا كأنما تداول سمع المرء انمله العشر

قادة ذهبوا

الأب هنري لامنس

عمر في يومه الأسود

في ذكرى عمر

المونسنيور فغالي

فؤاد سليمان الأديب والشاعر

خمسة في عام واحد

ابراهيم عبد القادر المازني

المنفلوطي ورسالة الغفران

أبو الفضل الوليد (الياس طعمه)

الأب هنري لامنس

المستشرق البلجيكي اليسوعي

« لا حاجة الى ان نبين لقرائنا مـا ينجم من الفوائد الجة من تشكيل جمعية تاريخية في سورية كما وصفها الأب لامنس ، بـل يأخذنا العجب من عدم انشائها حتى الآن، لا سيا ان بلاد الشام من الأقطار التي توفرت فيها الآثار التاريخية. ونحن الاوربيون تبني امالاً طيبة على جمعية تاريخية يكون أعضاؤها شرقيين لأن أبناء البلاد ينالون بزمن قليل ما لم ينله الغرباء بعد الجهد الجهيد ، وإذا تشكلت هذه الجمعية بادرت الجمعيات الاوربية إلى مكاتبتها فتقوى بذلك على اتمام مشروعات علمية ذات شأن خطير . »

الدكتور ج. كمبفماير

مستشرق الماني

توارى وجه الأب هنري لامنس في ظلمة القبر فانطوت صفحـة مجيدة من محققي تاريخنا المجيد ، وآثارنا الدالة على من سلكوا هذه الطرق قبلنا .

كان لامنس لا يصيح ولا يماحك ولا يطفي سراجاً مشعلاً . حياة كلها عمل لا تعرف الملل ، وعزم لا يفله الكلل . لقد ترك فيما كتبه هـذا العلامة المفكر منارة للتائهين في مجاهل التاريخ ، يقرأون على ضوئها الوهاج سطور المعضلات

المبهمة ، ويفكون اختام الأمس . عاش الرجل مجرداً عن الأهواء ، وكتب منزهاً عن الغرض لا يتعثر علمه بدينه ، فمات بريء الذمة .

حرث كرم ربه من الصبح إلى المساء ، واشتغل من الفجر إلى العتمة ، فاستحق دينار ربه حلالاً زلالاً . لقد ترك آثاراً تدل عليه فلننظر اليها باحترام واجلال .

لقد أحيا الأب لامنس آثار لبنان ، فعلى لبنان ان يمجده .

لقد أحيا لامنس صفحات مجيدة من تاريخنا العربي فلنكتب اسمه في امثل صفحة من هذا التاريخ .

كان لامنس ضيفنا ، ولكنه ضيف فعل ما عجز عنه رب البيت . فلنتعاون على تكريم ذكرى هذا الضيف الذي لم يحسب قط انه غريب . فمنذ أربعين عاماً كتب « هيا بنا على درس تاريخنا » ثم درسه فأحياه .

أرأيت هذه (النا) في تاريخنا ما أعذبها وأحلاها في ذلك الفم الطاهر . لقد انطق لامنس خرائب لبنان المبعثرة ، وخلق من صخورنا الأرملة لساناً فصيحاً يخبر بأعمال السلف ، وجعل من قلمه دعامة تقيها الانهيار ، ولكن يد الجهل محت كثيراً مما ابقت يد الدهر منها ، إذ لم تتحقق فكرة الأب لامنس بتأسيس جمعية وطنية تصونها . (راجع كلمة الدكتور كمبفماير) .

ان لبنان يا لامنس ، بقلاعه وحصونه ، ومعاقله وكهوفه ، بكنائسه المسيحية ، وهياكله الوثنية ، من قرن رأسه إلى كعب رجليه ، من الشمال إلى الجنوب ، يذكر وجهك الصابر على معارجه وأوديته ، وجباله وقممه ، وهو يقف اليوم حيال قبرك يرثي ذلك الجهاد الصامت والثبات الباش .

حدثتنا في ما كتبت عن آثارنا كأنك ابن عمنا ، وواحد منا ، وقمت تحثنا على حفظ آثارنا ، وتقرئنا سطور أمجادنا بالمدّ ، فليشاركنا اليوم في تمجيد ذكرك من ارخت معابدهم ، وانتزعت ذكراهم من فم العوادي .

ان ابنَي بلدي ، أدونيس والزهرة ، يمشيان معي في موكب مجدك فهل

تقبل تمجيدهما لك ؟ لست اشك في ذلك ، فأنت عشت للتاريخ ، والتاريخ لا دين له ، وهما من أبطاله الخالدين . هما بطلا الأساطير اللبنانية العالمية ، انعشت سيرتها الحياة العقلية زمناً في هذا الجبل الذي سرحت بصرك في آثاره ، ثم شاء ربك ان تنام على ساحله الضحوك تناجيك نجومه الساهرة وشمسه المتجردة ، فنم بأمان الله يا لامنس .

لو مات لامنس في غير لبنان لتولت الحكومة دفنه ، ولو كان راهباً . ما كان لامنس للآباء اليسوعيين ، وحدهم ، بل كان للبنان ، وللعرب أجمعين . فمن لنا بأمة تعيده تمثالاً يذكرنا بأياديه البيضاء على تاريخها المجيد . ان لامنس أحيا الأمة وآثارها فلتحتفل الأمة على الأقل بذكراه .

أين أنتم يا هواة الأدب ! ألم تعينوا بعد تلك الساعة التي نجتمع فيها لتعظيم رجل خلق العظمة من صخورنا ، والمجد مما نمر به ولا نشعر بفخامته ! ففي مفرق كل قمة من قممكم تاريخ شعب هدا كم اليه لامنس .

لست ادرس الآن ما تركه هذا الكاهن من آثار ، ولست انقد واحلل ، فأنا لم اقرأ من آثاره الا ما نشر في بيروت ، ولكن هذا يكفيني لأكتب مقرّاً بفضل رجل على أمة منشورة تحت سماء الله الواسعة . فهل يضيع فضل رجل في أمة شيمتها عرفان الجميل ؟ اللهم لا .

اننا لا ننصف الأب لامنس إذا لم نعرف عن شعورنا نحوه بأثر فخم يذكرنا بفضله علينا ، وهذا أقل ما يجب نحو هذا الراحل الجبار . فهلموا يا أصحابنا الى احياء ذكرى علامة جليل . أيموت رخيصاً من أنفق أغلى ما يملك على درس بلادنا دراسة عميقة هي ذخيرة لنا ؟ فهذا الفقيد العظيم متمشرق فاهم ، وليجز الله عنا العلماء الفهماء ، فهم سرج الأزمنة .

عرفت لامنس في وادي عين كفاع الرهيب . عرفته يوم كان نشيطاً يفر مثل الطوير ، ويتسلق جبلنا « العاصي » ليصعد إلى الكهف الأشدق ، ليكتب عن « دير القطين » ويصف « سيدة البزاز » تسريح الأبصار ج ١ ص ٩٢ .)

كنت يومذاك فتى لا أعرف عن لامنس الا انه « بادري » كما قال لي معاز الضيعة . ولامنس لم يلتفت إليّ إلا مرة ليأخذ عني اسم الدير والكنيسة كما يعرفان . وأنا ما كنت اطمع منه الا « بصليب وايقونة ومسبحة » ولكنني لم أظفر بشيء ، غير تمزق ثيابي ، فعدت إلى الضيعة ليضحك مني رفاقي ، وانعت أنا هذا البادري بالبخل . ومنذ تلك الساعة لم أرَ وجهه قط ، ولم أعرفه فيما بعد الا من صورته المطبوعة لا أذكر أين .

وجاء بعده بادري يحمل مطرقة يكسر بها الصخور فلم أذهب اليه بعد خيبتي الأولى ، وأظنه زمّوفن الجيولوجي .

فهل حمل لامنس على صعود جبالنا ودخول كهوفنا المخيفة غير خدمة العلم ؟ فلننهض اذاً جميعنا لتكريم العلم والعلماء المخلصين بشخص هذا الفقيد الغالي .

انني أوجه كلمتي إلى الذين عرفوا لامنس ، ومن منا لم يعرفه ! من منا لم يقرأ شيئاً من فصوله الرصينة ، وكتبه الثمينة التي تلقي الأشعة الثاقبة على ظلمات تاريخنا . انني اوجه كلمتي خصوصاً الى ادباء الشباب الذين سيرون معيناً أصفى من عين الديك في آثار لامنس ، فقد عبّد لنا الطرق القلقة المجاز ، فلنتذكر جميعاً هذا الغريب الذي أحب بلادنا حباً جماً ، ومات تحت سمائها . فلنجعل ذكره ممجداً .

أنا عالم ان شعار لامنس كشعار رهبانيته « المجد لله الأعظم » فالله نسأل أولاً ان يجزي من عمل لمجده ، ثم نسأل الناس ان يحملوا قسطهم من الجزاء « الفاني » تشجيعاً للاحياء واعترافاً بفضل المحسنين .

عمر في يومه الأسود

لا أظنني أمنح عمر فاخوري وساماً بعد الموت إذ اكتب عنه هذه الكلمة المغمومة . لقد تناولت عمر في ما مضى جملةً وتفاريقَ ، والعهد بآخر كلمة غير بعيد . كنت فيها مصوّراً ومقارناً وباحثاً جهد الطاقة .

لست آسف على سنوات عجاف يعيشها عمر ويمشي فيه أدبه مشية السرطان في بدنه . لقد أحسن القضاء صنعاً إذ جذب ثنيي الطوّال المرخى وأراح عمر من بقاء هو فيه .

عليل في مكانين من الاسقام والدّين

كما قال الجاحظ عن نفسه في آخر العمر .

عدت عمر أول مرة فخلتني أمام مومياء تحدثني ، فارتعت ثم تجلدت لئلا أريعه ، ولعله قد رأى ذلك في وجهي حتى قال لي : وجهك أصفر ! !

فاجبته : الدرب طويل ، والسلم عال ، وأنا ابن ستين ، فاصبر عليّ قليلاً يعد جمالي الهارب !

فابتسم ابتسامة دميمة جداً وقال : تتهكم عليك إذا لم تجد واحداً غيرك ..

فقلت : ما وجدت ترياقاً لسمّ الحياة أشفى من الهزء بها وبناسها ..



رأيت اليرقان قد خلع على عمر كل ما عنده من زعفران ، فسألته عما به ، فأجاب بعد سكوت لا أجد له نعتاً ; قلة العافية ، وعناء الحمية . الغمرة انجلت ، ولكن ..

قلت : دعنا من لكن . السلامة غنيمة يا أخي .

فأطرق ولم يجب ، واطرقت مثله ألوم نفسي . وطال السكوت فقلت له : متى تعود إلى عشك ؟

فأجاب بهزّ شفتيه ، فعلمت ان لليرقان احلافاً تشد أزره في حرب عمر . ثم مشى بيننا حديث متقطع ، موجع ، انصرفت على أثره بأمل قصير الخطى .

وبلغني ان عمر عاد من عند أمه ، فهرعت لاهنئه بالسلامة فقالت لي الخادمة : معلمي في السبيتال .

فقلت : والست ؟

فأجابت : معه . فكملت طريقي إلى المستشفى الاميركي فلم أستطع مقابلته . وتلفنت مراراً اسأل عن صحته ، فكان الجواب برداً وسلاماً .

ثم فصل بيني وبينه الصيف ، فما ضيعت اللبن فيه . وعاد عمر إلى بيته فجئته مستكشفاً ، فرأيته لا حيّاً يرجى ولا ميتاً فيسلى . وتسقطت رأيه في نفسه فوجدته عريض الأمل ، كبير الرجاء . وقعدنا حيث اعتدنا ان نجلس فلم يشك عمر الداء بل شكا سوء الحال وقلة الوفاء .

رجونا ان يكون سفيراً أحمر فاذا به يمسي شهيداً أخضر .. وتباحثنا الغد، فاذا بصاحبي متبرم ساخط . تعاون عسره ومرضه على هيكله الواهي . عاف عمله في الاذاعة انتصاراً لوطنه فذاعت القلة في كيسه ، وخسر موردين : الاذاعة وكلية الآداب ، واثقل دينه ظهره . لم يبق له غير جرايـة وظيفته الحكومية وهي لا تسد ثغرة العقاقير ، فاضطر إلى بيع أعز المقتنى ، وكانت مكتبته كبش المحرقة .

قال لي : غداً – وغداً بمعناها اللبناني الواسع – ادع كل هذا وانصرف إلى العمل حراً .

فقلت : وما نويت ان تعمل ؟

قال : أعود إلى المحاماة ، واعلّم معك إذا اقتضت الحال .

وحدقت اليه لعلي ادرك عمق يأسه ، ومدى ألمه ، فرأيت بريق زجاجتيه قد تضاءل ، وزيت قنديله قد شح فقلت له : يا قليل العقل ، تعود إلى المحاماة والتعليم بعدما خيمت في الشاطىء يا أبا منذر ؟

فانفرجت شفتاه زهاء ميليمتر ولم يجب .. فقلت له : كفاك الله شرهما يا عزيزي ، فالذي لم يسهل عليك عمله شاباً يعتاص عليك كهلاً . أما سمعت قول المثل اللبناني : بعد ما كبر وشاب حطّوه في الكتاب ؟

قال : ولم لا تقول شيخاً ؟

قلت : لكيلا اصير أنا هرماً .

فضحك ضحكة فزعتني .. ليس بينها وبين ضحكة الهيكل العظمي فرق كبير .

كان عمر قليل الكلام معافى ، فكيف به وقد هدّ حيله اليرقان ، وله كبد مقروحة ، لا يبيعه أحد بها كبداً ليست بذات قروح. كان يعاني مرضاً كالنعاس يهدّ ولا يؤلم .

وثنيت عنان الحديث صوت النوادر والفكاهة فوجدته لا ينشط لها ، فعدت إلى دار المكشوف أحدث صديقنا الشيخ فؤاد حبيش عن الخطر العتيد.



وفي خطرة ثانية سألت الشيخ الحبيشي عن حال عمر فقال لي : بخير ، كان هنا . فقلت في قلبي : إذن ما أبعد الموت عنك يا مارون ، ان صح عمر وسلم .

وذهبت اليه لاهنئه بالسلامة فوجدتني أقول . عفواً : لا تخدع نفسك ، توق ما استطعت . ما أراك كما اشتهي .

فأجاب ، ما كنت يوماً في حياتي كما تروم أنت .. أحس انني التحسن ، ولا أدري إذا كنت أبلغ المرتبة التي أجلس فيها أمام قدح من عرقك المثلث ، وخمرتك الدهرية .

فقلت : الله كريم ..

ونظرت اليه فخلتني أرى ملامح رجل من وراء برقع ، وانني أمام شبح يمثل عمر . وقرأت ان أحدهم حمل إلى عمر وسام الاستحقاق اللبناني فقلت : ولم هذه العجلة؟ خامرني ريب فيها فسألت أصحابنا فقالوا لا، ولكنني رجعت إلى نفسي وقلت : انه فأل غير مليح ..

وعدت من « فرصة الربيع » ومعي لأخي عمر شيء من تلك التي شبه بها سليمان حب الشولمية في نشيد انشاده . وما وضعت الأثقال لأفعل ، كما قال الأخطل عن قطار فلسطين ، حتى حمل إلي الأثير صوت الأستاذ رئيف خوري يؤبن صديقنا عمر . فضربت المكتب بجمع يدي وهجم الدمع الى الخدود ، ولكنه لم يتجاوزها ، كعادته في المصائب الجلّى .

ان حصة عمر محفوظة وستبقى مختومة على « السدة » ولا ترى النور إلا حين نشربها في عين كفاع مع اخوان عمر واصدقائه ، صانعين هذا لذكر كاتب عظيم مات .

سنصنع هذا الذكر . ركن من أركان هذه النهضة ، لذكر موظف عاش نظيف اليد والجيب . ما مدّ يده قط ، ولا اشتهى مقتنى غيره . عاش لا يفصل بينه وبين الناس ذاك التعنفص الذي يتنكر به بعض الأدباء والمتأدبين لأصحابهم متى وظفوا .

كان لا طائفياً ، ولكنه لم يتشدق يوماً بذم الطائفية كأصحابنا الأشد تعصباً من الكهان ، ثم يتفانون غيرة على الأوطان. كان عمر لا يصيح ولا يماحك ولا يداهن ولا يصانع ، فظل حيث هو لأنه لا يحسن المداجاة والمصانعة والمداهنة ، لأنه أبي ثابت يزدري المنافقين والزنادقة الذين يكرون مع كل خيل مغيرة .

ترك ما ترك من موارد رزق تعصبا لبلاده ، وانتصاراً لها ، ولم يشعر أحد بما صنع ، ولو فعل ذلك غيره لاقام الدنيا واقعدها .

عاف موارد رزقه وعاش مكثوراً عليه ليتضامن مع بلاده . فعل كل ذلك

صامتاً لأنه ليس من الذين يجعلون من الحبة قبة ، ومن القبة حبة .. لأنه من غير الذين يحمزون كالقبابيط في حقل المراتب ، ويدعسون على جثث اصدقائهم ليرتقوا درجة ويكسبوا ليرة ورقاً .

ان هذا الاستطراد يجرني إلى الكلام عن شخصيته . لم يكن عمر حسوداً ولا حقوداً ، كان على ما فيه من شمم واباء لا يزهى ولا يتكبر . كان محباً وإذا ابغض اعرض وازدرى ، وخرج بالصمت عن لا ونعم كصاحبه بشار .

كان فمه نظيفاً لا يتبذل حتى في المجالس الخاصة التي كنا نعطي فيها المرح حقه . فكان يقابل تلك النكات الصارخة بربع ابتسامة ، ويشارك بكلمات كان يستعد لتأديتها استعداد طالب غير واثق من ذاكرته .

ولم يكن عمر عدواً في ثياب صديق ، ولم يكن من الذين يقتلون الرجل ويمشون في جنازته شاقين الجيوب حزناً على الفقيد الغالي . أما في الأدب فكان مؤمناً ولكنه غير ممارس الطقوس المنظمة . يصلي لآلهة الفن بما يدور على لسانه .. لم يكن أديباً محترفاً بل كان أديباً هاوياً . كان كسميه الشاعر عمر ، غفر الله لهما ، موكلاً بالجمال يتبعه . كان لعمر بن أبي ربيعة ، لذة النظر ، كما زعم ، وكانت لعمر فاخوري لذة العمل الفني ، وما معشوقاته غير الكلمات اللواتي يؤلف بينهن ولا يجعلهن ضرائر .. أولع بالجديد ولم يتنكر للقديم فكان من خير من كتبوا بلسان العرب من المحدثين .

وأخيراً مات هذا النسر وعينه إلى القمة ، لم ينظر قط إلى الأوحال التي يتمرغ بها بعض زرازير الأدب .

لا أقول ان خسارة الأدب العربي لا تقدر أو لا تعوض ، فحسب الذرية ما تركه لها عمر من نماذج ، وقد لا يصنع أجمل منها لو عمر كمتوشالح ..

في ذكرى عمر

لقد اشبعت عمر درساً في حياته وبعد مماته . أما الآن فسأتحدث اليكم كما يطيب لي ان أتحدث ، ولعله يطيب لكم .

أفلا يعنينا من الأديب غير تعبيره وتفكيره ؟ فأين نحن من أخلاقه ؟ ألسنا أحوج إلى هذا منا إلى غيره من الخصال ؟ !

مساكين أهل «الفن» حتى قبورهم عليها تراب الذل دون الخلائق .

اسرجوا الخيول ، واقرعوا الطبول . أي خيول يا سادة ؟ خيول الفكر لتجلّي في ميادين الورق ، وطبول الخطب لتقرع في حفلات التكريم والذكرى ، مسكين الأديب . يعيش على الكلام ويموت على الكلام . فكل ما يُعمل للادباء عندنا هو من بضاعتهم تلك : « حكي بحكي » ، والذي مات بداء الحكي غماً نحاول ان نحييه بالحكي ، ثم نعد هذا خلوداً .

خلود ، نعم . قال جبران : يقولون لن تعرف قدرك حتى تموت . لقد اصابوا . فمن يا ترى يعرف طبيعة البذور التي تطرح في الأرض قبل ان تنبت ؟

هذي غير تلك يا جبران ، وأنا لست على رأيك في هذا القول . لا أريد ان أموت ليعرف الناس قدري . فيوم حلو جميل ، وأمسية أو عشية نتمتع بها بمثل هذا الاجتماع بكم يا سادة ، يسوى ألف خلود أدبي بعد الموت . وما هذه الآمال والأماني الا تعلة البائسين ، وجلهم من الأدباء .

١ ـ القيت هذه الكلمة في دار المكتبة الوطنية ببيروت .

هذه علكة كالتي يلهون بها الأولاد عن أكل لباب اللوز حين يستأجرونهم لتكسيره . مـــا لنا ولهذا الخلود الكاذب . أنعيش فقراء منكوبين بجيوبنا ؟ أينعم بخيرات الأرض لننعم نحن فيما بعد بحفلة تكريم ؟ أليس كل راحل عظيماً؟ أليس كل ميت عبقرياً ؟

أنا لا أقول ما قاله الحجاج : والله ما أحب ان ما مضى من الدنيا لي بعمامتي هذه . يظهر ان عمامته تلك كانت ارث واعتق من عمامة نقولا الترك التي سأل الأمير بشيراً ان يعتقها مع ذلك الشروال ..

وبعد فلنفرض أن أديباً عظيماً مات ، فمن يشعر بموت هذا الأديب غــير المصابين مثله بداء الكلام ؟ يموت رجل وارم الكيس ، منتفخ الصندوق ، فتهتز الأرض بالطول والعرض ، حكومة وشعباً . ويموت الأديب الألمعي فلا يشيعه غير جيرانه واخوانه .

وبعد هذا ، ماذا ؟ اسمعوا . علينا ان نقيم لنوابغنا آثاراً مشهودة لنحث شبابنا على اقتفاء آثارهم ، فقد كادت لحية لبنان ان تنصل . علينا ان نعزز الأديب حياً ليقتدي به النشء ويكون للوطن غيره ، والا انقطع النسل الأدبي. فهذا الأديب العظيم الذي اجتمعنا لاحياء ذكراه الليلة ، أتعرفون ماذا حل به قبل لفظ روحه ؟ لقد مات معوزاً وكفى ، ومــا يوم حليمة بسر . فلننتقل إلى أدبه .

قرأت ، بعد موته صفحة من انشائه فكدت انكرهــا لو لم يثبت لي ذلك خطه . تسمعون ، ولا شك بالعملية القيصرية . هكذا كان عمر يضع مواليده . اثنان كانا مقلين مجيدين : جبران وعمر ، وكلاهما كان صائغاً متأنقاً ، وقد عرفت ذلك أثناء اطلاعي على مخلفاتهما التي لم تبع كمخلفات الجيش .

كان عمر صريحاً لا يواري ولا يوارب ، وحسبك منه قوله : « فاذا بما يفيض من عبقرية جبران يروي بطاح المستقبل ، بينما عبقريـــة شوقي مسفوحة على هضاب الماضي . وشوقي من الشرق وجبران من الغرب ، فلا يلتقيان إلى يوم

القيامة . ويغلب على الظن ان الشرق سيظل كامرأة لوط ، في موكب الزمان ، ناظراً إلى وراء فيمسخه الله صنماً من ملح ، أي من دموع جوامد ، على حد قول اندره جيد الذي يزعم ان لوط ضاجع ابنتيه في احدى منعطفات التاريخ ، وهو ناظر إلى المستقبل .. »

أجل ، كان لعمر فصول ولكنها روائع حقاً لأنها ملك صاحبها ، وعليها ماركته المسجلة .

اما وقد انتهيت من عمر ، فلا بد من كلمة دعت اليها الحال . أما حان للأدباء ان يدعوا الشكوى ؟ فاصحاب ارميا كفنّوا البكاء ..

الأدباء من المواطنين ، ولهم على الدولة ما يطالب بـه كل مواطن منكوب بزلزال ، ولهم اسوة بمن ذهبت الثلوج والعواصف بموزه وليمونه ..

الأدباء دعاة الأمة ولهم على الدولة ما له عليها كل رجل من رجالها . فاناشد الله مَن يعنيهم الأمر ان لا يتركوا الأديب حتى يموت ليتبرعوا بتجهيزه ..

ان يوماً هانئاً على وجه الأرض لخير من كل ما يعمل له وهو في بطنها . إذا ذهبت النفس فلا أسف على الجيفة .

وأنتم أيها المحتفون ، بذكرى عمر ، هلموا بنا نعمل أثراً يحيي ذكرى عمر في غير هذه القاعة أيضاً . اخرجوا « الأديب إلى السوق » فينعم بمشاهدة أبطاله . لقد كثرت ضيوف المكتبة الوطنية ، واني لأخاف ان تضيق صدورهم يوماً فتملو صيحتهم ، ويتكلم كل منهم على هواه ، فما يفهـم الحداث الا التراجم . فهيوا بنا نخرج الخالدين إلى الهواء الطلق .

رحمَ الله من سمع ووعى ، والسلام عليكم .

المونسينيور فغالي

في مدرسة أكثر من متواضعة ، نشأ المونسينيور مخايل الفغالي حيث نشأ قبله ، أخوه المطران بطرس . تلك المدرسة الصغيرة الجاثمة على كتف جسر المدفون ، في مزرعة اسمها كفرشخي ، كانت ملعب صبانا . كان نخلة يوسف – أي المونسيليور فغالي – اكبر مني قليلاً ، فكنا صديقين صغيرين ، وعشنا كذلك كبيرين ، والرأي مختلف . .

لا تبارح مخيلتي صورة صدريته الديما – من حياكة فغال – ذات صفين من الأزرار الزجاجية الرخيصة . ولست أنسى شراويلنا البيض المصنوعة من المقصور ، وكانت بذلة الأحد والعيد غنبازاً من الجوخ الرصاصي شتاء ، ومن الحرير الحاك في بيت شباب أو السقي كروزا صيفاً . أما اللباس الفرنجي فلم يكن له أثر .

كان يرعانا ويعلمنا كاهن جليل اسمه الخوري مارون شكور ، وهو ابن كفر عبيدا ، ضيعة نخلة يوسف . كان معلمنا ، رحمه الله ، عارفاً باصول العربية معرفة دقيقة ، وبارعاً في « الليشيات » أي لماذا رفعوا اسم كان ، ونصبوا اسم ان ، مثلاً . فكان يحملنا من تلك الأثقال ما استطاع لا ما نستطيع .

وكان نخلة يوسف في الصف الأعلى ، فكنت استفتيه فيما يشكل عليّ من مسائل ، وما يفوتني من « درر » الليشيات . وكان صديقي كريم الأخلاق لا يستثقل ان يجيب على اسئلة طالب في الثالثة عشرة . لم أكن في ذلك العهد أحسن درس الأخلاق ومع ذلك كنت اعجب بهدوء نخلة يوسف ورزانته ،

واحاول ان اترصن مثله ولا اقدر .

كانت ابتسامته حائرة ولكنها صافية خالية من كل معنى الا معنى المحبة . وكان قدوتنا في اجتهاده ، فـــلا يخلو من كتاب ، ان لم يكن في يـده ، فهو تحت ابطه أو في جيبه .

ومات في تلك السنة – ١٨٩٩ – البطرك يوحنا الحاج فهب شعراء المدرسة يرثونه ويتفجعون عليه ، خائفين على الطائفة بعده .. وانتخب المطران الياس الحويك بطركاً ، وكان هوى رئيس المدرسة – الخوري بطرس بو صعب – مع المطران ابي نجم فغمرت المدرسة موجة يأس وخسرنا (الفادوس) ثم كان الرضى والتسليم فاقترح معلمنا وراعينا ، على الشعراء من كبار التلامذة ، ان يهنئوا صاحب الغبطة الجديد ، فقال الكثيرون منهم شعراً . قال معلمي الأول طنوس حنا الياس من عين كفاع :

قد سدت يا بدر السعادة والهدى وبدا ضياك لكل مغوٍ فاهتدى

وقال الخوري مارون شكور ، مدرس البيان في مدرسة مار ساسين فغال :

أحن الى النظم الرقيق توددا وقلبي بحب الغيد لن يتقيـــدا

وقال نخلة يوسف كفر عبيدا :

الا أيها النشوان من خمرة الذعر افق لا تخف أُمّنت من نوبِ الدهر[1]

هذا هو المونسينيور فغالي في مار ساسين فغال . وافترقنا سنة ، ثم اجتمعنا في مدرسة مار يوحنا مارون الاكايريكية . وهناك في الغابـــة التي تلف دير كفرحي التاريخي جددت مع صديقي نخلة يوسف ذكرى سنديانات مدرسة مار ساسين فغال . كنت كبرت قليـــلا وأصبحت أقدر على ادراك معاني الحيـــاة فصارت عشرتي ألذ . كانت لنا حركات تستفز الأساتذة وتضحك التلامذة ، فكان المرحوم نخلة يفوز من حركاتي بالغنم وافوز أنا بالغرم .

---

١ – لمحة الحق ص ٢١٠ .

لم أكن أبالي بما عند جبابرة الأساتذة من بطش في سبيل توطيد عرشهم .. خاطروني مرة في مدرسة مار ساسين على التدخين في قاعة الدرس فدخنت . وكان الجالس سعيداً على عرش « المناظرة » حنا الخوري حاقل - الخوري مخايل الخوري ، كاهن رعية مار مارون ، في بيروت سابقاً - فانزلوا بي عقاباً شديداً. أُطعمت الخبز اليابس راكعاً في المائدة ، مدة اسبوعين فقط ، ومع ذلك لم أتب فتركت في مار يوحنا مارون قصصاً خالدة ..

وأخيراً صح الصحيح ولبى صديقي نخلة دعوة نعمة روح القدس التي لم تحل عليّ .. فبعثوه إلى فرنسا حيث اتمّ دروسه الاكليريكية . وهكذا حدتُ عن ذلك الدرب وافترقنا . ثم اجتمعت به بعد الكهنوت أكثر من مرة ، وتبادلنا « النظريات » في حياتنا ، وكان آخر اجتماع في مكتبي بعاليه . جلسنا ساعات نتذاكر الماضي ونستعرض شريط حياتنا الماضية ، فعشنا بها هنيهة .

كان صديقي غير مغرور ، فرأيته بحلاه الذهبية من سلسلة وصليب وخاتم ، وأزرار حمراء ، أكثر منه تواضعاً في صدرية الديمـــا ، وشروال المقصور . لم يتغير فيه شيء غير علمه العميق ، وثقافته الواسعة . قد زودتُ طلاباً كثيرين أمّوا فرنسا ببطاقات توصية فكان يحسن استقبالهم في باريس ، ويمد لهم يـــد المعونة غير مدخر شيئاً من وسعه ، فيمهد العقبات التي تقف في وجوههم . كان يقابل كل لبناني وسوري ، على اختلاف الملل والنحل ، ببشاشة وعناية ، فكان كما قال مار بولس : صرت للكل حتى أربح الكل .

لندع الآن نخلة يوسف ولنقل كلمتنا في المونسينيور فغالي . كان هذا الكاهن الفاضل نموذج البساطة اللبنانية في حركاته وسكناته ، وفي أساليب حياته . لم ينصل لونه اللبناني في الغرب ، فرغماً عن تزيه بالسمت الأوروبي كنت ترى سيماء كهنة لبنان في القرن التاسع عشر بادية على وجهه النقي وهو أحـــد الذين شرّفوا لبنـــان في الغرب ، وبنوا مدماكاً بارزاً في صرحنا العلمي العالمي . فالمونسينيور فغالي ظل لبنانياً حتى في لهجته وحديثه . رأى منه الغرب لوناً

لبنانياً لم يعرفه من قبل . عرّفهم بلغتنا اللبنانية العامية الفصيحة ، المنفوخـــة فيها الروح اللبنانية ، وحسبك كتابه المعنون لهجة كفر عبيدا .

كان رحمه الله عالماً بالآداب المشرقية والمغربية ، عارفاً لها كل المعرفة . علّم لغة العرب وآدابها في كلية الآداب ببوردو ، وفي مدرسة باريز الوطنية للغات الشرقية الحية ، فأحيا ذكر نوابغنا الذين كانوا أساتذة لغة الضاد ينشرونهـا في أربعة أقطار المسكونة .

قد أريتك في مطلع كلمتي انه قال الشعر عربياً ، لتعلم انه رجل خدم وطنه ولغته . فاذا ذكر القروم منا كالسمعاني والتولاوي والحاقلاني وغانم وغيرهم حق لنا ان نضيف الخوري مخايل إلى ذلك الفهرست الطويل . وإلى عمـــله في حقل العلم ، يمكننا ان نضيف عمله الخصيب في القضية اللبنانية ، فقد عهد اليه بامور جسام فحل معضلاتها .

قلت له في عاليه : اعرفك يا خوري مخايل رجل علم وأخـــلاق وفضيلة ، فأريتنا انك تصلح أيضاً للسياسة . فأجاب بالتفاتة إلى فوق ، وكثيراً ما كان يعبر بهذه الالتفاتة البليغة ، ويستغني عن الكلام الفارغ .

لست اعدد ما كتبه المونسينيور فغالي من تآليف فهذا لا يعنيني الآن . فالذي يهمني ان اتحدث عنه هو ما قلته . واني اختمه بقولي : كان صديقي ، رحمه الله ، على علمه الواسع ، كما قال الانجيـــل عن يوحنا : قصبة مرضوضة ، لا يصيح ولا يماحك ولا يطفي سراجاً مشملاً ..

فؤاد سليمان الأديب والشاعر

فؤاد سليمان في نظري ، وحدة شعرية لا تتجزأ . هو شاعر في كل ما خطه قلمه من منظوم ومنثور . قد يكون شعره كشعر غيره ، أما نثره فذو طابع خاص ، وكتابه « درب القمر » ديوان شعر له مقوماته وخواصه التي لا تجدها عند غيره . وربما كان هذا الكتاب ، على صغره ، خير ما انتجه شبابنا في الفترة التي عاش فيها فؤاد سليمان . كأني بهذا الأديب الشاعر نظام مستقل في كون الأدب . له شمسه ، وكواكبه ، ونجومه ، وكل في فلك يسبحون . فحيثما تصادفه تنبئك عنه خصلتان : عاطفة من نار آكلة ، وكلمة من حديد محمى .

هو شاعر الألم وكاتبه ، فكل ما نراه على موائد الآلام يتجسد في جمل كتبها قلمه الناري . ما رأيته مرة إلا تخيلت الزئبق الرجراج . لا يستقر على حال من القلق ، هو دائماً متحفز للقفز ، فكأن في داخله لولباً يدور افقياً . نصف ابتسامة ، بل ابتسامة كالجهشة ، وضحكة لا تفتح لك باباً للانطلاق. ما نسيت يوم عرفته في دار المكشوف فقلت له : كيف يكون سوط النار الذي يسوق أبو شبكة به الشعراء كما قلت ؟

فاطرق اطراقة من يتهيأ للوثوب ثم قال : مثل السوط الذي تستعمله أنت في نقدك لهم .

ما أسرع ما أمسى فؤاد سليمان ، واأسفاه . كلمات نرددها ، وأكبر هم الأديب هو ان يستحيل في الغد كلمات تجد لها رواة ومرددين . أجل هذا هو ملكوت الأدب الذي يموت العباقرة على رجائه ويعدون به أنفسهم . كان

فؤاد من المؤمنين بألوهة الحرف ، وكان يقول الصحيح ولو حرقت الكلمة فمه ، كما يقول المثل اللبناني . والكلمة دعامة الحياة وركيزة صرح الانسانية، بل هي قوة غير منظورة تلقنها الحياة من يستطيعون تأدية رسالة الحق .

ان تلك الكتلة البشرية التي كان اسمها فؤاد سليمان قد كانت ثورة قائمة برأسها . كانت عاصفة تخبىء تحت جناحيها ابتسامة البرق وقهقهة الرعد . فهو وصاحبه أبو شبكة توأمان ، وان ابتعدا نسباً يجمع بينهما الشكل والمزاج والعاطفة . كلاهما غنيّاً قلبيهما أولا ، وهذه المنعطفات والقمم ثانياً . كلاهما ربيبا القرية اللبنانية ، فكان لها من شعرهما ونثرهما نصيب . انفتحت اذنا فؤاد سليمان على رنين الجرس المتأرجح في القبة ، وكان ملعب صباه تلك البيادر المنبسطة حد بيته في فيع ، تلك البلدة الجاثمة على صلعة الجبل . لعب الشاعر ومرح في تلك المطارح الحلوة فانطبعت صورها في نفسه لتستحيل فيما بعد شعراً طلياً ، كما تستحيل قبلات النحلة لثغور الزهر شهداً .

لفؤاد سليمان ثلاثة آثار : ديوان شعر ، ودرب القمر ، وما كتبه بتوقيع تموز . وهذه الآثار ، وان اختلفت موضوعاً ، هي واحدة من حيث الروح والمحبة والبغض . لقد بكر فؤاد في الحنين إلى أيام الطفولة ، ومراتع الصبا ، فكأنه كان شاعراً بقرب وفود ذلك الضيف الثقيل عليه .

كان هذا الأديب مناضلاً في درب القمر وفي تموزياته . كان يغضبه كل شذوذ حتى شذوذه هو ، فيحتدم غيظه وتخرج الكلمة من تحت قلمه كأنها حديدة خارجة من الكير تقطر دماً وتشع نوراً وناراً . فاذا تصفحنا ديوانه رأيناه يبكر في التوبة . ففي عام واحد ، عام ١٩٣٤ ، نشر أولى قصائده «الى أين» وختمها بهذا البيت :

يصفق الوادي لأعراسنا   إذ يسمع الوادي صدى القبلتين

وفي العام نفسه نظم « مزمور الخلاص » الذي يقول فيه :

اتوب عن الماضي المجمّر باللظى   واغسل ادراني بقارورة العطر

فكأنه ما شب حتى شاب ، ولكنه رغم توبته في شعره ظل حاد الشهوات فتخيل الزنبق ، وهو رمز الطهر عند البشر ، كأنه يحس ما نحس من شهوات لحمية ، فقال في ابتسامة الزنابق البريئة :

ما للزنابق فوق النبع خالعة   عذارهـا وشباب النبع يغويها

أظنها صورة لم تمر في خاطر شاعر ، وما أكثر مواليد قرائح الشعراء .

أما ألفاظ فؤاد وصوره الشعرية فأرى الكثير منها منتزعـاً من محيطه ، وهذا أثر المربى فينا ، فاسمع كيف يخاطب واحدة في قصيدة «عابرة طريق» :

لست من عجنتي ولا من خميري   فاتركيني اسر وحيداً وسيري

أما الموت ، أبعده الله ، فكنت أراه في شعره أنى اتجهت في ديوانه ، كقوله :

إذا تلقين في عينيّ همّا   وفي وجهي اصفرارات المغيب

وكما يقول في قصيدة عنوانها « مقبرة » .

أنا وجـه القبر تلقين على   جبهتي الصفراء أشباح المنـايا
غلغلت في كل ضلع غصة   وجنازات تهادت في الحنـايا

أرأيت هذا الشعر الزوالي ؟ حقاً ان خاطر الإنسان دليله .

وبعد فلنطو صفحة الفناء لنرى بعض نماذج من ألوان الحب الجارف . ففي قصيدة « الهوى المكتوم » يخاطب حبيبة بشأن ثغر لها خاف ان تجعله وقف ذرية ، فقال لها :

خليه لي وحدي على طهره ،   انا اللظى ، والناس ماء وطين

وفي قصيدة « عذراء » يقول :

ان في صوتك الحنون جراحاً   ألف آه تموج فيـه وآه
أنا أهوى على شفاهك شيئاً   غلّ في فتحة الشفاه وتاه

أنظرت إلى ألفاظه ؟ فلفظة غل ، وفتحة ، وعجيني ، وخميري قرويـة

لبنانية مئة بالمئة ، ومـــا أكثر الفصيح في لهجتنا، فليته لم يستعمل الا الفصيح الخالص .

ليس شعر فؤاد سليمان ألفاظاً منمقة مرصوفة ، ولكنه كلام يحيا بما في قلب قائـله من حرارة تحييه . ليس هو من أصحاب الرموز وان قـــال في قصيدة « العرس الأسود » :

يا حلمي الأشقر يا رفــة   طافت بقلب أخرس معتم

وإذا ما تصفحنا درب القمر رأينا ان نثره فيــه كديوانه شاعرية . ولذلك عددته ديوان شعر ، فاذا واجهت « مرايا لم تعد تضيء » اقشعر بدنك لتلك التعابير التي تصف البيت في غياب ربه . لقد أظلم كل شيء في عيني الابن البر ثم ما لبث ذلك الظلام ان انقشع حين عاد الولد إلى عشه وملأت الخيرات البيت .

أما مقال « طفولتي» فأقول ، ولا احسب أني أغالي ، انه أروع مقال قرأته في هذا الموضوع . فهذا التجريد الذي وفق اليه فؤاد جعل الطفولة كائناً حيـاً وكأنه من لحم ودم .

قلت ان فؤاد سليمان ابن برّ بوالديه ، وهل يعبر كما عبر إلا من كانت له محبته؟ اسمع ما يقول في وصف وجه أمه : « أمي .. من ألوان عود الصليب وجــه أمي . وكأن الذي حاكه مرة ، حاكه وقطع يده لئلا يحوك مثله » .

وفي « مطارف من ارجوان » منتهى حرية الفكر ، وقد استعمال فيها فؤاد الأديب ، عالماً نفسياً حين حلل نفسية الشاعر وحاجاتها .

أما مقال « درب القمر » فنشيد أناشيد شوليته القرية اللبنانية. وفي « مرايا لم تعد تضيء » نفحة طاغورية .

اقرأ تصويره فيها للبيت والأم المهجورين . هناك تجد صورة البيت اللبناني العتيق تامة الخطوط، فكأنك ترى بعينيك ما يحدثك عنه هذا الأديب الشاعر.

واقرأ « حبة رمل » وقابل بين ما قاله في النبي محمد ، الرسول الأعظم »

وبين ما كتبه غوت شاعر المانيا المعظم ، لترى ان الموت يقطع الأوتار ولا يرحم. انها « حبة رمل » ولكنها جبل من شعر .

وفي مقال « في موكب التائهين » نسمع شاعراً بوهيمياً يقول : « أنا هنا في مكورة معربدة محمومة طائشة ، حيوان يمشي مع حيوانات ، بهيمة تعيش مع بهائم ، ملعون من ملاعين الدنيا . اجر جناحي المنتف ورائي على الدروب وفي الشوارع . أنا هنا لم أطلق بعد .. متى اتمكن يا صديقي من ان انفلت من قيود المرأة والتراب، وأوهام اللحم والدم، ومقاييس الزمن، فأصبح انساناً كاملاً ؟»

اقد اخطأت يا فؤاد، فلو صار كما تمنيت لكنت لا شيء. فلولا اللحم والدم، وما على عاس المائدة من مغريات ومقبلات ، ما كان لنا فؤاد سليمان .

وبكلمة عابرة أقول : ان درب القمر انشودة لبنانية اصيلة ، كتب الله لها الخلود . وشاعرها يحلي حين يصوب قلمه نحو الينابيع والكروم وكل مـا يمت إلى القرية بصلة .

اما ما كتبه هذا الأديب بتوقيع تموز فقد تصفحته من أوله إلى آخره، حتى وصلت إلى أوراق بيضاء لم يمهل الموت تموز ليسودّها ويبيّض وجه الأدب . لا أدري لماذا عرتني رعشة عندما وقعت عيني على تلك الوريقات البيضاء. أحسست ان دمعة رقصت بين اهدابي مع ان دمعي في الحوادث غال .

أجل ، لم يبق لنا من فؤاد سليمان غير هـذه الجزازات من تلك الصحيفة وهاتيك المجلة ، ولكنها جزازات تتضمن روحاً كانت تتردد في لحم فؤاد ودمه ، فأبقت للذرية هذا التراث الحي .

ففي « التموزيات » يثور فؤاد على كل اعوجاج وقـع تحت عينيه . يثور للانسانية المعذبة كما في الكلمة التي عنوانها « انسان مدوّد » . وهو في كل مـا كتب في الواقع ما تخلى عن بيانه ولا تجرد من خياله . يخاطب الناس من عل مهما علوا ، ويقذفهم بكلام كأنه القنابل ، ويزدريهم ولا يبالي . وقـد يتفق له تهكم مر يأتيه عفواً ، فيبدو جميلاً كقوله :

« صرنا نخشى على البيت اللبناني ان ينهـــار ، فالمرأة مشغولة بقضيتها ، أعطوها حقها وخلصونا . جربوها ، فقد تصلح ما أفسدناه نحن » .

وما أبلغ كلمته ، بل ما اصدق قائلها حين تحـــدث عن لص سرق الشاعر ميشال طراد صاحب جلنار . قال : « ما كنا نعلم ان الشاعر الجميل الذي لم يبق شاعر في لبنان الا وسرق منه لفظاً وطيباً ولوناً » .

انها كلمة لها ما بعدها ، ذكرتها قصداً ، وموعدنا في التفصيل حين ندرس الشعر العامي اللبناني .

وأخيراً هذه صورة الشاعر والأديب الذي كانت النار تندلع من عينيه ، والكهرباء ترعد أعصابه . هذه صورة ذاك الذي كنا ندعوه فؤاد سليمان يوم كان بيننا ، أما اليوم فلا أجد له لقباً لأن الأسماء والألقاب مبتذلة كلها . فعلى بنات الشعر اللبنانيات ان يجددن عهد النواح على « تموز » ..

خمسة في عام واحد

الحداد ، المطران ، المازني ، محمود طه ، البعيني

لم يفجع الأدب العربي في تاريخه المديد كما فجع ، في عـام واحد ، بجمهرة خيرة من ادبائه وشعرائه وكتابه. فبعد موت جرير والفرزدق ثم شوقي وحافظ في عام واحد ، لم يصب الأدب العربي بما اصيب به هذا العام — ١٩٥٠ — قد توارت خمسة وجوه من دنيا الأدب : خليل مطران ، عبد القادر المازني ، علي محمود طه ، يوسف البعيني ، والخوري يوسف الحداد . عمل كل من هؤلاء الخمسة جهده بل فوق مجهوده ، فازدادت اللغة العربية ثروة ضمت إلى تراثها القديم .

الخوري يوسف الحداد

مشى الخوري يوسف الحداد في طليعة موكب الأبد ، كما عاش أربعة وثمانين عاماً معلماً ومربياً . لم يسأم الحياة كزهير ، فظل يكتب وينظم رغم ما كفّ الدهر من بصره . ترك مئات من رجال هذا الزمان الذين علمّهم وهذّبهم ، وترك مسرحيات منها المترجم ومنها الموضوع، وكتب قصة طويلة — المروءة — وحبّر مقالات رائعة في كتابيه : اللبنانية ، والنجوى .

كان هذا الكاهن وقفاً على أمرين : ثوبه وعلمه . كان ثوبه يزجيه دائماً نحو الكمال ، وكان علمه يحثه دائماً على بلوغ المدى الأبعد ، والعلم من توابع وزوابع الاكليريكي الحق . لا يعني هذا ان الخور أسقف يوسف الحداد تبتّل فعاف كل

مسؤولية عملية ، فكان كراهب امرىء القيس لا شغل له إلا امــالة السليط بالذبال المفتل . كان الرجل معلماً وأباً ومربياً . حملته الأقدار عبء وصاية بني أخيه ، فربّى وعلّم كما يفعل الأب المستطيع . فهــذا الكاتب الذي قرأ كتاب النجوى يحث على الادخار كان عدو كيسه . وعظ الآخرين ومـا اتعظ هو . لم يجعل مخزنه عبّه بل جعله في العقول والقلوب . كان في القول معـلم اقتصاد من الطراز الأول ، أما في العمل فاتكل على قول معلمه .. لا تهتموا بما للغد ... وكان ربه عند ظنه فمات مكتفياً كما عاش عزيزاً .

لا يعرف الخوري يوسف الحداد الأب الا أقرب الناس اليه . ضحى بكل ما يملك ولم يترك خلفه غير فضله وتلاميذه . كان مربياً حقاً ، كان للمعارف والتربية يوم لم تكن لها وزارة في لبنان .

قالوا عن الأخطل ضيّق عليه دينه ، وابن عمي هذا ضيّق عليه ثوبه في دنياه وأدبه ، فعسى ان يوسّع عليه في آخرته . وعلى ذكر الآخــرة أقول : كنت أجده ، لما بلغ الثمانين ، خائفاً من الرحلة العتيدة ، على قلة الزاد لها ، كما كان يقول تواضعـاً . قلت له مرة : شد حيلك يا بيه .. أنت قادم على كريم ، ولسانك طيّب ، وقلبك نقي . والله لا يحب غير هذين .

كثيراً ما كنا نتفلسف ضاحكين لنخفي الذعر ، وكنت اشجعه كلما التقينا حتى قلت له مرة : تتذكر هذا البيت ؟

كلما قلت متى ميعــادنا ضحكت هند وقالت : بعد غد

فأجاب : وكيف ! أتظنني خرفت ؟ هذا لعُمَر .

فقلت له : هذا لسان حال الدنيا معك . لا تخف .

فضحك ضحكته المعهودة . وكنا كلما التقينا بعد ذلك ، يقول لي : كيف حال هند من صوبك ؟

واجيبه : ما زالت تضحك وتقول بعد غد .

وتطيب نفسه ويقول : سبحان مقسم الأرزاق ! الذي لم يوافق عمر وافقنا نحن .

خليل مطران

هذا هو الكاهن الأديب الذي سبق القافلة الجيدة إلى واحة الموت وتلاه في هذا المضار ، غير المرغوب فيه ، الشاعر المظم خليل مطران الذي أعدّه كا عدّ القدماء بشار بن برد ، جسراً يصل القديم بالحديث . فمطران مجدد في تصوره وتفكيره وخطته الشعرية . تلك مخيلته الصور الرائعة الطريفة التي قلما خلت منها قصيدة من روائعه المشهورة . انه أحد اقانيم الثالوث الشعري في القرن العشرين . كان هؤلاء الثلاثة شوقي وحافظ ومطران يتبارون عند كل حدث خطير يحدث في الشرق، وان توسعنا قلنا عند كل نكبة عالمية، فكان حافظ يأتي ثالثاً، الا في عهد شبابه ،فقد جلّى مرات . اما مطران فاستطيع ان اعدّه مجلياً – عند الحاجة – في شبابه وكهولته ، وقد سكت في شيخوخته ، بينما ظل أخوه شوقي يرسل الصرخة أثر الصرخة حتى قضى ، وقضي له بالزعامة ولم ينازعه فيها منازع .

ولمطران أيد بيضاء ليس على الشعر وتجديده بل على النثر أيضاً ، وخصوصاً المترجم منه . فقد عمل الرجل كثيراً ، وأفاد كثيراً ، وصلى خلفه في هيكل الشعر خلق كثير . فهو ، حقاً ، فجر مدرسة جديدة . انه الشاعر الابداعي كا عده الدكتور اسمعيل ادهم . ولئن قصر عن شوقي في التعبير فقد فاته في التصوير والتفكير .

عبد القادر المازني

ثم كانت الخسارة الجلّى بالمازني الأديب الكبير المحبوب ، البعيد عن العنجهية والادعاء . كان هذا الأديب الظريف يعمل ساكتاً ، ويكتب صامتاً .

حاول في فجر شبابه ان يكون شاعراً فيا اعجبه شعره ، فانصرف أولاً إلى

دراسات في الشعراء القدماء ، فكان أول من اهتدى إلى ابن الرومي ، فكتب عنه فصولاً رائعة شائقة دلت على ذوق فني رفيع ، ثم تناول بشاراً فكان الأسبق إلى دراسة هذين الشاعرين دراسة اصولية .

وأخيراً اهتدى المازني إلى نفسه ، وعثر حين طوّف في دنيا الثقافــة على أسلوبه الذي عرف به فكان اسلوبا خاصاً نقرأه مسرورين مغتبطين . فلمـا مر اسبوع لم يكتب فيه المازني فصولا مختلفة ، ولكن بدون ضجة وقعقعة . فهو بمقدار كاتب نضال ، لأنه كتب ليعيش ، فكان يجلي في الميدان ولا يترك خلفه غباراً يؤذي العيون ، ولا صهيلاً وصليلاً يصم الآذان ، بل كانت طمناته صامتة ، لا أجد أصدق وصفاً لها من قول عنترة :

برحيبة الفرغين يهدي جرسها بالليل معتس الذئاب الضرم

مسكين المازني ، إذا صدق الخبر الذي قرأت ، وان اولاده في حاجة ، بعد ان ألقي كاسبهم في قعر مظلمة كما قال الحطيئة مسترحمــاً عمر بن الخطاب .. ولكن أين ظلمة البئر من ظلمة القبر ! ! ان هذا حيف ، فعلى الأمم ان تراعي ادباءها كما تراعي جنودها الذين يموتون في ساحة الجهاد .. أليس هــذا جهاداً ؟ أليس حامل القلم أخا حامل السيف في ساحة النضال عن الأمم ؟

اذكر انني قرأت بعد موت ولي الدين ، ان ابنه كان يلمّ أعقاب السكاير في شوارع العاصمة وسككها وليس من يأبه له ويذكر فضل أبيه . رحم الله عبد القادر المازني وجبّر خاطر الأمة المكسورة واعاضها مازنياً آخـــر . ولعل مازنينا لو بعث ساعة لقال لنا : لو كنتُ من مازن .

حلمي محمود ~~علي~~ طه :

أما الفقيد الرابع ، وهو المهندس حلمي محمود ~~علي~~ طه ، فشاعر مجدد ينحو نحو شعراء الوقت في لبنان ، وله قصائد غراء . يحق لنا ان نقول في هذا الشاعر ما قيل في أبي تمام : انه مات ولم يستمتع بخاطره .

كان له شعر رائق طريف يطبع على غرار الشعر الحديث ، وان لم تنقطع

الصلة كل الانقطاع بينه وبين القديم ، وان نهج شعراء الفرنجـة في أساليب الكلام . لقد انطفأ خبر هذا الشاعر كأنه لم ينظم دواوينه « الملاح التائـه » و « أشباح وأرواح » و « ليالي الملاح » فما أرخص موت الأدباء والشعراء .

يوسف البعيني

أما الخامس فهو الأديب يوسف البعيني أحـد أعضاء العصبة الاندلسية في البرازيل . شاء هذا الكاتب الأديب أخيراً ان يكون ناقد العصبة فكتب في النقد فصولاً ، ولكن الموت عجّل عليه قبل ان نستطيع الحكم على ما كان يرجى منه من خير أدبي ، بيد ان ناقد العصبة كفـّى ووفـّى على قلة ما كتب .

انني انظر إلى الغد نظرة خشية ، فعسى ان يحل ادباء الشباب محل هؤلاء الجهابذة الذين تواروا في عام واحد ، والحبل على الجرار . أرجو ان يقدر الشباب المسؤوليـة الملقاة على عاتقهم ، فهم خلفاء هؤلاء الأدباء الذين ذهبوا ، فليعدوا العدة .

على الجيل الطالع ان يتعمق في دراسة الاصول ، وان يتبحر في متون اللغة وهوامشها ، وان يعبّ من ينابيع الثقافة الحديثة ، وإذا لم يجد دلواً فليعبّ بيديه من نهر العلوم والآداب العالية ، والا فانني أخشى ان يصـح فينا قول الحجاج في احدى خطبه : ما لي أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكم لا يتعلمون ؟ ان العلم أوشك ان يُرفع ، ورفعه ذهاب العلماء .. أمـا أنا فلا أزعم زعم الحجاج المتشائم ، بل التجلد وأقول مع السموأل :

وما قل من كانت بقاياه مثلنا   شباب تسامى للعلى وكهول

ابراهيم عبد القادر المازني

المازني كاتب متفرد ، هام حيناً في اودية الشعر ، ثم اهتدى إلى شخصيته فعرف ذاته . ادرك انــــه لن يصير شاعراً محلقاً فمال عن القول المنظـوم إلى الكلام المنثور فخلد بنثره في دنيا الأدب . انفصل المازني عن اقرانه — حسين والعقاد والرافعي والزيات وهيكل — باسلوبه الشخصي المستملح ، فكان نسيج وحده كما عبر أسلافنا القدماء . تعرفه حين تقرأ مقالاً له ، وان كان غـــير ممهور ، وتلك سمة الكاتب الفذ .

ليست معرفتي به على قدر اعجابي بما تفرد به من حلو الكلام ومره ، فأنا لم أره غير مرة في الحياة . التقينا عند المصور الشهير أسعد دقوني ، وكان مرافقه الخاص يوم جاء لبنان الصحافي العصامي المرحوم جبران التويني ، فتعارفنا على يده ، وكان تسليمنا وداعاً كما قال الشاعر .

رأيت فيه يومئذ رجـــلا أعرج قليل الظل ، ذا عينين كأنهما محاجر مسك ركبت فوق زئبق . ثم كنت اقرأه بامعان واستقري أخلاقه من خـلال مـــا يكتب ، فاذا بي أراه جباراً ولا ذا عنجهية وان كان ذا عاهـــة . فهو ، في نظري ، ان صدقت تلك اللحظة العابرة ، حمل كتاب عصره الوديع ، لا يتنفش ولا يتفرعن . لم يغرق في السياسة لأذنيه ، لم يكن اهوج الحزبية ، فظل حيث هو . لم يته في مجاهل السياسة ، فعاش أديبا ومات أديبا .

كان (أمن) عبد القادر ، كما كان يسميه ذاك الناظر الأخنّ ، مثال الأديب العربي المثقف ، وان زعم لنا انه لم يعرف من النحو غير اسمه . لم يقطع المازني

الصرة بينه وبين القديم ، ولم يتنكر للجديد ، فجاءت عبارتـــه حلوة ذات ألوان طريفة حديثة ، ليست بالقديمة الغريبة ولا هي بالجديدة المبتذلة . تلمح شخصيته في خلال سطوره ، حتى في المواضيع الجافة التي لا تجد فيها الشخصية منفذاً تبرز منه .

لم يرفض المازني الألفاظ العامية الفصيحة ، ثم استكفى بروحـه الفنية عن الالتجاء إلى الفصاحة والبلاغة ؟ فكان له من ظرفه وخفة روحه أكبر عون على نفخ الحياة في كتابته التي تستحلى وتستملح . ناهيك بأنه الكاتب اللبق الذي لا يتعالى ولا يطرق المواضيع التي تظهره بمظهر العلمـــاء الكبار ، بـل يعالج ، وخصوصاً حين شيّخ ، المواضيع المتصلة بالحياة اليومية . قلما عناه ان يناقش فيلسوفاً كبيراً عالمياً ليريك انه من اقرانه أو أعظم منه ، كما يهـــم من يخطىء بالأقلام الحسابية الأربعة ان يناقش انشتين ، وقد يخطئه ولا يستحي. ان المازني يفعل غير ذلك فاسمع كيف يحدثنا عن نفسه في مقال عنوانه : « في الكتب » :

« وتمنيت وأنا أدير عيني في كتبي على رفوفها ، لو ان هؤلاء الألمان الذين يتفلسفون علينا بما لا نفهم ، بينوا لنا ، أو لي أنا على الأقل ، ماذا يريدون ان يقولوا . عجيب أمرهم والله ! قرأت مرة لأحدهم ، وأظنه « هجل » كتاباً في فلسفة التاريخ فخرجت منه كما دخلت ، وقلت لنفسي : أما اني حمار ، وامـا ان هذا الرجل لا يحسن العبارة عما في رأسه ، ولكنني أفهم عن غـــيره فلماذا اراني لا أفهم عنه !

ودارت الأيام ووقع في يدي كتاب لرجل أمريكي اسمه دريبر ، يكتب كما يكتب خلق الله ، لا الألمان ، فاذا فيه فصل طويـــل عن العرب يعد تطبيقاً لنظرية هجل التي لم أفهمها . فسألت نفسي : لماذا لم يكتب « هجل » كما يكتب هذا الرجل ؟ ثم عدت أسألها واتعجب : لماذا فهم « دريبر » عن « هجل » ولم أفهم أنا عنه ؟

وأسأت الظن بنفسي ، واعتقدت ان بي نقصاً في التدريب العقلي. وراجعت

هجل وكررت إلى هؤلاء الألمان المموصين كرة المصمم المستميت ، ولكن مضغ الجلاميد اعياني ، فنفضت يدي منهم ، ومن نفسي يائساً ، وقلت : يا هذا ، لقد صدق القائل : كل ميسر لما خلق له ، وأنت لم تخلق لتقرأ فلاسفة الألمان ، فارجع عنهم وانج بنفسك منهم . »

ألا ترى معي ان استاذاً غير المازني لا يعترف هذا الاعتراف ، بل يعد ألف هجل حماراً . .

والمازني قرض الشعر أولاً ، كما سبق القول ، ولكنه لم يصر على النظم مغالطاً نفسه ، بل أدرك ما في شعره من سماجة ، فعدى عن النظم الذي كان يجيء فيه بالغث ، ويحسب انه صنع شيئاً . ولم يكتف المازني بارشاد نفسه ، بل كثيراً ما نصح غيره ليعدي عما لا يجيد فيه . تراه مثلاً ، في آخر عبارة من كتابه « قبض الريح » ينصح أحد رفاقه في الشوط الأدبي الأول ، قائلاً له : ان « الاستاذ » أي الدكتور طه حسين — ليحسن جداً إلى نفسه إذا تحاشى الخروج من النقد العام الذي يسهل مع التحصيل ، إلى النقد التطبيقي أو الدراسات الفردية . »

أجل لم تطب نفس المازني بشعره فارعوى حين ضل ، وانصرف إلى النثر فاحسن صنعاً ، لأنه لم يُبلِ الأدب العربي بمنظومه بل اسكره بمنثوره ، فكان نثره هذا مرقاة له فعرج إلى سموات الفن . فهو ، ولا شك ، واحد من أعاظم كتابنا الفكهين الساخرين .

لست احدثك عن كتبه المشهورة لأنك تعرفها . « فحصاد الهشيم » وهو أشهر ما يقرأ من كتبه ، يقبل عليه النشء لما فيه من دراسات أدبية دقيقة لابن الرومي وبشار . فالمازني كان اسبق أدباء جيله إلى التعرف إلى هذين الشاعرين الكبيرين ، فكتب عنهما فصولاً تغني من شاء التعرف اليهما ، عن المجلدات الضخمة . وقد يكون حبه العبث باللحى الكبيرة صغيراً هو الذي هداه إلى شاعرية ابن الرومي الفذة فكتب عنها دراسته القيمة .

فابراهيم المازني ، كما يعترف في مذكراته « قصة حياة » يقول : « لا أعرف ما سر حبي للحتى في وجوه الناس ، ولكني اعترف اني مـــا رأيت قط لحية طويلة تتدلى كالمخلاة إلا نازعتني نفسي ان أجعل لها من أصابعي مشطاً . وقلمـا أرى الآن لحية تستحق ان اعبث بها. فان الناس في زمننا يحلقونها أو يقصرونها ولا يرسلونها ، اكتفاء بالمظهر واستغناء به عن الحقيقة الخشنة أو الشائكة . »

ولا احدثك عن كتابه « صندوق الدنيا » فهـذا أيضاً في متناول الناس ، وقد اقبلوا عليه ايما اقبال . ولا عن كتابه « قبض الريح » الذي مـــر ذكره سابقاً . فهذه الكتب اشتهر بها المازني ، وهي معروفة من دنيا القلم . ولم يتورّد وجهه من كتبه الأولى غير قصته « ابراهيم الكاتب » . شاء أديبنا الكبير ان يكتب قصة فكتبها ، فكانت قصتها قصة تطول ، كما عبر قبلنا صاحبه ابن الرومي ..

اخالك ادركت ما في عناوين كتب المازني من طرافة وغرابة ، وهذه سجية الناقد الأصيل . فالمازني ناقد في جميع ما يكتب، وقصصي في كل فصل حبره، وأكثر قصصه طرافة وأحلاها هي تلك الأقاصيص التي تتصل بذاتـــه اتصالاً وثيقاً ، وخصوصاً في الفصول التي كتبها في مجلة « الرسالة » وغيرها بعد ظهور تلك الكتب . ففي مقاله : « عجوة ببيض » وغيرها يذكرني بقصص الجاحظ وأخباره ، وان كانت هذه من نوع آخر .

لقد حلت بالاستاذ نكبة البرامكة حين صبّحه أولاده وزوجـــه بطلب الفلوس . ولكن « العجوة بالبيض » هونت عليه الكارثة التي حلت به، وتعزى الكاتب الفارغ الجيب بالكلمـــة المأثورة التي خاطب بها زوجه مسلياً نفسه : « انفقي ما في الجيب يأتِ ما في الغيب . لا بأس ، لا بأس ، سيرزقنا الله » .

بيد ان الكاتب لم يرزق ، فعاش غير ميسور ، ومات مكثوراً عليـــه ، ولولا صرخة رفيق الرحلة الأولى لتاه بنوه في الأزقـه كما تاه من قبـل ابن ولي الدين لاماً أعقاب السكاير عن أرصفة شوارع القاهرة ..

قلت لك فيما مر ان المازني « كاتب جامع » ولكنه متئد السير في كل مـا يكتب ، يهز هزاً لا يلوي ، ولا يفرض آراءه وأفكاره على الناس فرضاً . اسمعه يحدثنا في عام ١٩٣٥ عما اسميناه منذ أعوام « الجامعة العربية » وقد سماه هو في ذلك الوقت « القومية العربية » ومما قال فيها : « لقد احطنا قوميتنا بمثل سور الصين. ولو ان هذه القومية العربية لم تكن الا وهماً لا سند له من حقائق الحياة والتاريخ لوجب ان نخلقها خلقاً . فما للأمم الصغيرة أمل في حياة مأمونة ، وما خير مليون من الناس ، مثلاً ؟ ان أية دولة تتاح لها الفرصة ، تستطيع ان تثب عليهم وتأكلهم أكلاً بلحمهم وعظمهم . ولكن مليون فلسطين إذا اضيف اليه مليونا الشام ، وملايين مصر والعراق ، مثلاً يصبحون شيئاً له بأس يتقى » .

قد يقال : ولكن هذا ليس إلا حلماً ، فنقول : نعم انه الآن حلم لا أكثر ، ولعله لا يتراءى الا لآحاد يعدون على الأصابع في كل بلد . ولكنه ، على كونه حلماً ، ليس أعز ولا أبعد منالاً مما تحلم به امم أخرى في هذا العصر ، وبالأمم حاجة إلى أحلام . والأحلام ضرورة من ضرورات الحياة للأفراد والجماعات ، ومن لا حلم له لا أمل له ولا مستقبل ، فلماذا يعيش إذن ؟ !

هذه بعض خطوط من صورة أديبنـا المازني ، وإذا أردنا ان نرسم لكاتب عظيم مثله صورة تامة الخطوط ، فمثل هذا الإطار لا يتسع لمثل هـذه المادة الغزيرة . فكتاب بكامله يكاد لا يفي بالمازني ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله . فشكراً لمحطة الشرق الأدنى التي تذكرنا في كل مناسبة باخواننا الذين طواهم الموت ، وكم في التذكر من منافع وعبر .

رحم الله المازني ، وما احوج الأدب العربي إلى بضعة كتاب من طرازه ، فينتعش لسان الضاد وتدب الحيـاة في كتبه . فالرجل كان غني النفس على بؤسه ، كريماً معطاء على خصاصته ، وربما كان البؤس مصدر هذه الثروة الأدبية .

من يدري !

المنفلوطي ورسالة الغفران

ليتك تترك الأموات يرقدون في قبورهم مطمئنين ،
فهالك ولهم ، الخ ..

من رسالة كاهن

ابتِ واستاذي .

لا أخالك ناسياً ما كنت تقوله لنا ، ونحن صغار لم تطرر شواربنا بعد ، عن وقفتنا أمام ربنا حفاة عراة ، حين لا يشفع بنا غــير أعمالنا الصالحة ، وسيدتنا مريم العذراء .. ولست أنسى تغنيك بهذا النشيد : ان قلبي في هوى مريم .. من كان للعذراء عبداً فلن يدركه الهلاك أبداً ..

أما الأديب فيدان مرتين: مرة بحسب ناموس دينه، وأخرى بحسب ناموس الأدب . فلا تجزع ولا تخف ، فقبور الادباء معرضة للنبش كل ساعة ، ولا يقام على نابشها حد زياد في(البتراء) فهنيئاً لمن ينبش النقاد قبره وينقل آثاره الثمينة إلى متحف الفن ، ويا ويله إذا لم يكن فيه غير عظام نخرة ..

وبعد ، فان معضلة الاسلوب أو القالب أو المنوال قد شغلت العقل العربي أجيالاً ، فاحتال لها جماعة في كل عصر باخــذ الحبل من طرفيه . لم يعافوا القديم جملة اتقاء ثورة غوغاء الأدب وهم أكثر من السوقة وأشد خطراً، وأخذوا من الجديد بمقدار ارضاء لنفوسهم الظامئة إلى ورد غير الحياض المطحلبة .. أما المجددون الذين تمردوا وخاطبوا الناس بلسانهم فانكرهم جيلهم وكان كاورشليم ،

قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين اليها، فعاشوا في امتهم كالدجاجة الغريبة لا تصادف الا مناقير من فولاذ تغرز في رقبتها .

أمامي الآن مقدمة ابن خلدون فاسمع ما يقول في هذا الشأن :

« فما كان من الكلام منظوماً وليس على تلك الأساليب – أي أساليب القدماء – فلا يكون شعراً ، وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون ان نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء ، لأنهما لم يجريا على اساوب العرب » .

فهل من حرج علي ان وقفت من هذه الشهادة التي ينقلها الينا ابن خلدون موقف المرتاب الشاك ! فاما انه يشهد بالزور ، أو ان شيوخه هؤلاء شيوخ حقاً لم تبق منهم الأيام قوة تميز بين شعراء المتنبي والمعري. ومهما يكن من أمر هذه الشهادة فهي دليل على تمسك العرب بالقالب حتى صيروا التعابير العربية كحصى (الدومنو) وحجارة النرد يسوقها الزهر ، وينزلها منازل لا يشتهيها اللاعب . اما الفنان فينظر إلى ألفاظه ككائن حي يستمد الحياة مما حوله ، وان كان للصيليين قوالب حديدية يحصرون فيها أرجل بناتهم فلا تنمو ولا تكبر ، فالقالب العربي فعل أكثر من هذا بعقولنا . فما أفقر أديباً لا أداة له من الكلام إلا ما قاله آباؤه وجدوده ، وان لم يعبر كما عبروا فقد كفر .

اننا نعجز عن خلق تعبير جديد فنحتج لضعفنا بتقديس الاساوب ، ومن استعرض آثار العرب رأى ثورات الزعماء في كل جيل ، ونحاة وبلغاء يقمعونها. أما الجبار الذي خرج على أساليب القدماء وأغراضهم وتعابيرهم فهو المتنبي وقد سمعت ما يقوله فيه ابن خلدون ويسنده إلى شيوخه .

ولكن مـا نعاه فيلسوف المؤرخين على أبي الطيب أصبح اليوم دعامـة خلوده . فكأن هذا الشاعر الأعظم قد نظم شعره لهذا الجيل الكفاحي ، ففيه مرعى لكل نفس غير بلهاء كاشياخ ابن خلدون الذين يجاريهم طه حسين . فقد سمعته يختتم كلمته في حفلة الجامعة المصرية للمتنبي بقوله : ان فن المتنبي

لا يعجبه ، وهذا ما توقعته من طه بك فلا بد للدكتور من مخالفة ليقال : قال. وطه ، كما أراه ، يعتق شيئاً فشيئاً ، ولا يبعد ان تستهويه الماوية والسجنجل، فهو يمشي الوراب كالسرطان ولا نعلم أي وكر يتلأ .

مسكين أدبنا المريض بسل الاسلوب وسرطان القالب . انـــه لا يؤمن إلا بتعازيم الكهان ورقى الحواة ولا يعرف من الطب الا الكيّ ، وهو خير دواء لكثيرين من هواته . يخدعك طلاء هذا الأدب حتى اذا رزته عرفت انه دنانير ولكنها من (شوكلاته) !

سقنا هذه الكلمة لحديثنا عن المنفلوطي ، والمنفلوطي جدول يخرخر ونهر ثرثار تقطعه غير خالع نعليك ولا تشمر بكرم فضاح كالتي حدثنا عنها الريحاني في ملوك العرب . المنفلوطي من مناجذ الأدب الذين لا يهنأ لهم عيش إلا في قرض الجذور ، ونحن إلى من يغرس جديداً احوج منا إلى من يقرض ، فالقارضون عندنا لا يحصون ، وقلما ينامون قبل ان يكسبوا بيتاً .

لا أدري لماذا صرت أرى المنفلوطي رخواً مترهـــلاً كالمرأة الهركولة التي تعتمد على يديها ورجليها لتنهض ، وتكاد تقعد لولا التشدد كهريرة الأعشى . فأدب المنفلوطي أدب مفلطح متنفش اغترت الصحف بخرزاته وودعاته فلقبته « أمير البيان » فتطوح في حقول الأقدمين كلاقطي السنابل « العفّارين » وتاه في الجادات كجامعي لفافات التبغ، ولن اعدل عن رأيي هذا فيه حتى تستبدل مقاييس الأدب وعياراته بغيرها فيصير الرطل كيلوا والذراع متراً ..

ما خدع المنفلوطي عن نفسه حتى جاء بهذه المفرقعات ، الا كذب بعضنا على بعض . واننا ما فتئنا نفعل هكذا بالأحياء الذين يبعطون في جهلهـــم ولا يتأدبون حاسبين النبوغ في اجترار التعابير كالعنزة القائلة .

لقد فتشت آثار المنفلوطي كلها فما عثرت بتعبير شخصي لهذا النابغة . فهل بين الناطقين بالضاد من يدلني على واحد ، ثم لا يثنيه هذا الضعف ان يجتريء على المعري ويلخص رسالة الغفران باسلوب منفلوطي ، فتنكرت لنا كالذين يتلبسون

بقبح المرفيع والبربارة .. ولو لم يقل المنفلوطي انها رسالة الغفران لجهلناهـــا ، فقد استحال فيهـــا أدب المعري مغرة ، واستناب المنفلوطي نفسه عن علي بن منصور .

رحم الله ع. م. أحد رسامينا القدماء ، فقد خبرونا انه كان يصور الغزال ويكتب اسمه تحته ليعرف الناظر انه يرى صورة غزال لا صورة ضبع . ان ع. م. في الرسامين كالمنفلوطي في المنشئين ، ولم تعدم البلاد ممن يعدون ع. م. مصوراً بارعـــاً .. وكأني بمنفلوطينا قد استضعف خيـال المعري فبدأ رسالة الغفران — غفر الله له — حيث أراد ، وأخذ يروح فيها ويجيء كسيارة يدورها سائق عكش في كوع ضيق .

قد بدأها كما شاء هو فرأى نفسه في صحراء مد البصر ، وما أكثر ما يرى المنفلوطي نفسه في الصحارى ، حيث لا حارس ولا ناطور ، بل ما أكثر احلام هذا الرجل وأقرب اغفاءته ، وما أطول نومه فكأنه اليربوع أو الغرير . عفواً ابن الغرير منه وقد نام ألف سنة في رسالة الغفران .. تحرش المنفلوطي بالمعري ، ثم بجبران في قصة « صراخ القبور » فكان كولد يخربش على الحيطان قبالة فنانين حاذقين . وجاء عمله في رسالة الغفران كعمل صيقل ابله يذهب بجوهر السيف ليجعله لماعاً أبيض ، وان شئت فقل ليعيده حديـدة .. أو كحراث عثر وهو ينقب أرضه على قطعة أثرية فجلاها بسحوق كسر الجرار ليزيل زنجارهـــا ، فخمشها وعراها من هيبة الدهور وجلال الأجيال . وهكذا فات البصير ، أمير البيان ، ما أدركه الأعمى الذي لم يعجب شعره ابن خلدون واشياخه .

لقد مسخ المنفلوطي رسالة الغفران مسخاً لا يغتفر لصبية الكتاب ، فكان كالقصاص ، بل من أين للمنفلوطي براعة ذاك . فالقصاص لا يهمل الخطوط التي تريك ملامح أبطاله ، أما المنفلوطي ففاته هذا. اقرأ ترَ كيف غاب عنه ما فيها من جمال فبدل التعابير الأثرية بكلام مزيف مصقول ، ولم يعجبه ، يا سبحان الله ، من كلام المعري الا « فبعلت بالأمر » التي لا تدل الا على ذوق المنفلوطي ، فأبقاها .

هــل من معترض إذا سمينا المنفلوطي محيي المؤودات . فقد أحيا لنــا الكثيرات منهن مثل : فثأته عنه ، والفينة بعد الفينة ، وعين ثرّة ، ثجاجة ، وقليب أي بئر الخ . عدا عن الصحراء التي حل فيها محل ابن القارح ، ثم خلق أيضاً في الجنة دهليزاً — كالذي كان يأكل فيه المعري — وهــذا شيء غريب عجيب لا يلهمني الا ان المنفلوطي كان يسكن بيتاً ذا دهليز . فالمعري الذي عاش في دهليز أبدي ما خطر بباله قط ان يجعل في جنة الله حتى ولا في الجحيم دهليزاً كهذا الذي خلقه المنفلوطي .

قال المتمشرق جيب في مجلة الدروس الشرقية الانكليزية : (ص ٣١٦ سطر ٢٢ مجلد ٥) ان المنفلوطي كان متأثراً بالادباء السوريين ، وأيد كلامه بتلخيصه رسالة الغفران التي لخصها زيدان قبله ، ولم يتعرض الاستاذ جيب لهذا التلخيص المشوه بكلمة . نعم ان المنفلوطي حــذا حذو زيدان كما قال جيب ، ولكن زيدان لخص هذه الرسالة تلخيصاً أميناً ، ولم يستضعف المعري ، فقدم لنــا خلاصــة ترينــا هيكل رسالة الغفران فقرة فقرة وعظما عظما . أمــا تلخيص المنفلوطي فلا نظفر منه الا بفقاعات منفلوطية كالتي يعجب بها بعضنا ويخالهــا الأدب كله . أما صاحبهم ففشل فشلا مخزياً في تلخيص رسالة الغفران ، وفي قصة العقاب التي كتبها على نسق قصة « صراخ القبور » كما سنرى ، فكان فيها ، كما هو في كل ما كتب ، رصاف ألفاظ يلهو بها لهو الوليد بالقطع الخشبية ، يبني منها قصراً أو قبة ، حتى إذا وفق إلى رصف تلك القطع في مواقعها صفق له أبوه ، وقبلته أمه بين عينيه اعجاباً بذكائه واكباراً لنبوغه .

ان تعابير المنفلوطي في كل ما يكتب هي هي بعينها ، شاحبــة صفراء كقوس الشنفرى ، أو كبني يربوع الأخطل . أما سياق تفكيره فواحد . كل ليلة غدافية الاهاب ، وكل حقل مدّ البصر ، وكل وقت تمضي الا اقله ، وكل رؤيا يبدأها بقوله : رأيت فيما يرى النائم . . وقد يكتب صفحات فــلا تدري ماذا يريد ، فتأتي معانيه كحبة قمح في عدل تبن . ولا اخيلــه الا كأولئك الواعظين الذين يعيدون مواعظهم على الناس بشحمها ولحمها وعجرها وبجرها .

فكرت كثيراً بما اشبه به آثار المنفلوطي واسلوبــــه وتعابيره وطلبت فلم أجد له مثلا الا الروبل الروسي ، والمارك الالمــــاني .. وان أردت مثلا تراه بعينيك فانظر إلى الظرف والزكرة المنفوخين وترحم على نحاة العرب ، فلحكمة سامية خلقوا حرف التنفيس .. واذكر بالخير صاحبنا بشاراً وقـــل لعشيقته عبدة : عجلي فقد كاد صاحبك ينفزر ..

لقد ضاق التفكير بالمنفلوطي فلجأ إلى قوالبه المعلومة وأخذ يرجعها كساعة (الكوكو) التي تقلقك زمناً ، قبل ان تعد الثانية عشرة . أليس عجيباً ان نسعى إلى التجديد بكل ما فينا من قوة ورغبـة ثم ننصر هذا العتيق ونسميه جسراً ، وهو قنطرة نافرة الغلق .

وأخيراً ان شئت ادراك فهم المنفلوطي لرسالة الغفران فاقرأ كلام ابليس وبشار في الرسالة وقابله بتلخيص المنفلوطي ، ثم قل سبحان من يخلق لكل جيل عبقرياً كالمنفلوطي .

اني افرح كثيراً بما اقرأ من محاولات شبابنا في التجديد ، وسأجعـل همي الإخلاص لهم وللفن فأعرض عليهـم ما افهم وادرك ، ولا غرض لي الا تحسين نسل الأدب . وأسعد أيامي يوم ازيل فيه من ادمغتهم عقيدة الاسلوب والقالب لينظروا إلى التعبير ككائن حي ينفخ فيه الأديب الفنان من روحــــه . ففي قوالب العرب ما بطل ، وفيها الصالح لهذا الزمان ، فلنميّز بين الاثنين . إذا كان الناس يحسنون نسل القطط ، والسكاف يجدد قوالبه كل عــــام ، فكيف بالأديب وهو الخالق المبدع !

اني لا احترم ولا اقدس الا الأدب الصحيح ، وسيان عندي قديمه وجديده ، وسواء عندي اجاء من غلام مغرور ، أم صدر عن شيخ وقور .

انا نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، فان استمرأتم زادنا زدنا كم منه ، وإلّا فارفعوا أيديكم عن قدورنا ، فلا بد لهذا الفول من كيّال .

أبو الفضل الوليد

كان اسمه الياس طعمه حين كنا في مدرسة الحكمة رفيقين في الصف العربي، يعلمنا بيانها وقواعدها الخوري يوسف بو صعب. ثم انقضى ذلك العام الدراسي، عام ١٩٠٥، فترك الياس المدرسة إلى غير رجعة وكان آخر عهدي به .

قضى في بيته ثلاثة أعوام كانت من أطيب العمر كما قال . ألّف خلالها مسرحيات عديدة، شعرية ونثرية، منها ما وضعها، ومنها ما عربها، حتى انه نظم نشيد الأناشيد وصدره بمقدمة . ويزعم الياس انه لما هاجر عام ١٩٠٨ أضاع تلك الدفاتر في إحدى رحلاته، ولذلك لم نضع نحن الوقت في سرد اسمائها . وفي ١٥ نيسان سنة ١٩١٣ أصدر في المهجر جريدته «الحمراء» تيمناً باسم حمراء الأندلس، وقريته اللبنانية «قرنة الحمراء»، فعاشت تلك الجريدة أربع سنوات خلقت في أثنائها روحاً قومية عربية قلما تجدها، وإذا وجدتها فلا تجد تلك الحماسة والعصبية حتى الهوس .

قلت : كان اسمه الياس طعمه، ولكنه «في تشرين الأول من عام ١٩١٦ اتخذ كنية أبي الفضل واسم الوليد، وقيدهما في سجل الحكومة البرازيلية فأصبحا رسميين شرعيين يعرف ويعامل بهما» .

يقول أبو الفضل الوليد «انه لم يغير اسمه لأنه غير عربي، بل لأنه ابتذل وقصد به علم النبي اليهودي . فهذا الاسم حمله أحد أجداد العرب وهو الياس ابن مضر بن نزار» .

ان جنون الياس بحب العروبة وكرهه اليهودية أنساه ان الكتاب المنزل

تدين به العروبة التي يقدسها قد جاء فيه : وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين (سورة الانعام ٨٥) وان الياس لمن المرسلين (الصافات ١٢٣) .

ومن الصدف الغريبة ان يهاجر الياس في نيسان ، وان ينشيء جريدتـــه (الحمراء) في نيسان ، وان يعود إلى وطنه في نيسان ، وان تبارحنـــا نفسه الكبيرة في ٢٩ نيسان يوم الثلثاء سنة ١٩٤١ .

أما هدف الأديب الشاعر في الحياة فقد عبر عنه بما يلي : « لولا بياض أمله لما شهد الملأ سواد ورقه ، ولولا حبه لقومه ووطنه لما أضاع في الكتابة أحسن العمر . فليس هو إلا صاحب دعوة له عقيدة ملية وطريقة سياسية . حمل القلم لاظفارهما ولاظهارهما فكتب للعزم والعمل لا للعب والكسل . فكان نثره ونظمه مبديين لشعوره وايمانه ورجائه .

انه مجاهد قديم ، حارب حتى تكسر سلاحه . وبعد ما قام بالفرض ووفى بالعهد هجر الدواة وسائر الأدوات . ولم يعتزل الا لتيقنه انـــه لم يبق للاقدم مفزع ، وللسهم منزع ، فحكى قائداً رومانيـــاً كان يعود من بقاع الحرب إلى بقاع الحرث . وما كان ناثراً وناظماً ليعد كاتباً وشاعراً ، وما اتخذ الأدب حرفة ليداومه لكن بلاغاً ورسالة . فلا يصح الا به وبامثاله قول الرسول في حديثه الشريف : يوزن مداد العلماء ودم الشهداء يوم القيامة فلا يفضل احدهما الآخر . »

وينتقل أبو الفضل الوليد إلى وصف خلقه ليعرفه الآتون بعده . فكأنـــه ، رحمه الله ، قد ادرك انه سيهمل وينسى ، فدوّن بقلمه تذكرة نفوســه فقال : « انه طويل القامـــة ، قوي البنية ، متناسب الأعضاء حنطي اللون ، كبير الرأس ، كثيف الشعر ، واسع الجبهة ، أزجّ الحاجبين ، انجل العينين ، عسلي الحدقتين ، ضخم الأنف ، غليظ الفم ، عريض الذقن والصدر ، طلق المحيا ، حسن المقابلة ، لين الجانب ، حلو الحديث ، لطيف الحس ، شديـد الطرب ، صبور جليد ، محب للحلم والرحمة والإحسان ، ذو انفة وعفة ، ونزاهة وشهامة ، مترفع في العزلة ، متواضع في العشرة ، حافظ للعهد وفي بالوعد ، غضوب للحق ، ولوع بالعدل » .

أمـــا في وصف أدبه فيقول : « ما كان التهاب فكري إلا من اضطراب نفسي واضطرام قلبي . فالفضل في الهامي لروح العروبـــة التي لاحت لي من ورائها روح عليين .

اني أموت كما عشت عربياً آملا مشوقاً ، وأود ان تضم جسماني تربة دمشق الطيبة .

هناك تهيم روحي في الباديـــة ، وتتنشق نفحاتها الطاهرة ، وتطرب لهدير الوادي .

تلك رقدة اشتهيها واعلل نفسي بها ، وأراهـا خـير مكافأة لي إذا كنت مستحقاً . »

ومشى الياس الخطى التي كتبت عليه حتى استولى على أمد العروبة فقال : « وإذا لم تكن عروبة الا بالاسلام فانني عربي مسلم مؤمن ، اشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله . »

هذا ما كتبه أبو الفضل الوليد معرفاً الذرية بشخصيته ونفسيته . أما مـا ذيل به أكثر كتبه فهاك بعضه ، آمـلا ان تصدق ما تقرأ . فرفيقي وصديقي الياس كان غريب الاطوار كما ستعلم حين اتحدث أنا عنه كما أعرفه . أما الآن فلنر رأيه هو في نفسه . قال تحت عنوان (شهادة عدل وكلمة حق) :

« أبو الفضل الوليد عبقري نابغة متفرد مندر ، أشهر من أن يعرف وأكبر من أن ينعت ويوصف ، ان هو إلا الحكيم الأعظم والشاعر الانظم . وكل مـا كتبه يعد من نفائس الأدب العال ، وعليه طابع ممتاز من الإجادة والابتكار . ألف في اللغة والتاريـخ والأدب والشعر والتمثيل والغناء والنقـد والاجتماع والرواية والسياسة والفلسفة ، فكان عقله من العقول المحيطة التي لا يخفي عنها شيء ، ولا يفوتهـــا أمر . فأصبح رب الصناعتين وحامل الرايتين ، الحكيم الأخير والفيلسوف الأكبر ، وشاعر العرب الأمثل ونجي الملأ الأعلى .

انه الشاعر الملي ، والفيلسوف ذو البصيرة النيرة والسياسي المطلع الخبير .

كل بيت من شعره قصيدة ، وكل جملة من نثره مقالة ، وله في الإنشاء ميزة يفطن لها الاريب فيقر بأنها معجزة .

لقد برز بما ابتكره واحتكره على المتقدمين والمتأخرين . مـــا كان التهاب فكره وقلبه ونفسه إلا من شعلة سماوية . وليس لهذا الجيل بل للأجيال الآتية ان تفيه حقه وتعرف فضله وقدره . فقد كان ظهوره قبل أوانه ، وعلى غــير استعداد من أهل زمانه . »

ان هذه الشهادة تقرأها في آخر كتبه جميعها ، ما عدا « رياحين الأرواح » و « أحاديث المجد والوجد » ، وعندما طبع أول ديوان كتب على جلده ما يلي :

« رياحين الأرواح . الرقين الأول من قصائد الملهم الذي نظم الشعر عقوداً ، والحكيم الذي ضرب النثر نقوداً ، صاحب الطرب الأعلى ، والوطر الأمدي ، اشعر من شعر ، واكتب من كتب ، ملك النثر والنظم ، المبداع المجواد السيد أبي الفضل الوليد . »

أما جلود دواوين شعره الأخرى فاكتفى لها بوشم شاعر العرب فقط .

لقد انتهى بعض ما قاله أبو الفضل الوليد ، وجاء دوري الآن ، لأقول أنا فيه ما أعرفه . رافقته في مدرسة الحكماء فتصادقنا . ولكني كنت أرى فيــه صديقاً تخشى بوادره . كان ذا عنجهية ، ارستقراطي الطلعة في غنبازه الحريري الذي كان يتفرد بلبسه دوننا ، فكأن العروبية فيه طبع لا تطبع . كان استاذنا الخوري يوسف بو صعب يداوره ولا يجابهه ، حتى قال مرة على أثر خروج الياس من الصف غاضباً : أبوه من بيت طعمه ، وأمه من بيت طوبيا ، وجدهـــا الشنتيري وكيف تريده ليناً مطيعاً .

كان يجلس وحيداً لا يأخذ ولا يعطي ، فكأنه صف مستقل عن الصف . وكذلك كان في الخارج ، فكأنه لا يعنيه من المدرسة شيء كما يريد ان يعنيها منه شيء ، ولهذا تركها دون أن يتم دروسه .

كان مستبداً برأيه حتى في التعليم ، فاذا سيره الاستاذ على غير هواه تنفس

كالهر وتأهب للنزال . لم يكن يهمه من الدروس الا نظم الشعر . ينظمه في الصف ، وفي قاعة الدرس ، وفي الكنيسة حتى ... ورآه المناظر الخوري يوسف الخوري يخربش على ورقة في الكنيسة ، وقت القداس فقال له : هذا بيت الله !

فأجابه الياس : وأنا انظم له ترنيمة ليس فيها ركاكة ترانيم حنا بو صعب .

وبلغت الكلمة استاذنا الصعبي ، وكان يحب الياس ويراعيه كثيراً ، فسأله : اية قصيدة تعني من قصائد حنا بك بو صعب ؟

فأجابه الياس : اعني يا خالق الأكوان يا باري الورى .

فقال الخوري : وما الذي لا يعجبك فيها ؟

فقال الياس : انه يخاطب الله بلغة النحاة فيقول فيها : يا عالماً ، هل ان حنا ينصرف .

فقال الخوري : هذا حلو ، كيف لم يعجبك !

فقال الياس : لم يعجبني لان الله وعبيده لا يستعملون مثل هذه اللغة في الابتهال .

وأخيراً سكت الخوري، وكانت دائماً الكلمة الأخيرة لتلميذه الطاهر الياس.

كانت ذاكرة الياس قوية جداً ، وكان شديد الميل الى الغريب من المفردات فيحفظ منها الكثير ، وكان يترنح طرباً حين يسمع الوحشي منها في الشعر الجاهلي وغيره، فتلتقطه ذاكرته فلا يفلت منها فيما بعد .

وكان الياس يعيش على هواه ، يركب رأسه ساعة يشاء فيجمح ثم يثوب ويسلس قياده لمعلميه ورفاقه . تراه وديعاً كالحمل ، وفي جلسة واحدة يلبس جلد النمر وينقلب شموساً لا يؤتى من قبل ولا من دبر . بدوي في ثوب حضري ، غريب الأطوار ، ولعل هذه الغرابة كانت من أول أسباب هجرته ، التي كان في غنى عنها . أما حبه السياسة فكان فيه ككل ابن بيت لبناني عتيق : ان الفريكة التي شهرها الريحاني لا تخوم بينها وبين قرنة الحمرا ، وبين الريحاني

وابي الفضل الوليد قرابة لعل للنسب والمكان يداً فيها . فأم أمين من بنات عم الياس طعمه ، وهكذا كانت العروبة عندهما فوق الجميع ، ولأجلها فاه الياس بكلمة الشهادتين ، وهذا لم يفعله أمين .

هذه هي الفكرة الجارفة فيما خطته يد أبي الفضل ، ولا اعد ما نقلته عنه في مدح نفسه إلا من غرور العبقرية . ولا بدع ، فالعبقرية والجنون يعشيان في صعيد واحد .

لم يمدح الياس كما يشتهي فتولى هو بنفسه مــدح نفسه ، فأطنب وغالي وأغرق . كان أبيـاً لا يستجدي التقريظ من أحد ، ورأى انه مغموط الحق فحك جلده بظفره ، وإلى هذا أشار في كتابه « التسريح والتصريح » فقـال : « أعرف كثـيرين من الشعراء والكتاب يكتبون بأيديهم تراجمهم وتقاريظهم فينشرها لهم اصحاب الجرائد على علاتها لصداقة أو قرابة أو شفاعة أو طماعة . وبعض صحافتنا اتخذها محترفوها مهنة للخداع والكذب . فقد تحيي بالريحان من يرجمه الناس ، وتجعل الجاهـل عالماً والسارق محسناً . فرب صحافي برشوة أو اكلة أو سكرة صيّر القدم فريد عصره والفسل وحيد مصره . وبورقة عملة يملأ ورقة جريدة من صورة الراشي وشماريخ الألقاب والنعوت . فالذي يشاء يصبح أمير البلاد وزعيم العباد ، وعميد الكتاب وسيد الشعراء . »

وكأني بالياس قد أخذ حقه بيده بعد ما رأى ما لحق به من حيف . فما كان كغيره — كما قال — شاعر نهر ولا بحر ، ولا شعب ولا قطر ، ولا فيلسوف شرق ولا علامة غرب ، ولا امـير شعراء ولا رئيس كتاب ، بل نصب نفسه ملك الشعر والنثر وكفى .

ابو الفضل الشاعر

شاعر مطبوع ، خلق ليقول شعراً ، كان يحكي شعراً إذا شاء ، وظل يقول الشعر حكياً معرباً ، فهو في هذا ضريب عبد المحسن الكاظمي وان لم تكن له

الديباجة الكاظمية . يعني ابو الفضل الوليد أن يؤدي فكرة لا ان يبدع فناً ، وان ادعى الخلق والابداع . فقلما تقع في دواوينه الأربعة على صورة بيانيــة ، ولكن نفسه تحن كثيراً إلى الخلق الذي يزعم انه سبق اليه المتقدمين والمتأخرين. فهو في ديوانه الأول « رياحين الأرواح » يناجي « العصفور » سائلا اياه ان يجود عليه بشيء من ابداعه :

ايها العصفور قل لي أتغني أم تصلي
هذه تغريدة قـد طيرت قلبي وعقلي
ابت بالانشاد فوقي ان تكن بالنظم مثلي
زادك الله جمـالاً في التغني والتفـلي
اعطني وزناً جديداً لم يكن للشعر قبلي

أرأيت هذا التوق وهذا الوجد ! فهو يتمنى ان تكون له لغة العصافـــير وأناشيدها . أدرك أبو الفضل المدرسة الجديدة ولم يتأثر بهـــا ، بل نستطيع القول انه ازدراها . كان يزرع حقله بعقله كما يقولون ، ولهذا يقول لنا : « في شعري هذا لهجة صادقة ، وطريقة جديدة . وقد فتحت فيه أبواباً لم تطرق ، ومهدت للشعراء سبلا ، فما نظمت قط مسترزقاً أو متملقاً ، وما طمعت بنظم ذليل في مال قليل ، فما اسقطه متاعاً إذا طرح في الاعدام على الاقدام . وشر البلية من ذي رأس خفيف وكيس ثقيل . »

ان صدق اللهجة والاباء وعزة النفس ملء دواوينه الأربعة . أما الطريقة الجديدة والابواب التي فتحها فما هبت عليّ منها نسمة ، إلا إذا كان التجديد فيما قال : « وأحببت الشعر مصفّى منقّى لا جوازات فيـــه ، ولا قواف مكررة ، ولم استعمل كلمة اعجمية ولو راسخة في التعريب غيرة على الاصيل من الدخيل . »

اشهد انه في هذا صادق ، وصادق ايضاً حين يقول : « كثيراً ما لا يكون الشعر لصاحبه ، أما أنا فصاحب شعري . تنـــاثر من قلبي زهراً عن غصن

وريشاً من جناح ، فعلى طريق الحياة نثرت شعوري ثم نظمته في شعري . فما شعري إلا تذكار لمروري في هذه الدنيـــا . وكنت اود أن لا اترك أثراً ولا ابقي خبراً ، فأكون كعصفور يلقي غردة ويمر وهو غير مكترث لمـــا تردد في الفضاء . »

ان في هذا المنثور شعرا كثيرا لا نجد مثله في منظوم الوليد الذي يرى الشعر سليقة وفطرة ، لا صناعة وفكرة . فأبو الفضل سليقي يقول فيعرب ، كما قال ذاك الشاعر عن نفسه . طويل النفس كابن الرومي وان لم تكن له معانيـه الغريبة . قد يتفقان في وحدة القصيدة ويختلفان في أن الوليد لا حشو عنده ولا ركاكة . تمنى أبو الفضل لو وضع اوزاناً جديدة ليكون ذا بدعة وابداع كما قال، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، وما عبر في قريضه إلا عن آماله وأمانيه بعريان الكلام البعيد عن الخيال الشعري ، المنمق العبارة .

والشعر في نظر رفيقي الياس نبوءه حقاً ، ولهذا قال في مقدمة الرياحـين : « كان اليهود يقولون تنبأ اي قال الشعر . فالنبي في عرفهم هو الشاعر ، وقد كانوا ، وايم الحق ، مصيبين . فما الزبور والاسفار والنبوءات إلا قصائد . وما داود وسليمان وسائر الانبياء إلا شعراء ، وكفى بنشيد الاناشيد شعراً غزليـــاً يخلب القلوب ويسلب الالباب . أن التوراة رُقـن – دواوين – شعر مجموعة ، وهي كتاب اليهود ، ولكل امة كتاب هو كتاب شعرها ، تذكر به مـــا كان وتأمل ان يكون . »

ويعرفنا ابو الفضل الوليد بديوان «رياحين الارواح » فيقول انه مظهر الروح المتأثرة . وكذا يكون شعر الصبا والفتوة . فهذا كتاب الوليد حقاً ولا اسميه عبثاً كما سمى المعري ديوان البحتري ، إذ لا يحق لي ولا لغيري ان نعبث بالشاعر الصادق الذي يكشف لنا خبايا نفسه .

هذا الديوان غزل كأكثر الغزل ، ولكن فيه وثبات كما في قصيدة مداعبة عذراء :

مجلسهـــا صمت وإيجازُ ولحظهـــا للقلب مهمازُ
مالي على عفتها طاقـــة تلك على المجروح إجهــاز
منلي بها والدين دون الهوى وفي يـــد القسيس عكــّاز
وصورة العذراء في خدرها والسبحة البيضاء إيعـــاز
قـسيسها ينهى ولا ينتهي وهي عجين وهو خبّـاز
ان قلت مولاتي عديني وفي فالقلب من عينيك قفـّاز
قالت وقد عضت على كفها لم أدر ما وعـــد وانجاز
أرشدْه يا يسوع واغفرْ له من اجلنـــا جرحك نزّاز

اظن انها قصيدة فريدة ، وهي في نظري ريحانة دواوين الياس الاربعـة ، لا ديوان رياحين الارواح وحده .

وفي قصيدة « إلى فتاة ترهبت » رأيت هذا البيت في المحل الارفع من سموات الشعر . قال يذكر تلك الفتاة التي عاذت بالدير من شياطين العاشقين :

ولم انسَ يوما فيه جئتك زائراً فقلت « الا هبّي » فقلتِ « قفانبكِ »

اجل هذه لقطات ترميها الآلهة في طرق ابنائها الشعراء ، وهنيئا لمن يقـع على مثل هذه الكنوز .

امـا ديوانه الثاني . أو الرقين الثاني في لغته هو ، فمصدر بصفحة كتبهـا الشاعر بخـط يمينه ليثبت ايمانه ويقينه بسمو العرب وحق العرب بسلطان لا يزول . ان قصائد هذا الديوان يدل عليها عنوان « اغاريد في عواصف » وهي قصائد انين وحنين ، وغزل ونسيب ، وذكريات اوحتها إلى الشاعر هجرتـه . فكان من امه ، قصيدة بيته في الحمراء ، كابي فراس من عجوز منبج . في هـذا الديوان تتفجر عواطف الياس بسبب ما ادرك من خيبة في هجرته . اصابه مـا أصاب النعامـة كما قالت العرب : ذهبت تطلب قرنين فرجعت بـــلا اذنين . وذهب هو في طلب الطريف فأضاع التليد ، وذاك حظ كل من تدركه حرفة الادب . فكم من معتاز أو عتـّال هاجر فاغتنى ، وكم من اديب لبيب لم يعط

خبزه كفاف يومه . فاسمع كيف يخاطب نفسه :

اتطمع كالضليل بالوطر العـــالي وانت قليل الحظ والصبر والمال
اطرفة في العشرين فاجأك الردى ويا ابن زريق مت من طول إهمال

وفي قصيدة خاصة بابن زريق يخاطبه فيها :

شقينا كلانا فمت وكدت اموت ، فجسمي براه السقام
فمثلك خضت بحاراً وجبت قفـاراً وشبت لفرط اهتمام

ويقول في قصيدة اخرى :

والحظ لما طلبت المجد ارجعني صفر اليدين إذا فتشت لم أجد

ثم يختم هذه القصيدة موجهاً كلامه إلى والدته :

ماذا تقولين أو ماذا اقول إذا عاد البنون الى المأوى ولم أعدِ
لهفي على ولد يقضي الحياة بلا أم ، ولهفي على أم بـلا ولد

وإذا شئت أن تتذكر أبا فراس فاسمع :

هناك وراء البحر أم حزينة تكابد آلام الشهيدات من اجلي
ابيت اناجي طيفها قائلا لهـا رويدك اني كالألى فعـلوا فعلي
لقد مات (دنتي) بالنسا في جهاده وقدمات في المنفى (امرؤالقيس) من قبلي
واني لأدعو كل ذي محنة أخي فللشبل حنّات إلى زأرة الشبل

وييأس اليأس فيرى الكون من وراء نظارة سوداء فيقول :

من يعط لا يوهب ومن يمنع ينل كن مؤمنا بالله واشبـع دينا

ثم يرى سبب شقاء هذا البلد في طوائفه ، والى رجال الدين يعزو فقر البلاد فيقول فيهم :

متى ينتهي كهاننا وشيوخنا فنخلص من حياتهم والعقارب
شقينـا لنعماهم وراحتهم فهم يسوقوننا كالعيس نحو المعاطب
يقولون صلوا واصبروا وتقشفوا وتوبوا وصوموا واثبتوا في التجارب
وهم بين عوّاد وزقّ وقينة لها عبثـات باللحى والشوارب

يجوع ويعرى في الكهوف فقيرنا ويشقى ويبكي صابراً غير عاتب
وقد اكثروا ديباجهم ودجاجهم وقـــالوا لشعب الله غش بالعجائب
فكم أكلوا القربان بعد فظيعـة وكم جحدوا الايمان عند المكاسب
خلاصي، وما اغلاه، لست اريده إذا كان من خوري وقس وراهـب
متى يهزم الغربان نسر محلق وتبطش آساد الشرى بالثعـالب

هذه هي (اغاريد في عواصف) ، وسترى إلى أين سار هذا المتمرد مـع العاصفة .

والديوان الثالث « الانفاس الملتهبة » نظم في الحرب الكبرى الأولى فجاء صورة للزمن الذي نظم فيه ، طافحاً بحب الاستقلال الذي حنت اليه الامـة العربية وحاربت من أجله . فالشاعر في هجرته يحلم بالمجد العتيد ويتـألم ويحن الى ارض هجرها :

ذكرت بلادي والكواكب تسطع ونفسي بما فوق الكواكب تطمع
وجدت لكي ارعى نجوماً كثيرة ولكن نجمي بينها ليس يطلـع

فهو في هذا ينظر إلى قول المتنبي : فلا تقنع بما دون النجوم . ابداً اقطع البلاد ونجمي .

ويرى الشاعر ان البلاد لا تنهض إلا بالسيف والقلم متعاضدين فيهتف :

صليل الظبى وصرير القلم لفك القيود وشق الظـلم
بدونهما لا حيـاة لنـــا فهـذا وذاك حياة الامم

وشمرت الحرب عن ساقها فشمر الياس معها ، واطربه زئير الحديد فصاح :

السيف يخطب فاسكت ايها القـــلم لا خير في الحبر حيث الدمع ينسجم
السيف منـــه صلاح فاضربن بـــه ان النبي لنصر الله قـــد ضربا
ان اخفق الحق والايمان في أحُدِ فيوم بـــدر ازال الكفر والشغبـا
أما تراجـــع محروساً ومحترساً فالليث يرتـــد احياناً لكي يثبا

ويذكر مسقط رأسه لبنان في تلك الأيام السوداء فيهتف :

لي أمة شطرت شطرين شطر نوى وشطر موت فكيف الشمل يلتئم
قد مات ابناؤها حتف الانوف على مرأى الألوف فلم تنهض بها الهمم
وثوقهم بوعود العجـم ضيعهم فذمة العجم ألا تحفـظ الذمم
يا ليت اعلامهم اكفانهم فلهـم منها حيـاة وللابناء معتصم
لكنهم تحت رايات العدى سقطوا صرعى، وفي ارضهم من قوتهم حرموا

حقاً انها صفحة طواها الشعراء وما أتوا على ذكرها إلا قليلاً . اني اضحك حين اقرأ اليوم هذه العبارة : الحرب الباردة . فأين برودة حرب اليـوم من صقيع تلك ؟! فما مرت حرب باردة في دنيا الله كتلك التي مرت على لبنان في حرب سنة ١٩١٤ . ماتت الناس بعدما أكلت الفئران والجرذان والحمير ، والشعير من روث خيول العربات . اجل لقد أكلت الناس هذا وماتت ولم تطلق بارودة ولم تهز عصا .

وكأن الياس حين سمّى ديوانه الاخير « نفخات الصور » قد تخيل امته راقدة وهو رافائيل ينفخ في الصور ليبعث من في القبور . لا تستغرب هذا القول، فها هو الشاعر يصدر ديوانه هذا بما يلي :

« لقـد كان هذا الكتاب من الشعر وحياً وتنزيلا للعرفان والهدى ، فالعواطف والافكار التي تجيش في ابياته لا تكون الا من نفحات علوية تنعش السماء بها الارض ، كيف لا وناظمها ابو الفضل الوليد . قـد نشأ مارونيا لبنانيا وتخرج من مدارس نصرانية كهنوتية فكان معلموه قسيسين ورهبانا . وتغرب في بلاد افرنجية وامريكية اهلوها لاتين بحورهم تغرق الشرقيين ، فمن يصدق ان من هذه تربيته يشعر ويفكر بما لا يدور في خلد عربي مسلم في مكة . ان هذا إلا دليل على ان شعره موحى به اليه ومنزلاً عليه ، فليس هو مسؤولاً عنه ، انما الله وليه فيما كتبت يده لخير العرب والمسلمين . وقد تدرج حسه حتى حببت العروبة اليه الاسلام وهو روحها وجوهرها » .

ثم يختم هذه الصفحة من تاريخ حياته بهـذه الكلمة : « فاذا لم يكن نبياً – أي أبو الفضل الشاعر – لا شك بانه ملهم من خاتم النبيين » .

اما النبوءة فلا ، اما الالهام فهذا فيض من النفس ، ونفس الياس تهدر في أعماقها العروبة ثم تجري انهاراً جارفة في « نفحات الصور » وليس أصدق من عناوين قصائد هذا الديوان في الدلالة عليه وهـذه هي أولاً : (الرؤيا النبوية) وفيها يقول أبو الفضل :

تشوقت حتى زارني الطيف مؤنساً   واشرق نور الشمس الطلعة النبويّة

ويبلغ الوليد الجنة فيرى على بابها رضوان لابساً من الاضريج أفخر حلة . ويدخل الجنة ويشرب من رحيق الحور والولدان باكواب من در ، وقوارير من فضة ، حتى إذا ما توغل في الجنة بلغ حضرة من على العرش استوى ، فرأى :

غمامـــة عليين تستر نوره   ترفع رب العرش عن كل هيئة

ويتحير الياس في ذلك الموقف ويعجز عن الوصف كما عجز مار بولس من قبل فيسمع صوتاً يناديه : دعوتك فاسمع أنت صاحب دعوة .

وكن منذراً بين الورى ومبشراً   وبلّغ جميع المسلمين وصيتي
فشعرك وحي منزل في جهالة   كما نزل القرآن في الجاهليـــة
تشجع وآمن يا وليد فأنت لي   رسول وفي الابلاغ فضل الرسالة
انا المصطفى المبعوث للحق والهدى   وقد صحفوا في مصحفي كل آية
وقـل لجميع المسلمين تجمعوا   وصونوا وقار الأمـة العربية



ويمضي الياس في البـلاغ المبين الذي تجلى له في تلك الرؤيا ، فيسدي إلى العرب نصحاً جزيلاً صادقاً لقنه إياه الرسول عليه الصلاة والسلام – كما زعم –

وينقطع الهاتف فيجفل مرتاعاً من الصمت ، ويأسف لانقطاع الرؤيا وما شمّه من حسنات عدن من نفحات طيبة ، ويختم هذه الكلمة بقوله :

وفي الشعر ريحان وراح وكوثر فما فيّ من ريّ ورِيّا لامق

أما المطولات الأخر فهذا بعض عناوينها : « المشرقية ، المغربية ، المقدسية ، الشامية ، العراقية ، المصرية ، الأموية ، الاندلسية » وكأنها معارضة لنونية ابن زيدون ، وفيها ينحي على جماعة الغرب باللوم والشجب فيقول :

المرعات مذلات فواطمنا كما تذل الأناجيلُ الفراقينا
والقلانسُ هزء من عمائمنا وهي التي صفرت في عين قاضينا
فما لنا قوة إلا بسيدنا محمد ، فهو يرعانا ويحمينا

ثم تلي هذه القصيدة « الدمشقية والصحابية والجندية » وفيها يحيي الراية العربية بقوله :

بروحي وأهلي راية عربية لها النصر في سود المعارك باسم
حماها النبي المصطفى واستحبها وناسجها جبريل والله راسم

ثم يذهب في حسن تعليل ألوانها الأربعة مذهباً موفقاً. وبعد رفع هذا العلم لا بد من ان يأتي الجهاد ، ففي القصيدة الجهادية يتغنى ما شاء . ثم تليها قصيدة (الشهادية) وهي من مطولات الديوان وقد ختمها بقوله :

تمنيت مع فتيان قومي شهادتي ولكنني أهوى الحياة لأثأرا

ويختم الشاعر رقينه الرابع برباعيات وسباعيات بني قوافيها على حروف الهجـاء .

أما رأي الشاعر في ديوانه هذا فهو : « انها من نوع الايبوبه ـ الملاحم ـ عند الافرنج ، فهي ملحمة العرب الكبرى ، وتفوق الملاحم التي نظمها اليونان واللاتين والافرنج بعظمة المعاني ومتانة المباني ! »

ولابي الفضل الوليد غير هـذه الدواوين الشعرية الأربعـة « منغمة غافر ولبانة » التي لم تقع في يدي ، ولكني تعرفت اليها وعرفت مكانتها في الشعر بما كتبه أبو الفضل الوليد في آخر دواوينه . قال ، كعادته ، في تعريفها :

« هي منغمة شعرية نظمها أبو الفضل الوليد من أجل مصر . وضعت على اسلوب جديد وطريقة مبتكرة جمعا محاسن الأدب الرفيع . ولا بدع ، فناظمها قد تفرد بابداعه وانفراده في النظم والنثر وجاء بالعجب العجاب .

قال خبير مطلع على المناغم عند الافرنج ان « منغمة غافر ولبانة » أجمل المناغم التي تلوتها وشهدتها ، فهي تحفة هذا الفن . وكان نظمها على نسق مبتكر فشبهها أحد قارئيها بواجهة جوهري معروضة فيها الجواهر على اختلاف أنواعها وألوانها . والخبير يظنها تأليف موسيقي لا تأليف شاعر لما حوته من الصناعة الموسيقية . ولما تلاها أحد الموسيقيين قال : « هذا تنزيل لا تلحين . »

قلت : وعنا لأمر الاستاذ سعيد تقي الدين . .

أبو الفضل الناثر

لأبي الفضل الوليد أربعة كتب نثراً : « أحاديث المجد والوجد » ، وهو حكايات مستوحاة من التاريخ العربي في الشرق والغرب . وهذا الكتاب ككل كتبه ودواوينه لحمته وسداه العروبة والقومية . وفي نهاية ستة فصول سماهـا رسائل بها ينتهي إلى كتابة ما سماه « الفاتحة الوطنية » ، وفيها يقول : « يا مالك السماوات والأرض وقابض الدول والسلاطين ، خلص الشرق من الغربيين ، ونجنا من مكايد الاجنبيين . واجعلنا متدينين غير مغالين ، احراراً مستقلين ، غـير مسيطر عليهم ولا متفرنجين ، فنعيش ونموت عرباً سوريين » .

ولا يكتفي بهذا بل يكتب « تعليما » جديداً على نسق التعليم المسيحي الذي يتلقنه الناشئون على هذا الدين فيقول :

س — أعربي أنت ؟

ج — نعم أنا عربي بنعمة الله وذمة العرب .

س — من هو العربي ؟

ج — هو المتحدر من السلالة العربية أو المولود في الأرض العربية .

س – ما هي الأرض العربية ؟

ج – هي كل أرض أهلها عرب ومستعربون .

س – هل سورية منها ؟

ج – نعم وهي من صميمها ، فأنا عربي سوري .

إلى ان يسأل :

س – ماذا يريد العربي المخلص للعرب ؟

ج – يريد لهم دولة عامة ، وراية جامعة ، ولغة واسعة .

وأخيراً :

س – اتحافظ على هذا المذهب ؟

ج – نعم ، به أعيش وعليه أموت .

أما كتاب « القضيتين » فموضوعه يدور حول السياستين الشرقية والغربية ومما يسديه فيه لقومه من النصح قوله: « ليعمل للتوفيق أهل العصبية من المسلمين والنصارى فيكونوا خير العاملين. فمن الكبائر ان يخجل العرب والنصارى أمام العرب المسلمين ، فما أجمل تعاون المسلمين والنصارى على الأجانب والخوارج .

ان كرام العرب والنصارى مخلصون لأمتهم ، متعلقون بعروبتهم ، يفضلون حكم بدوي على حكم أجنبي . ويرون المنقصة ان ينوب عنهم ويكون كهان لهم منهم زعماء . إلى ان يقول : « لا أوطان في الوطن ولا طوائف في الأمة » .

وفي كتاب «المآلك » أي الرسائل يكتب في العلم والفن والاجتماع والفلسفة فلا يدع شيئاً من الشؤون والشجون إلا ألم به . وكأن المعاملة ، وخصوصاً المالية منها ، قد نغصت عيشه فقال « ثلاثة لا تفتحها إلا عند اللزوم بابك وكيسك وفمك . وأشد الخطر في فتح الكيس الذي يغلق القلب . فتحصيل الدين أشبه شيء بقلع الأضراس ونتف الشعر . ومحاولة الدائنين للمديونين كمحاولة السباع ومزاولة الأفاعي » .

ويختم هذا الكتاب برأي في الأدب فيقول : « الأدب حق الرفيع منه كان منه اضرار واضلال وليس إلا نوعاً من الملاهي . ولم ينفع الناس في كل اطوارهم إلا العلم الثابت الصحيح » .

وفي كتابه « التسريح والتصريح » ولعله آخر ما ألف يتعرض للغـــة ، فينظر فيها نظرة فاهم ، ويتشدد كثيراً حق يصفي اللغة من كل عجمة ، فينصح لمن يريد ان يتخلص منها بتاتاً ان يقول في الجلنجين وَرْسَل ، لأنه مصنوع من الورد والعسل ، وفي الفالوذج دَمَعسل لأنه معمول من دقيق وماء وعسل ! !

وهذه أيضاً تذكرنا بما نحته سعيد تقي الدين من مفردات خالدة . .

ويتعرض أبو الفضل للكتابة فيثني على الخط العربي ويقرع دعاة العاميـــة تقريعاً عنيفاً ، ويدعو إلى التكلم بالفصحى .

ثم يتعرض للركالة في الكتب الدينية ، كما فعل الشدياق من قبل ، ويدعو العلماء من الكهان إلى تهذيب لغتها . ويرى « في قصص التوراة مـــا يخجل من تلاوته الخليع ، ناهيك انه يعلم الفاسق ما يجهل ، فحول وجهك عمـــا فيها من دعارة بني اسرائيل بل بني عزرائيل » .

أما الآن ، وقد انتهينا من هذه الدراسة ، فهل كنت تحلم يا أخي الياس ، ان رفيقك مارون الذي كانت نكتته توجمك سوف يكتب عنك هذا الفصل ؟ لقد كنت بك رفيقاً كما كنت لك صديقاً ، وأنا ، قبل وبعد ، مولـــع باحياء الموؤودين من اعلامنا .

في المضمار

شبلي الملاط
جمعة الصياد
معجم العلايلي
حول القصة
سعيد تقي الدين
الأمير عبد الله الفيصل

ديوان الملاّط

يعذرني أصحاب الدواوين والكتب إذا مـــا قدمت ديوان استاذي شبلي الملاط ولم اراع النوبة التي يراعيها جميع الناس حتى أصحاب المطاحن .. أمـا هكذا ادّبنا الشاعر القديم حين فضل الاستاذ على الوالد .

اننا أمام حقبة لا بد من تدوين كلمة شاهدٍ رأى معاركها وخاض غبارها.. فشبلي زعيم من المحاربين القدماء عركه النضال عرك الرحى بثفالها . هو سيف غساني لا عيب فيه غير ان به فلولا من قراع الكتائب .. ناطح وساور في مجال الأدب والسياسة ، واظنه لم يلق سيفه وترسه بعد . ما زال على شيخوخته في عرنينه شمم منتصب كبرج لبنان الناظر إلى دمشق . لا يحبو إلى الثمانين كما عبر القدماء ، بل يقفز ويجمز نحوها غير منحن تحت أثقالها . سبقت ساعته ساعـة سواه خمس دقائق فأحرز في زمانه لقب الشاعر العصري ، فكان في ديوان العرب ، فترة من الزمن ، كثبير امرىء القيس : كبير اناس في بجاد مزمّل .

إذا عتق شبلي اليوم ، في نظر الجيل الطالع ، فهذه سنة الوجود . ولنحمد الله على أمرين ، على ان لنا جديداً وعتيقاً ، والمثـــل يقول : احفظ عتيقك فجديدك لا يبقى لك .

لست تأمن غضب شبلي ، فرب كلمة تخرج من فمك ، وأنت لا تقيم لهـا وزناً ، ترجح كفة ميزان غضبه وتقوم القيامة . يقعنسس ويشمخر ، ولكنهـا عاصفة تمر . وقيدُ شوكٍ وبلان ترتفع ألسنة لهيبه حتى تلاقي السقف ، ثم تهمد

النار وتخمد ، فاذا خفت غضبه فلا تيأس من رضاه القريب جداً .

شبلي تاريخ حقبة لبنانيـة ، وليس يستطاع تأريخ حقبة في مثل هـذا المقام ، ولكن لا بد مما يقال ، أو لا بد مما له علاقة بشعر الرجل وأدبـه . فالمعركة الأدبية التي نشبت حوله في فجر هذا القرن أشبه بمعركة قروم القرن التاسع عشر : الشدياق وأعوانه ، واليازجي وأنصاره . وإذا كانت هـذه المعركة محلية ودون هاتيك ديمومة وحدّة فقد انجلت عن غنائم أدبية وكانت لنا مدرسة ثانية .

كنت يومئذ في مدرسة الحكمة . وكان يوم أحد ، فدعانا استاذنا المـلاط ليمرننا على تمثيل روايته « الذخيرة » ، فغادرنا قاعة الدرس مبتهجين لاننـا استرحنا من رؤية وجه الراعي الحامض . وما توسطنا « الليوان » حتى رأينا النمر غضبان ، ورأينا الأستاذ بشاره عبد الله الخوري يصفر ويخضر ، والشيخ ابراهيم المنذر يشير بيديه وعلى فمه ابتسامة حائرة . وهتف الملاط بنـا : امشوا . ومشى ومشينا ، وراح المنذر وبشاره الخوري ، وكانت دقيقة لهـا ما بعدها في تاريخ نهضتنا .

تجمع ثلاثة على شبلي : المنذر ، وبولس زين ، ويوسف مراد ، وكل واحد من هؤلاء عارف باسرار اللغة وان لم تكن له شاعرية شبلي وترسله ، فراحوا ينتقدونه لغوياً ، على طريقة الشيخ ابراهيم اليازجي في لغة الجرائد . ابتدأوا بمسرحيته (الفرد الكبير) فوقعوا فيها على اخطاء كثيرة ، فكان لنا من مطالعة نقدهم فوائد جمة .

قد تقول ومـا علاقـة بولس زين ، وكيف دخل في القضية « شخصاً ثالثاً » ؟ .

— كان بولس زين محامياً . وكان تامر الملاط ، شقيق شبلي ، قاضياً في كسروان ، فكان إذا جاء زين ليرافع ، ومن عادته التطويل الممل ، ضاق به صدر الملاط ، وكان ضيقاً بلا سبب ، واسكته بهذه العبارة : صه يا رجل .

ودارت الأيام دورتها ، فعزل مظفر باشا تامر الملاط وعين بولس زين قاضياً لمحاكمته ، فكان إذا حاول تامر ان يتكلم اسكته زين بقوله : صهن يا رجل . أي اسكت ابداً .

هذا ما حمل بولس زين على المساهمة في نقد استاذنا . وانفتح لهم صدر جريدة لبنان لابراهيم الأسود ، عدو بيت الملاط . كان الأسود مقرباً من مظفر باشا متصرف لبنان ، واليه يعزى تعيين بولس زين قاضياً . وهكذا اتفقت الأغراض وكانت تلك المعركة . ولكن النقد ينفع ولا يضر ، ولو كان من العدو ، أما قال الشاعر :

عداتي لهم فضل عليّ ومنة   فلا أبعد الرحمن عني الاعاديا
هم كشفوا عن زلتي فاجتنبتها   وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

فكما تتعلم كيف يكون الدينار الزيف حين يعيده اليك الصيرفي ، وكذلك يفيدك نقد الكلام . فلا تلعن أبا الناقد ولا تحرق دينه ، فليس للناقد دين ولا مركع ..

قد يقال نراك استعجلت هذه المرة ، فمن عادتك ان تبقى الكتب عندك شهوراً واحياناً سنة وأكثر . قلت : وهناك سبب آخر غير الذي تقدم ذكره وهو انني أعرف أكثر شعر الملاط على غزارته وكثرته ، فاللهم زد وبارك . هذا هو الجزء الثاني منه المتضمن الألوف من الأبيات ، وهو لو جعله دواوين ، لكان له بضعة عشر ديواناً من طراز دواوين هذا الزمان . ان هذا الديوان الضخم الفخم لاشبه بفساطين وسراويل السيدات القديمة التي لو فصلت قصيرة مزمكة ، لكسا الفسطان الواحد منها بضع نساء .. ولكن استاذنا أراد تعبئة أكبر كمية ممكنة في عدل واحد .

لقد اساء استاذنا إلى نفسه العتيدة في تاريخ الأدب ، فسوف يقال – بعد العمر الطويل – له ثلاث مسرحيات ورواية مترجمة ، وديوان شعر ضخم .

فلو فصلنا ديوانه – فسطان الملكة فكتوريا – على الطراز الدارج اليوم

لكان لنا منه ، على الأقل ، عشرة دواوين ، كل واحد منها قائم برأسه وفيه وحدة . فالقصائد التي عنوانها وقفاتي في بلاد العرب ، ديوان كبير لو صفف على طريقة علب الشوكولاطا .. أي في كل صفحة بيتان ثلاثة . وقصائده القصصية ديوان آخر لا يقل عنه حجماً ، ويهوديت مسرحية شعرية تعبيء كتاباً ، وغزله ديوان ، واجتماعياته ديوان .

لقد ظلم الأستاذ نفسه ، لأنه لم يرتب مخزنه الكبير على طريقة الـ ا.ب.ث. بل كوّم هذا الشعر فكان لنا منه بيدر كثير الغلة ، فاذا سقط منه تحت الغربال مقدار تبقى مقادير تملأ بهواً لا ديواناً .

فيا معلمي العزيز : إذا عجزنا عن اقامة يوبيلك الذهبي فديوانك هذا يقيم لك الآن ، وفي كل أوان ، يوبيلا الماسيا . ان فيه منه مـــا يقاس بالدرهم لا بالقيراط .

ولا يتوهمن أحد ان ما قلته يعفيك من النقد ، فالناس لا ينقدون الا الذهب اما النحاس فمن يقيم له وزناً . أنت تراثنا الغالي والموعد الغد . ومعاذ الله ان يلقيك العقوق من البنين .. فعلى كبر سني ، وشيبي بحمد الله غير وقار ، كما قال أبو نواس ، ما زلت أسعد وأعتز يوم أراك وأبوس يدك الطاهرة كلما التقينا .

ولكن كل هذا الحب والإجلال لا يفل قلمي ولا يشلّ فكري أمام مهابتك.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً ان تعد معايبه

جاء في رسائل رسول الأمم : على فم شاهدين أو ثلاثة تقوم كلمة . وفي عنق هذا الديوان الأغر تميمتان نفث في عقدهما شاعران قارحان : شكيب ارسلان وخليل مطران . فديوان الملاط ، إذن ، أصيل مطهم ، حجته برقبته، كما يقول الفرسان .

ولكن هل تحول هذه التعويذة دون قول كلمتنا فيه ؟ لا . ومـــا دمنا لم نقف بعد على حقيقة الجمال ولم نعلم إذا كان موجوداً في نفس الناظر أم في

نفس المنظور ، فالمجال أمامنا واسع . ولذلك قال الأولون : لولا اختلاف النظر ما نفقت السلعات .

ما هذه أول مرة اتجاسر فيها وأدخل قبة العهد وقدس الأقداس ، ففي « على المحك ، ومجددون ومجترون ، ودمقس وارجوان » كلام عن شاعر الأرز. واني لأخشى أن اكرر ما قلت حين اتحدث عن هذا الجزء من ديوان شاعرنا الكبير شبلي بك ملاط . فالملاط مثّل لبنان في الأقطار الشقيقة امثل تمثيل ، فكان كما قال الفرزدق في المرحومين جدوده : برزوا كأنهم الجبال المثّل . ان شبلي نموذج لبناني قح ، ففي عتوه وشموخه ، مثال صادق للجبل الأشم، وكأنه قد أحس ذلك في أعماق نفسه فقال :

انا فلذة صخرية مقطوعة من ذلك الجبل الأشم الراقي
انا جذع لبنان القديم فما ذوى ورقي ولا لوت الشدائد ساقي

أشهد انك لست تقول معي – ان رأيته والنفس خضرا – انه في الثمانين ربيعاً..

وفي مكان آخر ، بعد ما حمد فخامة الرئيس وأثنى عليه ، راح يطرح الصوت ويعرض رمحه هاتفاً :

قل للألى شادوا المطار بخلدة انا قبلهم بالأرز كان مطاري
لا قمة ، لا ايكة إلا على شجراتها غنّى وطار هزاري

ولئن شملت ولاية شوقي الشرق كله حين قال : كان شعري الغناء في فرح الشرق الخ ، فشبلي أراد ان يحصر امارته في هذا الجبل مع مراعاة العلاقات الطيبة وحسن الجوار.. لم يشأ ان تتسع رقعة ملكه فما خسر ولا ضعف قريضه، لأنه ما تكلف ولا طمع ، والطمع قلما نفع ..

والآن فلننقل كلمة عامة في شعر استاذنا الجليل : في شاعرنا كثير من ملامح البحتري ، فهو مثله لا يفصل الكلام على قدّ المعنى ، بل يدع معانيه تخرج من نظامه . بحتري في ألفاظه السهلة المنتقاة ، بحتري في تقطيع أبياته أجزاء متساوية ، فكأن كل قافية من قوافيه (قرار) العوّاد ، حين ينطح

برأسه اللاشيء وتجهز ريشته على النغم ، فتصعد روحه وتتعالى الآهات .

في شعر شبلي سرعة النهر المنحدر . أما على المنبر ، فهو مكر مفر ، ينصب وينقض كجلمود صخره حطه السيل من عل . لا يترك لك شبلي مجـــالاً متى أنشد ، فأنت مسيّر لا مخيّر . تجرفك (حامولة) النهر فقد تصفق للاشيء ومع ذلك تصفق بشدة تشبه الهوس .

وإذا عدت إلى ذلك الشعر الذي ارقصك واسكرك انشاد قائله ، شككت في بعضه ، وعجبت لضعيف شعر شبلي الذي يغلب قوي غيره في الميدان . ان هذا هو الذي يدلك على ان الشعر موسيقى ، ويجلو لك سر قول العرب : انشد فلان قصيدة .

وشعر شبلي قليل الظلال كثير الأنوار ، ترتاح العين حين تقع على صوره ، ولكنها قلما تكتشف فيه شيئاً فيما بعد ، وهذا مـا يجعل صوره ، على قلتها ، باهتة . فاذا أردت مثلاً للشعر المطبوع في هـــذا الزمان ، فاقرأ شعر شبلي . ليس شبلي من الشعراء المككين المتصنعين ، فبنات أفكاره لا يعرفن البودرة والحمرة والمانيكير . هن أشبه بظباء فلاة المتنبي . أما خاصته المثلى فهي تلك السهولة النادرة الوجود ، ولكني لا أحمدها كثيراً متى جمعت كل موزون .

ان هذه السهولة محمودة جـــداً في شعره القصصي ، فهو لو فكر في نظم ملحمة لما سبقه شاعر من الناطقين بالضاد . انه ومعروف الرصافي خـــير من قص . فشبلي هين لين ، ضرب برأسه ، ورفس برجليه عمود الشعر ، منذ خمسين عامـــاً . أما الرصافي فشديد الاسر وما تنكب عن طريق السلف المعبدة .

ان عبد الله البستاني معلم شكيب ارسلان والمـــلاط ووديع عقل وأمين تقي الدين وغيرهم من شعراء الطراز الأول – المخضرمين – كان أول من نقد الحبة أمام تلاميذه ، وعلمهم ذلك كما تعلم الدجاجة فراخها . نظم المعلم عبدالله حكاية شعرية عنوانها (الفرصاد) ومطلعها :

وذات صيانـــة عقدت يمينا   على حب امرىء عقداً متينا

فاقتدى به تلميذه شبلي ونظم اقاصيصه الشعرية التي أولها :

طفلة فوق سرير من خشب   في زوايا بيت صياد قديم

وهنا اريد أن اسأل معلمي: كيف راح ذاك الشطر الذي حفظته منذ نصف قرن هتفوا طوبى لثدي ارضعك ؟ ! اخفت يا استاذي من الخليل وسيبويه ؟ أم نهاك (معلم ذمتك) فحذفته ، وهو تلك الماسة الرائعة !

لقد جليت في اغراض الشاعر الكثيرة ولكنك كنت الشاعر الأوحد في القصص . فقريحتك السيالة ، وهي أقوى من خيالك ، هي التي سيرتك في هذه الطريق .

وإذا قرأنا مقدمة هذا الديوان الضخم رأينـــا الشاعر العظيم يتأسف في (الصفحة ٢٤) على ضياع ترجمتـه لقصيدة بحيرة لامرتـــين ، حتى إذا بلغ (الصفحة ٤٩٧) نشرها برمتها ونسي ما قال . فعلى كل الحمد لله على السلامـة ضاعت ولقيناها .. انها قصيدة موفقة يؤسف عليها ، وكم كنت أتمنى ان يضيع غيرها من ديوان استاذي . مـا اعني إلا بعض شعر المناسبات الذي هو أشبه بالحكي منه بالشعر . رحم الله أبا تمام الذي قال : « موقف الشاعر من شعره موقف الأب من بنيه فهو لا يتمنى هلاك أحد منهم . »

وبعد فقلما خـلا ديوان شاعر من الشعر المتخلف عن رفاقه ، أمـــا قال فيكتور هيغو — الترجمة لحافظ ابراهيم — :

انا كالمنجم تـبر وحصى   فاطرحوا تربي وصونوا ذهبي

فلنصن ذهب الأستاذ ، وأما التراب فالى التراب يعود .

ان لشاعرنا اسوة بالشعراء الكبار . أما قالوا قبلنا : ان رذل المتنبي ليس تحته تحت . ومع ذلك سمعناه يقول :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي   إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

ومثله قال الملاط :

من كل قافية ترن كأنها اوتار عود في بنان الموصلي
يمضي جرير والفرزدق دونها ويذوب من حسدٍ فؤاد الأخطل

طبعاً يريد استاذنا اخطل الأمس لا غيره .

وقد عجبت لأستاذي ، وقد كان مديراً في اهدن ، كيف يقول دير مار قزحيا ، وقزحيا اسم المكان لا القديس . ان هذا القديس اختصاصي باخراج الشياطين وطردها وأظنه طرد شيطان شبلي فقال فيه تلك الأبيات الباردة . اظن ان موقف الشاعر من الدير ورئيسه قد كان كموقف بشار من ربابة ربّة البيت .. احتفى قدس رئيس دير قزحيا بالقايمقام شبلي فقال فيه ما قال .. فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر .

وقف شاعر الأرز أمام أروع منظر لبناني . النهر تحت قدميه ، والجبال تحدق به وتحدق اليه بأعين كهوفها ، والقمم منتصبة كالجبابرة لتحمي ذلك المعقل الحصين ، ومع ذلك لم يقل شاعرنا شيئاً . ما شغل باله إلا معجزات (مار قزحيا) ، وترميم — المحترم — السير علي الدير ..

وهنا جاءتني كلمة اكره رجعتها خائبة إلا وهي ان معلمي شاعر بشر أكثر منه شاعر طبيعة ، فما الهمته هذه إلا كلاماً عادياً . واني اعزو ذلك إلى نشأته الأولى . قد درج وشب في زمن كان الشعر فيه يقال في الناس فقط . وما شعره القصصي الذي فاق فيه معاصريه إلا من ذاك ، وان لم يكن هو هو .. ولكنه يجيد حين يعرض لوصف مشهد اقتضته القصة ان يصفه ، مثل وصف البحر مثلاً ، في الجمال والكبرياء . والعجيب فيه هو انه إذا شرع يقص يخلص شعره من تلك الزنمات التي تتعلق به في أغراضه الأخرى فتشوه محاسنه .

وبكلمة مختصرة وأخيرة أراني مضطراً إلى ان أقول ، وآمل ان لا أغضب

الملاط كما اغضبت الفياض من قبل : ان شعره اشبه بحقل من الزهور المختلفة . الوردة حد القويسة ، والاقحوان حد بخور مريم ، وشقائق النعمان بين الاعشاب المختلفة ، واللزان بجوار القندول ، ولكليهما زهر وعطر وجمال .

انك لتظفر من كل قصيدة من قصائده الطوال — وهي كثيرة — بما يظفر به المؤمن من الحقل يوم الجمعة العظيمة ، فيعود حاملا الى يسوع ، عريس الاحلام والآلام ، باضمامة زهر طريفة ، واكليل شوك إذا شاء ...

بارك الله في عمر معلمي ، وحسبي رضاه .

جعبة الصيّاد

في جعبة سعيد فريحه سهام ولكنها اخف من ريش النعام ، وصاحبها صياد اي صياد . ولست ارى من صوّره على جلدة كتابه في تلك الانحناءة العميقة الا ظالماً له . فهو لا يحتاج الى مثلها الا في صيد الفيلة والتماسيح ... امـــا ضرباته الاخرى فيرسلها على الهينة ومن تحت ابطه ..

لقـــد سئمنا المقلدين ومومياءاتهم ، بل تلك الاحذية الجاهزة ... كانوا يقولون فيما مضى : فلان شاعر مطبوع ، وهم يريدون انه يقول الشعر عفـــو طبعه . ان هذه الكلمة تصح في سعيد الذي يعترف ان الاستاذ كنيدر ، صاحب جريدة التقدم الحلبية ، هو من علمه كتابة التاء وغيرها . فغير قليل ان تؤدي تلك البداية إلى هذه النهاية ، ويصير سعيد فريحة كاتباً نسيج وحده أي صاحب اسلوب هين لين ، يفهمه العامي ويرضى عنـــه الفصيح المتنطع . قد يكون سعيد كشمشون الذي لم يمر على رأسه موسى ، أي لم يعل رأسه سقف مدرسة ولا غصن سنديانة .. ومع ذلك فاق الكثيرين ممن تتلمذوا للأئمة ، وقتلوا الكتب الصفراء درساً حتى اصفرت وجوههم ، فوجوه قرائهم ...

اقول هذا بعد مطالعتي لكتابه «جعبة الصياد» التي اخرجتها دار المعارف المصرية مطرزة مدبجة كتلك الجعاب التي كانت تنسجها عذارى لبنان لمـــن تيّمهن من الشباب السمر وفتنهن كما فتن قلم سعيد قراءه . ان قلم سعيد لا يؤلم ولو نفذ إلى الصميم ، وضربته الخاطفة لا توجع لانه لا يثنّي . وكل من يذوقون طعمها لا يستثقلون تلك اليد التي تسددها .

أطلت جعبة الصياد على ديوان الأدب وعليها تعويذتان، وفي تعبيرنا اللبناني خرزتا عين ...

المقدمة للشيخ خليل تقي الدين ، والختام للدكتور سهيل ادريس . اما الذي عندي فهو ان سعيد فريحة « حاف » غني عن التعريف لان قراءه لا يعدون ولا يحصون . ما أظن ان هذا الجواد الأصيل كان يحتاج إلى هذه الناصية وذلك الذيل لولا دخوله ، جديداً ، إلى كاتدرائية الادب الارستقراطي ، بينما هو ما اعتاد الجلوس إلا في قرنة كنيسة قروية ...

لا أرانا محتاجين الى مذاكرة سيبويه والفراء والخليل وابن منظور حين نقرظ أو ننتقد جعبة سعيد فريحة ، فما فيها غير الفاظ لبنانية فصيحة عامية ، ولو لم يقل الدكتور ادريس في هداب الجعبة ما يلي : « لست ارى في جعبة الصياد سيئات لسببين : اولهما ان صاحبه وكل اليّ ان ازيل منه السيئات قبل دفعها للطبع ، فلا يعقل ان ابقي على شيء منها ، لما خطر لي ان اقول فيها شيئاً .

اجل ان الاختيار جيد، والغربال غير واسع العينات ، وكل ما يقصه الاستاذ فريحه خالعاً عليه طيلسان ظرفه وبرنس أنسه جميل ، وطيب ، وحلو يؤكل بالعيون . ولكن الى الصديق الاديب المرتجى الدكتور ادريس اقول : كنت تقيّد ألفاظاً فصيحة عامية بين خطين، وكنت تترك ألفاظاً عامية تسرح وتمرح. فحرت في الأمر ولم أفهم السر . وهناك شيء آخر كثيراً ما وجدته مثل : قلت : لِمْ لا . ثم بعد اسطر في آخر الصفحة ، تأتي هذه العبارة : بتسلم عليك خالتي ، وبتترجاك . فاذا كانت هذه من كلام الولد ، فليست « لِمْ » من كلام سعيد .

وقال سعيد في مقدمته : « أما اذا وجدت فيه ما يستحق الهجاء فأرجو ان تخص به الدكتور ادريس ، وحده ، لانه هو صاحب الغربال » وانا بناء على هذا التوجيه اسأل الدكتور عن كلمة واحدة فقط ، وهي « أهل » في هذه

العبارة : لا ادري أهل كانت لي وحدي ، ام كانت موزعة الخ .. ترى الا يرى معي الدكتور سهيل ان كلمة أهل لا هي من كلام سعيد ولا من كلام الجدود رحمهم الله ... لان اداة الاستفهام لا تدخل على اداة استفهام ، ومن يأكل خبزاً بكعك ! .

وبعد فما لنا ولهذه التوافه ، فليس سعيد نحويا يلوك لسانه ولا من علماء البلاغة واللغة . فما ايسر وجود هؤلاء ، فاينما اجلت يدك تقبض على نواصي من يعرفون هذا على حقه . ولكن ليس من السهل ان تجد سعيد فريحة آخر يسد ما سد من فراغ .

عبثاً نتعب في تكوين رأي جديد في هذا الجنّي ، فالرأي مكوّن ، فلا النقد يجدي ولا التقريظ يزيده ، فكل صورة من تلك التي يوحي بها ذهنه وتخرجها مجلته تغني عن ابلغ الأقوال واثقبها ..

فكلنا معجبون بظرفه في فني الكتابة وايحاء الصور والتزاويق البليغة . فالرجل كذا خلق ولا حيلة لنا فيما خلق الله . حقاً ان الله كريم .

قرأت الجعبة كلها ، ولم اخرم منها حرفاً ، بل كببتها كما كب عبد الملك بن مروان كنانته ووجد الحجاج اصلبها عوداً واشدها مكسراً . وقد اعجبتني جداً غمزاته ولمزاته في سياحة انكلترا . ذكرني بكشف المخبا ، فأخونا سعيد وشيخنا الشدياق تشغل رأسهما المرأة دائماً . وكما تذكر الشدياق الطبيخ في لندن كذلك فعل اخونا سعيد ، ومن يقول ، بعد هذا ، ان ليس في الدنيا توارد خواطر ! فكلاهما مشغولان بالبطن وما يليه .

التهكم والالتفاتات العابرة ، والاستطرادات والقرصات الموجعة ، هي زينة كتابة صاحب الصياد ، فهنيئاً له ولقرائه بها . رأيت سعيدا او سهيلا يسمي مقال (آخر العنقود) قصة . انها قصة ، ولكن اروع قصة فنية في الجعبة هي (ليلة الميلاد) فمتى حذفنا من ختامها بضعة اسطر صارت في طليعة أقاصيصنا الحديثة . فسعيد قصصي طبعاً ، ويتفوق في الحوار . اما سلاح هذا القنفذ الفني فهو تلك التعابير الخاصة التي يلقنه اياها شيطانه المريد .

كل شيء في الجعبة لذّ لي ، الا فصل القمار ، والمرء عدو ما جهل . اني لا افهم الالفاظ التكنيكية ، ولا اعرف المحيط لأتصوره ، بل ما رأيت اللعب قط ، والحمد لله . كنت اسر حين افهم ، أما حين اصطدم باللون المحلي ، فكان يقصر حماري في العقبة . قد كنت احدث نفسي بالصعود الى السماء كايليا ، ولكني بعدما قرأت وصف سعيد لاهوال الطيران ورعباته طلقت الفكرة ثلاثاً ، وترحمت على بديع الزمان الذي قال بلسان بشر عوانة يخاطب حصانه :

أنل قدميّ ظهر الأرض أني   رأيت الأرض اثبت منك ظهرا

ما حسدت سعيدا على شيء مما ظفر به من صيد غزالات وحمام ويمام ... ولكني حسدته على رفقته لتلميذي الطاهر الاستاذ اميل البستاني الذي شهدت فجر نهاره ، ولم امتع قط بضحاه وظهره الرائعين . كنت أسمي اميل الزئبق لانه لم يكن يستقر قط . واميل من نوابغ تلاميذي ويزيد عليهم انه كان حركة دائمة ، وهذه الحركة كانت تبشرني بالنجاح الفلاح ، كما كانت تتعبني أحياناً . كان وفقه الله ، عرق « الجمعيات » النابض كما هو اليوم وريد المعارضة ... وسبحان من يغير ولا يتغير .

وبعد فلنعد الى سعيد ، ان سعيد قريحة سيبقى بين كتاب الظرف والنكتة الخاصة بصاحبها دون غيره ، وهذا يكفيه . ولو وزعنا ظرفه على عشرات من ثقلاء الاقلام لأنعشتها روحه . وما ضره ان يكون حظه من الفصحى كحظه من « محاسن » بطلة « آخر العنقود » ...

معجم العلايلي

اعرني طرف زرقاء اليمامه   لأبصر ما ورا تلك العمامه

حقاً ان وراء عمامة الشيخ عبدالله العلايلي لعلماً جماً وتفكيرا فذا يوغل صاحبه في الغابات البكر ، ليكتشف الكنوز المرصودة في المجاهل . لقد حطم الشيخ عبدالله العلايلي ذرة الكلمة وأرانا القوى الكامنة في الحروف ، وأيّ شيء في الكون اقوى من الكلمة التي قالت العوام فيها : من وطـّا كلمة وطا جبلا .

وقد قال احد الانجيليين ايضاً : في البدء كان الكلمة ... إذ لم يجدوا له نعتاً اقوى من هذا النعت .

فبعد ان كانت كلماتنا مبعثرة لا تدل على شيء ، وتـــدل على كل شيء ، جاء هذا العلامة وخص كل لفظة بما تدل عليه . وهكذا صار عندنا معجم ، كمعاجم امم الأرض ، منظماً منسقاً. كان معجمنا كدكاكين السمانة والعطارين. الاكياس مكدسة : السكر حد الكبريت ، والرز الى جانب الشعير وو .. أما اليوم فقد اصبح لكل مادة عندنا مكان . كنا نقرأ مثلا في المعاجم : شقي ضد سعد ، حتى إذا ما رحنا نفتش عن معنى سعد رأيناه هكذا : سعد ضد شقي . وفسر الماء بعد الجهد بالماء ...

أجل فجـّر العلايلي الذرة اللغوية ولم يكلفنا معمله قرشا واحداً ... حمل على عاتقه أثقـل الاعباء حين هدم صروح المعاجم ليشيدها من جديد بحجارة فيها النحت والقلب والابدال ، فجاءت خدمته من أجلّ الخدمات واسناهـا لأن اللغة هي العروة الوثقى .

عشرين عاماً قضاها هذا العلامة الاكبر معتكفاً في بيته . سميره كتابه ، ونديمه قلمه . يفكر ويدوّن ويستنبط واجرته اجره . لم يطلب معونة احد غير ربه وعقله – عفواً نسينا سعيد عقل المنوه به في مقدمة المعجم – حتى إذا مـا فرغ من التفتيش عاد الى الوضع ، والعلماء يترقبون انبثاق هذا المعين ، فاطلت علينا هذه الدفقة من ذلك الينبوع الغزير فمحت وصمة دمغنا بها ابن منظور حين كتب معجمه لسان العرب وقال لنا : خذوا لغتكم من اعجمي .

والآن يحق لعلامتنا الشيخ عبد الله العلايلي ان يخاطب أمته قائلا : خذي لغتك وأرقى لغات المسكونة في كتاب واحد .

وليس على الله بمستكبر ان يجمع العالم في واحد

منذ قرن بالضبط ظهر « سر الليال » لاحمد فارس الشدياق فاحـــدث انقلاباً كبيراً في مفهوم لغة الضاد ، فهلل الناطقون بها لعلمه الجبار . وكان الله ، جلت حكمته وقدرته ، لا ينسانا فيجود علينا في كل قرن برجل وها هو ذاك الرجل .

فحين يتحدث الدارسون غداً عن الاكتشافات اللغوية في القرن العشرين سوف لا يذكرون المجامع وجهودها و « اجتهاداتها » التي نجلها ونقدرها ، بل يذكرون عبد الله العلايلي الذي عمل منفرداً ما لم يعمله العلماء مجتمعين .

وان عدّدت رجال العلم يوماً فهذا واحد بمقـام الف

قلت يا امام اللغة المعاصر ، انك اشبهت الشدياق ، وكيف لا تشبهه وانت من طرازه جسما وعقلا وبادرة ! فأنت تريد ان تطلق لفظة الأراضة على علم الجيولوجيا ، وتقول ان الابزيم عربية من بزم ، والشدياق قال : ان الكنيسة عربية مأخوذة من الكناس حيث تختبيء الغزالة . وكذلك كان النصارى ، في أول عهدهم يختبئون في الكهوف من وجه مضطهديهم .

انه ليسر لغة العرب ان يخلق لها في كل عصر احمد فارس جديد . وكما

اوضح العلايلي الوحدة المعنوية في كل جذر ، كذلك حاول الشدياق ان يخص كل حرف من حروف الالفباء بمعنى عـــام لا يحيد عنه إلا نادرا . والثنائيـة التي كثر الكلام عليها اليوم ، واتجهت الابصار نحوها قد نشأت في ظل ذاك الدماغ الجبار .

والآن يقوم عندنا رجل يعمل موسوعة يحتاج اليها كل ناطق بالضاد من اصيل ومستعرب . ففي هذه الموسوعة موسوعة العلايلي : اللغة وفقههـــا ، والعلم وتحديداته ومسمياته ، والفلسفة والتاريخ . وإذا قال العلايلي انه يفضل شرح غوامض تاريخ الامة بكلامها فهو على حق ، فالكلمة لم تخلق الا لموجود يعرف بها ، كما يخلق الاسم للطفل الجديد .

الكلمة كائن حي خالد ، لانها تبقى حية بعد الحي لتدل على انه وجـد . وما وجدت الا لتصور كائناً حقيقياً أو توّهمياً ، كما عبر الشيخ عن الميثولوجيا .

كنا نشكو من معاجمنا خلطها الحقيقة بالمجاز فجاء من نظم ورتب ، وكلف الكلمة جهدها ، وبعدما كانت اللفظة « مشاعاً » حددت ملكيتها ، فجـــاء معجمه موسوعة حقاً لا ينقصها الا الاعلام ، ولعله يخصها بجزء فيكون كتابـه معجم القرن العشرين .

فحسبك منه انه ذكر الابركسيس او الابركساس ، وسيذكر ، ان شاء الله ، في الاجزاء الآتية : النافور ، والشحيمة ، والجلبان ، والسنكساروالريش قربان ، والزياح والجناز ، وغيرها وغيرها ، فيسهل فهمي اما ، خاصة على القارىء العربي ، في كل قطر . ويعرف كل جار منا ما عند جاره .

قلت ان هذه الموسوعة رحيبة الجوانب ضمت القديم والحديث وشبهتها بالمخزن ، ولعلي ظلمتها في ذلك التشبيه الضيق ، فهي اصح تشبيها بالفبارك العظمى مثل معمل سانت اتيان مثلا الذي تجد فيه كل حوائجك . .

ليس المجال الآن مجال مناقشة ولكنه لا بد من الاشارة الى شيء وهو أن الشيخ ، متع الله العربيـة بطول بقاه ، قد تمادى في الخلق حتى شاء ان يضع

الفاظاً عربية موضع الفاظ صقلتها الألسنة واستعملتها الاقلام . فمن يستعمل ، مثلا ، كلمة الاجيلة بدلاً من الكمبيالة أو السند ؟ والابادية للسريالية ، والمصفق للبورصة ، والترّهية للاساطير – الميثولوجيا – والنهجية الكلاسيكية ، والأجد للباتون ، والأبير للجراح الماهر جداً . ثم ما حاجتنا الى اشتقاق فعـــل من ابريل – نيسان – لتقول ابرل ابرلة وابرولة أي كذبة نيسانية ! أظنك اهتممت بها يا شيخنا الكبير لأن كل الأيام عند اكثرنا أول نيسان..

و « الابريغونية » التي نشكر لك تعريفنا بها وبغيرها من الشؤون والشجون الممتعة ، ما حاجتنا الى اشتقاق فعل من لفظتها لنقول : ابرغ أي أخـذ بتقاليد ابريغون . أن رهبانياتنا ، وابناؤها من قومنا عرب اقحاح ، يعتبون علينا إذا لم نشتق لهم فعلا ...

واقول بلا محاباة : اني اؤثر أن نعرّب كما عرب العباسيون ، أي أن نفعل كما يفعل المهندس حـين يخطط طريق ضيعة ، فهو أول ما يتعرف إلى طريق القدم والحافر ، ثم يماشيها ويحورها طبقاً لفنه .

اني أوثر التعريب والنحت ، وأن قال علامتنا الشيخ عبد الله أن اللغـــة العربية لا تبيح النحت « جنوحاً وراء ما في طبيعتها من رغبة في التجسيد الكامل . »

أليس عنـــد الفرنسيين كلمات بمعنى مسكين ودرويش وبرنس ! فلماذا فرنسوها هكذا ؟ فلنفعل مثلهم .

كنت اتوقع من الشيخ الذي أجلّ علمه اكبر اجـلال ان ينحو نحوهم في المسميات ، وهو قد فعل ، ولكنه في أماكن قد ابعد اللفظة عن مدلولها المعاصر وفتش لها عن اسم في مخلفات جيش المحاربين القدماء ..

فانا أوافقه على « تأصيل » أبرلَ وأبرغ لو كنا في حاجة اليهـا . اني أحب جداً أن يقال : تلفن يتلفن تلفنة ، بدلاً من هتف المتلبسة .

ولكن كيفما دارت بهذه الموسوعة الحال ، وكيفما كان حظ بعض الفاظها من الاستعمال ، فقد دلت على فهم لسر اللغة منقطع النظير وستكون موسوعة الشيخ العلايلي كتاب القرن العشرين في احياء اللغة العربية ومعرفة اسرارها . انه عمل تعجز عنه الجبابرة والعمالقة ، ولكن الامثال تصدق دائماً : الرجال لا تقاس بالذراع .

فهنيئاً لنا وللعلايلي كتابه الذي هو نسيج وحده . وعسى أن يتحرك أحد من رجال هذا العصر ، حكومةً وشعباً ، كما تحرك ذاك الامير الهندي –لست في مكتبتي لاذكر اسمه – وطبع كتاب سر الليال .

حول حديث القصة

اي لون من الوان القصة كان أوفى نصيباً من النجاح في البلاد العربية[1] ؟

– إذا كانت تعني بالنجاح الرواج ، فروايات زيدان كانت تقرأ منذ عشرات السنين وما زالت تقرأ . أما إذا كنت تقصد الفن فعندنا قصص انجح منهـا . وهنا لا بـد من القول : أن القصة أنواع . وان القصص المتمسكة باذيال الفن لا تروج كثيراً عندنا ، لأن جمهورنا لا يدرك ذلك المجهود كل الادراك . تهمـه الحكاية والعقدة الغريبة .

– في أي البلاد العربية كانت القصة أكثر رواجاً ؟

– وهل هنالك سوق غير مصر ؟ هناك البندر يا أخي محمداً . اكتب على كتابك طبـع في مصر تكفل له قراء . وإذا كنت تقصد بأين راجت ، أين نشأت ، أو أين اقبل على تأليفها ، فجوابه ان القصص الأولى من عمـل سليم البستاني وزيدان وصروف وانطون وغيرهم وغيرهم ، أما الأقصوصة فمن عمـل جبران ثم احمد تيمور . هؤلاء هم رواد القصة والاقصوصة . ثم جاء غيرهم يحـذو حذوهم فصار عندنا قصصيون . أنا متفائل لا متشائم ، نعم عندنا قصص وأقاصيص وجل من لا عيب فيه وعلا .

– هل استكملت القصة العربية كامل شروط القصة الحديثة ؟

– هنالك قصصيون كفـّوا ووفـّوا . وقبل وبعد فأنا لا أؤمن بالهندازة ليصير القص عليها ، دون ان نحيد عنها قيد شعرة . فعلى الفنان ان يخلـق هندازته ، بشرط ان لا يتعدى المبادىء العامة المتفق عليها . وهذه المبادىء

(١) كان المستنطق في هذه الجلسة الاستاذ محمد قرا علي .

لم تكن لتوضع ، لولا انها نسخة عن الطبيعة . فالشرع ، كما تقول المعتزلة ، لم يجعل الشيء حسناً بأمره به . فالقصة اذن يجب ان تكون طبيعية ؛ وعندنا قصص كثيرة مستوفاة هذه الشروط . لا اسمي لئلا انسى أحداً منهم ، والادباء كما تعلم وأعلم يغضبون ، فمالنا وسخطهم . اما اعتقاد بعضنا اننا متأخرون جداً ، فهذا تطرف . نعم لم نبلغ القمة بعد ، ولكننا على الاقل صرنا على اكتاف الجبل ، وهذا كاف ، فالقصة عندنا صغيرة السن ، ومع ذلك صارت تشتهى ...

– هل ترى ان يكون للقصة هدف اجتماعي ؟

– وأي عمل فني بلا هدف يا استاذي . ان القصة الرائعة لا تكون بلا هدف اجتماعي ، فهي صورة عن المجتمع . أما الذي لا يصح فهو ان يكون القصصي واعظاً . يجب ان يختفي القصصي وراء شخوصهم ويسيرهم دون ان يُرى . لا تنس دون ان يرى ، فموقف القصاص من ابطاله كموقف الملقن من الممثل . عليه ان يلقن ، وعليه أن لا يسمع صوته الناس . وكذلك على القصصي أن يوجه بطله إلى الهدف دون أن يدرك قصده ، لئلا يعرقل سير القصة . فعيب مسرحيات شوقي ، وروايات فرح انطون ، هو ان المؤلفين لا يختفيان وراء ابطالهم . كثيراً ما يقف فرح انطون ليطرح الصوت ويوبخ الانسانية ، وهذا عيب قصص فرح الاكبر بالنظر للفن . وعيب مسرحيات شوقي هو أنه فكر بالشعر اكثر من تفكيره بالمسرح . كان ينظم ويفكر بعبد الوهاب لا بالمسرح والنظارة .

– ما هي الاسباب التي يمكن ان نرجع اليها اهمال الادب العربي القديم للقصة ؟

– الأدب العربي اهمل القصة ، ومن قال ذلك ؟ الأدب العربي ابو القصة في العالم . فهذا كتاب الأدب المقارن للدكتور بول فان تياجم لا يذكر أدب العرب إلا بسبب الف ليلة وليلة . ففي الف ليلة وليلة دخل

الأدب العربي في الاداب العالمية واحتل الصدر .

وهذا المتمشرق الانكليزي ، جب ، عضو المجمع الملكي العربي المصري ، هذا الاستاذ المختص بدراسة القصة يقول : ان الغرب لم يعرف القصة قبل اطلاعه على الف ليلة وليلة . وهذا الأديب العظيم اندره جيد يرى الف ليلة وليلة بمقام التوراة .

ألأن الف ليلة وليلة ليست على نسق القصة اليوم ، نقول ان العرب أهملوا القصة ؟ هل لي أن أطلب من جد جدي ان يلبس مثلي ! وهل إذا لم يلبس مثلي أعده عارياً أو اهمل اللبس . جدّي لم يكن من العراة ، ولكنه ماشي زمانه ولكل زمان زي .

— هل عرف العرب المسرحية وما هو اثر احمد شوقي في هذا الميدان ؟

— المسرحية ، لا . لم يؤلفوا في المسرح ، ولو كان لهم مسرح لكان الجاحظ موليرنا في بخلائه . اما شوقي فجزاه الله خيراً ، وقد وفى قسطه للمسرح ونام . وعلى الذرية ان تسير بالعمل الى التمام . شاء أن يكون شاعراً جامعاً فكان .

ـ من هو القصاص الأول في أدبنا الحديث ؟ وهل يستحق ان يجلس في صف القصاص العالميين ؟

— هو ، هو ، زدتها يا شيخ . انا رجل ميسور امري أعسر ، كما قالت نعم لصاحبها عمر . ولكن بما ان اسهم الدكتور طه حسين في صعود وهومرشح لجائزة نوبل كما يقولون ، وهذا فخر لنا نحن العرب ، فلا بأس ان يجلس مع القصصيين العالميين .. . يجب أن نثق بأنفسنا يا استاذ .

— اي قصة عربية تختار لتكون من القصص العالمية ؟

— اية قصة عربية اختار لتكون من القصص العالمية .. لا جواب على هذا السؤال . بلى كان بوسعي ان اختار واحدة من قصص طه حسين لولا خروجه على قوانين القصة واعلانه العصيان المدني في « المعذبون في الارض » .

وكما حرم هو المتنبي من الشعر الملحمي لأنه فكر بذاته ، فأنا احتج على ... عن طه للسبب عينه ..

— هل يعتبر طه حسين قصاصاً ، وما منزلة كتابه الايام في عالم القصة ؟

— معلوم ! ألم تسمع ما قلنا ، معلوم ، معلوم . طـــه حسين ، قصاص وعنصر القص سائد في جميع ما كتب ويكتب معالي الوزير طه حسين ، فهو يقص دائماً حين يكتب . وإذا لم يكن موضوعه يحتمل القص جرد طه منه أو مني ومنك شخصاً يقص عليه .. لطه حسين دعاء الكروان وشجرة البؤس ، قصتان جيدتان . أمـــا كتابه « الايام » فسيرة حياة أو مذكرات ، ولكن عنصر القص سائد فيه وان لم يكن قصة .

— انت اين تضع نفسك في عالم القصة ، وأي قصة تفضل قصصك ؟

— آه يا لالـّلي ... هذا سؤال ، اين اضع نفسي ؟ من يكون الدفتر بيـــده ويجعل نفسه من الاشقياء . اسأل الناس اين يضعوني ... النـــاس تقرر لا انا . المسيح سأل حواريه بطرس : من يقول الناس اني انا .

ان مقدرات صاحب القلم في احناك الناس يا استاذ . هم الذين يقررون ، اليوم وغداً وفي الدهر العتيد . وسألتني اية قصة افضل ، وهذه العصا من تلك العصية . اسأل نفسك ، فكل فتاة بابيها معجبة .

— هل تتوقع مستقبلا زاهراً للقصة العربية ؟

— وكيف !! القصة عندنا راكضة نحو الكمال الفني . بارك الله في الشباب وفي المطالعة . فلو تجلدوا وقرأوا وتأملوا لعملوا قصصاً تعيش . انالستمتشائماً، يزعم غيري انهم يقلدون قصصي الغرب وهذا لا يضيرهم . فتولستوي استمد من موباسان وفلوبير ، وأنـّا كارنين بنت عم مدام بوفاري ، ولكنها ليست هي . فمستقبل القصة يكونباهراً إذا عمل شبابنا قصصاً تستمد عناصرها منمحيطهم . فالغرب إذا اطلع على قصة يصح ان تحدث في كل مكان ، او تشبه محيط بلاده ، يقول كما قال الصاحب بن عباد : هذه بضاعتنا ردّت الينا .

يخيل للبعض منا ان القصة لا تكون عالمية إذا كانت ذات لون اقليمي ،

اما انا فأرى العكس ، فالناس هم هم في كل مكان . وهــــل جرت قصص دوستوفسكي في اليمن !! وهل صور بها غير روسيين .

– ما هي نصيحتك لكل من يعالج القصة ؟

– طلبك نصيحتي لكل من يعالج القصة ، معناه نصيحتي للشباب لان الكبار اكبر من النصيحة ،او بالاحرى الحصان القارح يصعب تطبيعه وترويضه. وعلى كل فنصيحتي لمعالجي القصة : ان يعنوا أولا بالمحيط ، فالقصة مسرح يجب أن ينقل القارىء اليه ، والقصة الرائعة هي تلك التي تنقلك إلى الساحة الـتي تحدث فيها .

هذه واحدة ، وواحدة ثانية ان يعنوا بابطالهم ليعرفهم القارىء . بطل الرواية مثلي ومثلك يا اخي محمدا ... وقد يحيا عمرا اطول من اعمار ابطال حقيقيين إذا كان خالقه قادرا . لا بد لبطل القصة من بطاقة هوية . والعلامة الفارقة مهمة جداً في الهوية .

وواحدة ثالثة ان ينطق اشخاص القصة بما يمكن ان يحكوه او يصدر عن مثلهم ، وهذا رأي شيخنا الجاحظ .

فالحوار عنصر اساسي في القصة .

وهناك أمر يجب الانتباه اليه وهو ان تكون الحوادث ممكنة الوقوع .

وأخيرا العنصر الشعري في انشاء القصة ، فالقصة محتاجة اليه جدا .

القصة قطعة فنية ، ومعظم قصصيي العالم شعراء.

ان اقدام المتأدبين على القصة قبل ان تكتمل لهم آلاتها يضيعهم . ليست القصة بالأمر الهين . لا أذكر اين قرأت ان الثلاثين وما دون هو سن الشعر ، وما فوق الثلاثين هو زمن القصة ، أما وقت المذكرات او الذكريات ، فمن الخمسين فصاعدا. ما عدا مذكراتك الطريفة ، فأنت مثلي لا تزال تحت الثلاثين، طبعاً ، وان كتبت مذكرات طريفة .

اكثر منها يا استاذ ولا تسلني اكثر ، فقد عييت واعييت .

سعيد تقي الدين الدرامائي

افتتح سعيد مقدمة « نخب العدو » بما يلي : انني ادفع الى المسرح العربي رائعة يفتخر بها أي درامائي كان ، في أي لغة وأي زمان ، ولئن دار في خلدك انه قد تدحرجت من فمي كلمة ادعاء ضخمة ، فأنا ادعوك الى المقابلة ، فأت بأية رائعة افرنجية وقابلها « بنخب العدو » حادثة ومواقف ونكات، واشخاصاً ومفاجآت ، وحركة وتضاد ، وشبكة فنية وسلاسة ، تجد نخب العدو تضاهي اجملهن في كل شيء ، وقد تكون دون بعضهن في روعة المأزق ولكني واثق ، من ان نهايتها هي اجمل نهاية رواية تعرفها بدون استثناء وعلى الاطلاق . (انتهى التبجح)

ربما تصدق ما تقرأ. بلى صدق . فما نقلته لك ليس من مخطوطات وعاديات رأس شمرا وحجر رشيد . انه من كتاب تستطيع ان تتناوله بسهولة . قد يكون سعيد مبالغاً فيما كتب ، ولكنه قادر على عمل كوكتيل عجيب من الجد والهزل حتى لا تدري ان كان يهزل أو يجد . ولكنه كما قال موليير — الذي تبنّى سعيد مواقف من مسرحياته — لا هزل بدون حقيقة . فسعيد في اسلوبه وسرده كلاعب السيف والترس — الحكَم — رشاقة وخفة يد ، وحركة دائمة، فما عليك إلا ان تشد حذاءك جيدا وتشمر وتلحقه .

قد يكون سعيد مبالغاً ولكنه خير من ألف مسرحيات ناجحة ، بل هو الدرامائي الأول عندنا في هذه الفترة ، وان شئت فكما كتب على قفا غابة الكافور ، والكلام للشاعر نزار قباني :

« هو اله صغير سقط من شبابيك نجمة متلألئة فشربته ارض لبنان . »

لم تدلنا كلمة « صغير » على حجم هذا الإله ، وعلى كل فأقــل جرم الهي يكون عظيماً جداً بالنسبة الينا نحن الترابيين . إذن فلأقل « النومن » قبل ان أبدأ عملي .

أؤمن بسعيد تقي الدين ، الخالق الضابط الكل ما يرى ومـا لا يرى الخ . أجل أنا أؤمن بعبقرية سعيد وبمخيلته الوثابة ، وبعبارته المصنوعـــة حديثاً ، وأويد رأيه في نفسه ، فهو دراماتيكينا في هذه الفترة ، ولو كان عنـــدنا مسرح لكان يجلس سعيد في لوج الشرف وينظر إلى الجماهير من عل ويقول للنظارة : فكروا يا ذبّان ، افهموا الفن !

وحقّ ربنا يا سعيد أنا في هذا جاد لا امزح ، أما إله صغير فهـــذا كلام هراء .. ان « لولا المحامي» التي تزدريها أنت و « نخب العدو » و «حفنة ريح» تحف نادرة ، ومع هذا لا بد من النقد . فلنفرض ان هذا العبقري إله لا نصف إله فلا بد له من نقد . فالله جل جلاله انتقد ، ولا يزال ينقد ، وأول ثورة كانت عليه : خلقتني من نار وخلقته من طين .

قد يقول القارىء أنت لم تعودنا هذا اللف والدوران فما بالك اليوم تغـــير عادتك ولا تقول كلمتك وتمشي ! ؟ فالى هذا القارىء أقول : يجب قبل كل حساب ، ان نصفي الحساب ، حساب الناقد . فسعيد ليس له عدو على الأرض إلا الناقد . أما في العالم الذي سقط منه الينا فهذا علمه عنـــد نزار قباني ..

نرى سعيد تقي الدين يزدري الناقد ويحتقر مـا يقول « فالنقد فن زائف ومهنة طفيلية . النقد يوهم صاحبه ، ولو ضمناً ، بالتفوق على المنقود . أنا انقدك ، إذاً أنا أفضل منك .. زد على ذلك ان النقد يضع بين يدي الأديب أو المتأدب موضوعاً جاهزاً فلا حاجة إلى حكّ الرأس والتنقيب عن موضوع . كذلك ليس من انتاج مهما عظم إلا وفيه نواح ضعيفة يسهل اكتشافها ، فتسري نشوة الظفر في عروق الناقد مكتشفها . كذلك التطرف يولد التطرف، والمديح بلا وزن سبب النقد الأعمى . »

ترى من أي وزن هو قول نزار قباني الذي زينت به قفا غابة الكافور .. ؟

ذاك رأي سعيد في الناقد ، كما اثبته في الصفحة الثامنة من نخب العدو، واما ما في ذيل (حفنة ريح) فيقول سعيد حين قرأ نقـــد الدكتور سهيل ادريس لنخب العدو : « شعرت بقربى تربطني بك بعد قراءة نقدك الرائع ، في جريدة بيروت ، لنخب العدو ، ولو انه اعطي لي قبل اليوم ان اطلع على مثل هـــذا النقد لترددت في قول : النقد فن زائف ومهنة طفيلية . »

اسمح لي يا سعيد ان اعود بك إلى البدء ، إلى ما قبل الخليقة عندما بدأ الله في تأليف كتابه الأعظم ، أي تكوين الكون . اما قال ليكن نور فكان النور، ورأى ان النور حسن ومضى في الخلق والتساؤل فيرى ان ما خلقه حسن حتى اليوم الأخير . أظن ان هذا التساؤل يدلك كما يدلني على انه ، تعالى ، كان ينظر إلى عمله كناقد ، حتى إذا ما رآه حسناً راح يتم تأليف كتاب الخلق المؤلف من ستة أقسام ، وفي القسم الأخير خلق الإنسان ، ولو لم يكن الله ، جل جلاله ، ناقداً لما وجه إلى أعماله هذه النظرة .

فالناقد الأول كان الله ، وهو في الوقت نفسه المؤلف الأعظم وان لم يؤلف مثل نخب العدو ! وانه اطرى عمله كما اطريت أنت مسرحيتك .. ولو لم يكن الله ناقداً ملهماً لما عرف ولا قال ان ما خلقه حسن .

قلت ان الناقد يجد موضوعاً جاهزاً ، وأنا أقول لك: نعم، ولكن المواضيع جاهزة كلها ، والذكي مثلك من يفصلها ويضعها في واجهة دكانه . ثم يبيعهـــا كأنها « استعمال » .

النقد فن يا سعيد . أما أنت فكبطل صديقك موليير تسب الناقـد وأنت ذاك . ففي جميع مسرحياتك : لولا المحامي ، ونخب العدو ، وحفنة ريح ، أنت ناقد وسأريك . أما الفرق ما بيننا فهو انك تفتش عن بطلك بين الناس ، وأنا افتش عنه بين الكتب .. اظنك قرأت مسرحية موليير « البورجوازي » استغرب ذاك البورجوازي جداً حين قال له معلم الفلسفة ان النثر هو ما يحكيه.

فقال لمامه : إذن أنا اتكلم النثر منذ اربعين عاماً دون ان أعرف ذلك . كثر الله خيرك لأنك خبرتني ذلك .

فهل تستغرب أنت أيضاً إذا قلت لك انك ناقد أدبي ثم لا تخرج من الجو الأدبي الا لتكون ناقداً من نوع آخر ؟ فانت إذن ناقد مهما اغرتــك انانيتك وحملتك على ازدراء النقد .

ان الناقد هو الذي يدل الناس على مواهب المؤلف كما سأدل على مواهبك ، وأنت ناقد يا بطل موليير ، وناقد لا يرحم . يتكلم من الأعالي وعلينا ان نضع على وجوهنا برقعاً ، كما كان يفعل موسى حين يتحدث إلى ربــه .. وإذا لم تصدقني فراجع نقدك لقصص صديقك الذي اكتشفته ، الدكتور سهيل ادريس. لقد تشكيت في مقدمة (نخب العدو) كثرة المديح المتفشي عندنا ، وكذلك تألمت من النقد ، فحيرتني والله . وأخيراً اهتديت إلى حل لهذه المعضلة وهو ان نمدح حيث يجب المدح ونقدح حيث نجد مدخلاً « للخرّبر » .

فلنبدأ عملنا .

المسرح عندنا صغير السن حديث الميلاد . نشأت مسرحياتنا الأولى لا هي عامية ولا هي فصيحة ، ثم صارت فصيحة حتى التقعّر في أواخر القرن التاسع عشر ، شعرية مع عبد الله البستاني ، وشعرية نثرية مع أديب اسحق ، وأخيراً مع نجيب الحداد . كانت مواضيعها مختلفة ولكنها كلها تمثل الطبقات العليــا أو ما أشبهها من حوادث قديمة ، إلى ان جاء شوقي ونظمها شعراً رائعــاً في مواضيع تاريخية أدبية . ونهض فرح انطون بالمسرحية فجعلهــا شعبية استقى مواضيعها من الحياة العامة . وقفز سعيد تقي الدين من مقعد المدرسة إلى المسرح وهو المتلبت بلغته ، والمتعيت بلغتنا العامية ، فكانت قفزة موفقة جــداً . وحسبك الدليل على هذا التوفيق ان يسمع مؤلفها سعيد ، في مخزن أمين أبي ياغي ، كلمة : أهلا بالنابغة ، من أمين الريحاني . فنام سعيد على اكليل الغار منذ عام ١٩٢٤ ولم يستيقظ من تلك النومة الذهبية الأحــلام الا في جزائر

الفيليبين ، الشرق الأقصى عام ١٩٣٧ . وليسمح لي ان احرف ما قال : ناخ نوخة جمل ، وقام قومة سبع . فمسرحيتنا طليانية فرنسية مع أبي المسرح اللبناني مارون النقاش ، وفرنسية انكليزية مع الذين جاؤوا بعده .

كانت تعتمد أولاً على البيان الاصطناعي لأن الذين ترجموا أو ألفوا في هذا الفن كانوا يكتبونها للقارىء ولا يفكرون بالمرسح ، ولذلك جاءت شخوصهم جامدة لا تدل على انها بشر تحيا وتتكلم كما تحيا وتتكلم ، وتروح وتجيء وتجيء وتروح. كان مؤلفوها متزمتين حتى لا ترى على المسرح وجهاً ضاحكاً هازلاً ، وإذ كان لا بد من الضحك أو الاضحاك ألفوا فصولاً مضحكة تمثل بين الفصول.

اما الهزل والدعابة والنقد والهجاء الاجتماعي فلا نكون مبالغين إذا قلنا ان سعيد تقي الدين هو الذي اشاعها في المسرحية . فالهزل يسيطر حتى على درامته ، فكأن ليس بين أبطاله واحد يحبه ، أو كأنه لم يخلق بطلاً ، أو لم يستعر من المجتمع بطلاً الا ليضحك من الناس ، أو يضحك الناس منه . وإذا كانت أبطال مهازله قومية بلدية فلا يعني هذا انه خلقها ، ولا انه استعارها من روائي آخر (كمسطرة) يعمل مثلها ، بل انها نماذج عايشها ورآها بعيني رأسه ، كما عبروا .. فهو في (لولا المحامي) مثله في نخب العدو وحفنة ريح ، يمثل اشخاصاً عايشها وآكلها وشاربها وتأمل حركاتها وسكناتها ، وراح يخلق منها قصة بعدما انطقها بما يلائمها من ألفاظ وتعابير تضحك المفلس .. وتعابير يتعمدها ويعتمد عليها في اخراج روايته ، وهو لم يبدعها كلها ولكنه جلاها وصقلها جميعاً حتى لاءمت مذهبه الفني . وهذه العبارات هي من صميم حياة ابطاله فكأنهم هم قالوا حقاً . ليست عبارة مسرحيات سعيد من المصنوعات البيانية . وهذا سر نجاحها ، ففي فم كل شخص كلمات وعبارات لا تصدر الا عنه . وإذا لم ترض أحياناً هذه العبارات البيانية فلسعيد بيان خاص به ، وليدق البيانيون رأسهم بالحيط .

تدل مسرحيات سعيد تقي الدين على عين لاقطة كعدسة المصور. ولا عجب إذا ظهرت ابطاله بهذا الوضوح فهو قد تأملهم كثيراً ، وربما ان بينهم من حمله

مرضعاً وماشاه صبياً . وهو لم ينقطع عنهم إلا حين شعر بارستقراطيته .

انه يعول كثيراً على استحسان الجماهير وضحكهم وتصفيقهم ، ومن كان كذلك عليه ان يفتش عن مثل ما يفتش عليه سعيد . ومن هنا جاءت حملات سعيد الغواشم على الناقد حتى عده طفيلياً يعيش على الهامش ، يجد موضوعه جاهزاً فيتهالك عليه كجوعان لم يرَ الخبز منذ اسبوع لحس وعطشان .

ان ضحك الجماهير وتصفيق النظارة هو عند سعيد ، الفوز الأعظم . اما الخاصة ففي فمهم التراب . وليقولوا ما شاؤوا . اما صفق الجمهور وضحك .. ولهذا يتعمد العبارة الطريفة والنكتة البارعة .

اما قال سعيد للمخرج : ازرع بين النظارة من يصفقون ، وهل في الدنيا كاتب غير سعيد يصرح بهذا . وان كان الفن الدرامي هو في اثارة الضحك واشاعة الاستحسان ، فالخراج الاصطناعي لا يعمله الا نطس الاطباء .

اما انشاء سعيد فهو معمول في مسرحياته ليحكى لا ليقرأ ، وسنعود إلى هذا في الكلام التفصيلي على مسرحياته وقصصه .

يحاول سعيد ان يقول الحقيقة دائماً ولو كانت تمس أقرب الناس اليه بل ذاته ، وهو دائماً يخرج من هزله حقيقة عملاً بقول موليير أيضاً : لا حقيقة بدون هزل ، ولا هزل بدون حقيقة . انه كالصيدلي الذي يعطيك ملبسة فيها الدواء المر ، وسيموه سماجه الطعم بالحلاوة . السر في ان تقبلها وتزدردها، والله الشافي فيما بعد .

يريد ان يضحك الجمهور ويهذب أخلاقهم ، وهذا ما يعمله كل من كانت له طباع سعيد وقريحة سعيد ، ومواهب سعيد واطلاعه الواسع على الروائع العالمية التي يريد من كل قلبه ان يعمل مثلها وقد عمل . اما هذا الهزل في الادعاء فمن بضاعة سعيد ، انه مؤمن بما يقول هازلاً فيورده لك بهذا القالب المضحك ، حتى إذا لم تصدقه عدّه هزلاً وكفى الله المؤمنين القتال .

وسعيد يخرج مقاله أحياناً بشكل تمثيلي ، وهذا يدلك على انه خلق كاتباً

مسرحياً . اقرأ حديثه مع المخرج ، بل سيرة حياته ترَ كيف مثلها تمثيلاً لا ينقصه الا المسرح والمخرج .

امـا المرسح فيعنيه ان يكون سهل الوجود ، فبـدلاً من الموبيليا لا بأس بالسحّارة ، لأنه يهدف إلى أن يكون كل شيء طبيعياً .

ليس سعيد من ذوي الانبساط والمرح وليس من ذوي الضحكة الداوية . ومواضيع مسرحياته ليست كذلك ، فمن أين ينبثق إذاً هذا الضحك ؟ في الغالب يكون التعبير مصدر ذلك ، أو التكوين الذي خلقـه لأشخاصه ، أو الموقف الذي يراه صاحبه جدياً كل الجد، بينما الآخرون يهزأون به ويضحكون من عقل صاحبه . ان تكبير الأشياء الهزيلة الحقيرة هو عنصر هـام عنده بل هو وسيلته إلى ابراز هؤلاء الأشخاص الذين عرفهم صغيرا وابتعد عنهم كبيرا . انه شيخ وانهم عوام ، فصار يسلم عليهم برؤوس أصابعه . ولكن صورتهـم كانت قد انطبعت في مخيلته ، وهو يستعيدها بتفاصيلها ساعة يشاء ، ويؤلف منها مشهده متى أراد فيأتي كل شيء طبق الأصل .

ان مشيخته جعلته يستهزيء بهم . فيجعلهم يقتتلون على لا شيء تقريباً، على (عصا النوطرة) .. صحيح ان هذا أمر واقعي ، ولكن المؤلف يحتقر تلك الحفنة من البشر . وحسبك استهزاء بهم ، عند عقد الصلح ، تقديم تلك العصا إلى بيت الحمصي كأنها صولجان ملك .. لا عصا ناطور .

اما الرواية الثانية فاسمها يدل على تقدير المؤلف لأبطالها : حفنة ريح .. ازدراء وايما ازدراء . جلّ هذه المسرحيات نقدية فـلا يفلت من قـلم المؤلف شيء ولا يسلم من لسانه أحد .. فهو ينتقد حتى أقرب الناس اليه ويجعله مثلاً لبطل من أبطاله .

ينتحل سعيد كلام ومشاهد غيره كما في ختام رواية لولا المحامي حيث يشن الغارة على موليير . فوحـدة الحال بينه وبين موليير تبرىء الموقف ، فدستور سعيد الفني دستور موليري : قاعدة القواعد هي ان ترضي وتعجب .

كل حياة سعيد قفز وجمز . فمن مدرسة مارونية اكليريكية ارستقراطية محافظة ، إلى جامعة اميركية ديمقراطية لا تعبأ بالتقاليد الموروثة ، ومن لبنان ، بل من الشوف الدرزي المحافظ ، إلى المهجر . من لبنان أرض الثرثرة والانطواء على الذات ، إلى أرض العمل حيث لا ذات إلا للدرهم والدينار ، ولا حديث غير حديث الجمع والقسمة والطرح والضرب .

شاب نشأ في بيت عتيق ، زرع في رأسه أبوه محبة هذا البيت ودعمه بكل ما له من قوى ، فراح يفتش عن الدعامة المثلى — المـال — وهناك رأى هموم الناس الكبرى فراح يضحك في مسرحياته من هموم القرية الصغرى . وانتزع من اختباراته العالمية فوائد شتى ، وصور ابطال لها إلى الساعة التي استيقظت فيها قريحته الهاجعة على اكليل الغار ، فكانت مواد مسرحياته واقاصيصه .

تنظر اليه فتحسبه جباراً عنيداً ، ولكنه يبدو لي مما قرأت له أنـه رجل طيب العنصر ، وفي إذا أحب ، دمث الأخلاق على تمام الواحه وعرض كتفيه . فذلك الهيكل الضخم الذي يبديه كمصارع أو ملاكم من الطراز الأول ، فيه نفس طيبة تنم عنها تلك التعابير التي يخلقها ، وان لم يكن من العدم ، فله فيها فضل التطبيق . الرجل ملهم بدون شك .

سعيد في نظر بعضهم يعتمد النكتة تعمداً . أما أنا فأرى ان التعمد هو عمل ارادي لا بد منه لكل من يريد ان لا يكون مقلداً . يقول هؤلاء انه متطرف في هذا ، وأنا لا أقول لهم أكثر من هذا ، أي ان سعيد تقي الدين إذا لم يوفق إلى مثل هذه العبارات في مسرحياته وأقاصيصه ومقالاته يمزق أوراقه . فغايته الأولى هي ان يستولي على الجماهير ويجرفهم في التيار الذي يصطنعه لجرفهم إلى حيث يشاء .

مسرحيات سعيد تصوير للحقائق بشكل مضحك ، أما عقدة «نخب العدو» التي كلفته اجتراح العجائب كالمسيح ، فهذه في نظري ليست بالعنصر الهام في مسرحياته ، لأن دراماته ومهازله تقوم على نماذجه وشخوصه المعمولة على قالب « استعمال » لا جاهز . بل على ذلك الحوار الرائع .

أما عيب هذا الحوار فهو ان عبارته تكون أحياناً عامية حتى يسقط الخليل وسيبويه وابن عقيـل تحت الردم . وفي لحظة يستحيل التعبير فصيحـاً حتى التقعر ، بينما يكون المتكلم واحداً بل في حوار واحد .

فهذه أم وسيم تخاطب خادمتها زليخة قائلة لها : ادجاجة أنت فتنامين قبل المغيب ؟ أخطأ هنا سعيد من جهتين أولاً لأنه قال فتنامين ، وهي فتنامي وهو لو قالها على حقها لدنت جملته قليلاً من واقع الحوار .

وفي حوار واحد أيضاً تقول زليخه : دخلك يا معلمتي ، لا أريد الذهاب إلى العين . اني كلما التقيت على العين بنساء عائلة الحمصي يهزأن بي . والبارحة قالت لي ورد الحمصي ساخرة : اننا نوصد الأبواب في النهار .

فبعد دخلك يا معلمتي تجيء كلمة : اني ، ونوصد .

وبعد قول أم وسيم أيضاً : يا تقبر أمك ، تأتي كلمة : لماذا تأخرتم .

قد يقول سعيد وكيف تقول ؟ وأنا اجيبه : تقول : ليتك تقبر امك ، بدلاً من يا تقبر امك. والخادمة تقول : نغلق الأبواب بدلاً من اننا نوصد التي لا ينطق بها لبناني .

وهنا يلذ لي أن اذكر عبارة لافهم كل مسرحي وقصصي كيف يدني حواره من طبيعة الحكي . جاءت هذه العبارة على لسان أحـد شخوص مسرحيات سعيد قال : يكفي خمسون ، بينما العوام لا يقولون الا خمسين ، فكيف نعمل حتى نقربها من الواقع ؟ أنا في مثل هذا الموقف افتش عن تعبير عامي فصيح فاقول مثلاً : نكتفي بخمسين .

ولا يكتفي سعيد بحشر أنّ وقد في كل مكان ، بل يدخل لام المزحلقة على خبر ان فيقول راجي : ان ابنك يا خالتي أم وسيم لولد عجيب .

وتقول أم وسيم لراجي : سأتركك ووسيم في دعابتكم . لا نطالب بنصب وسيم بعد واو المعية ، فما لنا وللنصب . ان أم وسيم ككل لبنانية تستعمل (مع) في مثل هذا الحديث ، فيقول : اتركك مع نسيم ، أو أنت ووسيم .

وبينا نراه يتشدد في استعمال هل والهمزة إذا به ينزل إلى حضيض

العامية . يقول وجيه في حفنة ريح : ما هذا بعذر ، ثم يتبعهـا بقوله : القهوة سمرها بالجو . وبينا يقول : تشكرات . إذا به يتبعها بالقول : هـــل اعددت اللحن ، هل اقتضبته . وفي موضع آخر : هل عايدة بخير .

اما سين الاستقبال فترد كثيراً على لسان قلم سعيد ، وهي ليست من بضاعة الحوار الواقعي . ومثلها لقد : لقد هرم وطالت لحيته وابيضت . فآه من لقد في الحوار يا سعيد ، انها تستاهل مسبة دين فخمة ..

وإذا اعترضنا على حوار شخوص سعيد فاننا لا نعترض على شخصياته الذين نجدهم في كل ضيعة بل في كل مزرعة مكونة من بيتين وتنور .

لم يخرج سعيد من قمعه حين وضع شخوص مسرحياته . ففي نخب العدو ، ولولا المحامي ، والمنبوذ ، قد لا يكون تجاوز خراج بعقلين كما لم يتجاوز محيط بيروت في حفنة ريح .

اما خواص سعيد العامة فهي انه غير كلاسيكي، مبدع في التعابير الخاصة ، خلق قصصاً . يتعمد النكتة ويجبها موجعة مرة ، وتعمده إياها أحياناً يفقدها الخفة المطلوبة . لا تعرف هزله من جده . فهو في الأدب عتليت ؛ كما عبر هو ، وعتميت كما نعبر نحن في منطقتنا ..

وحي الحرمان

ديوان الامير عبدالله الفيصل

يا صاحب السمو الملكي ، ويا معالي الوزير الخطير ،
ايها البطل ابن البطل ، يا حفيد اسد الجزيرة ،
يا طويل العمر ،

أما وقد دعتك آلهة الفن إلى دخول هيكلها المقدس، فاسمح لنا ان نضع جانباً القابك الزمنية ، وثيابك القصبية المزركشة ، وخنجرك الذهبي المرصّع، وسيفك العدناني الموروث من ايام حليمة ... ونلبسك الثوب الذي زركشته اصابع الآلهة العلوية لتخلعه عليك في هيكل قدسها .

اسمح لي ان اخاطبك ، بعد الآن – في هذا المقام فقط – باسمك (حاف) ، غير محوط بجيوش جرارة من الالقاب الاميرية الملوكية . انت آثرت ان تكون أمير بيان فكنت . لقد شرفت الشعر بعدما تأبّى عليه الاشراف القدماء ، وقالوا في خليفة يوم وليلة : أدركته حرفة الأدب . وبهم تشبه العلماء والفقهاء، حتى قال أبو حنيفة :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى   لكنت اليوم أشعر من لبيد

لقد استحققت بتشريفك ساحتنا اجمل الترحيب منا ، فاسمح لي إذن ان أخاطبك بشاعر الأمراء ، واسلم عليك بهذه الامارة الادبية .

كانوا فيما مضى يقولون ذو الوزارتين فأي بأس علينا إذا ما قلنا، ذو الامارتين؟

ان امارتك الجديدة هبة من الله كامارتك القديمة ، والله يعطي من يشاء بغير حساب.

زعمت يا شاعر الأمراء ، انك محروم ، تحس بالحرمان « لان المركز الخطير والنفوذ الكبير ، والمال الوفير مدعاة لتغيير اسلوب الناس في معاملتك » . ثم تقول : « انك لا تدري هل ما تحس به من معاملة خاصة أو عامة هـو لانك انسان يستحق هذا عن جدارة ، أو لأنك تتمتع بهذه الميزات الثلاث ؟ »

انني اتعهد لك ان أكون صريحاً معك إلى أبعد مدى الصراحة ، وان كنت لا أحب أن أشفيك من شعورك بالحرمان الذي هو ، في الفن ، خير وبركـة .بل ربما كان سبب تساميك في حبك وفنك .أولست أنت القائل لذاك الحبيب المتمرد:

ولولا الحب في الاعناق رقّ ملكتك باليمين وباليماني

ليث كل قارىء يفهم ما هو ملك اليمين . فاين قول عنترة :

ان تغدفي دوني القناع فانني طب بأخذ الفارس المستلئم

من هذا القول ؟ ان عنترة ، محروم حقاً يا عبدالله ، ولذلك لم يلطف القول ولم يعلله مثلك . صعب عليه ، ككل ذي عاهة ، ان يذكر عاهته– العبودية – ولو في الحب ، لانه معتوق من رقه حديثاً .

نعم سأكون صريحاً جداً فلا تبهر عيني هالة المجد التي تحيط بك . فانا وان كنت أحبو إلى السبعين فلي عين لا تطرف ، عين لا تزال حادة جداً حتى انهـا تنظر إلى عين الشمس صلاة الظهر ، ولا بأس عليها .

أجل هذا ما ستراه مني ولو كنت اميراً ووزيراً وحفيد اعظم ملوك هـذا العصر ، وابن اخي ملك هو قبلة ابصار العرب .

ان للملوك والأمراء قلوباً يا عبدالله ، ولهذا كان ويكون وسوف يكون منهم شعراء . فأي بأس عليك إذا لم ترد ان تدفن موهبتك الخالدة فأقدمت على مالم يقدم عليه سواك من ابناء القصور . نشرت على الملأ ديواناً رفعت به مقام الشعر فطار بجناحين عظيمين ، بعدما كان يحجل بخطى قصيرة عند بابك ... لم تحل عظمتك دون البوح بأسرار قلبك البشري ، فلم تنتحل الاعذار لحبك كأبي فراس

الذي قال وكأنه يستحي بالحب : إذا الليل اضواني بسطت يـد الهوى ... ان الحب يخاطبنا بلسان المسيح : الذي يستحي بي قدام الناس استحي به قـدام ابي الذي في السماء .

لقد بسطت يدك « العليا » الابية على قارعة طريق الفن ، والفن نار آكلة تطـّهر وتنقـّي .

ثق ان الصراحة التي وعدتك بها لا تباع ولا تشرى ، فأنا لا أبيع مدحاً ولا قدحاً ، وإنما أقول ما عندي غير راج شيئاً مما عندك ،وان كان « بلـّوطك » ينفعني... كماقال الجاحظ لذلك الاموي ّحينما زاره وهو مفلوج يتداوى ببرادة الحديد .

ان لهيكل الفن حرمة هيكل الدين ولذلك أتورع وأخشى حين تطأ رجلي عتبة بابه . قد كان المتوجون ، ولا يزالون ، يخلعون تيجانهم عندما يدخلون بيت الله ليعلموا ، أمام المعبود، أنهم بشر ... فاكسية الاضريج فوق المشاجب، كما قال نابغة بني ذبيان في بني غسان الملوك والاخوان .

سوف نحييك مثلهم بالريحان لا لانك صاحب سمو ملكي فقط ، بل لانك شاعر مخلص كبير باح واستراح . ان الاعتراف ، في كل مقام ، يزيح الكابوس الرابض على باب الوجدان ، والاعتراف هو أن أقول اني احببت واحب ، وأي ضير على الامير إذا صاغ اعترافه شعراً ؟

وهنا يلذ لي أن أروي قصة صديق لي، وربما كان من اترابي او يكبرني بالسن أربع خمس سنين . أعجبته انثى من نساء « شركائه » . كان يدخن في بيتهـا النارجيلة فانطفأت الجمرة: فهبت بجمرتها، لا بصحنها كما قال ابن كلثوم،واحلت محلها واحدة متقدة ، فاضطرمت النارات ، وباس « البيك » شاكرأيدشريكته بوسة كقصائد ابن الرومي طول نفس .

اخجل الشريكة تواضع « معلـّمها» فاستحت وقالت له بكل بساطة: حاشا قدرك يا معلمي !

فتنهد البيك وقال لها : الحب ما فيه معلم ولا شريكة ، الحب رب لاشريك له . هاتي خدك . . .

انها فلسفة ارتجالية نطق بها صاحبنا باسلوبه الخاص ، فلا امير ولا سوقة في دنيا المحبة ، وما دام الله محبة هو ، كما علمونا ، فما قولتك بنا نحن المخلوقين على صورته ومثاله ؟! وإذا قال زهير :

وان اصدق بيت انت قائله بيت يقال إذا انشدته صدقا

فشعرك يا عبد الله الفيصل «هو الشعر» كما قلت في ختام مقدمة ديوانك «وحي الحرمان» . ان شعرك قوامه الصدق ، وملاكه الاعتراف الواضح الذي يريح وينقي ويطهر . وسمو شعرك هو في تلك اللمعات الخاطفة ، والوثبات العالية التي تدل على الشاعرية كما تدل الخضرة على الينبوع المكبوت في قلب الارض .

فلا تحسّن بالحرمان لأنك خامس الأسماء الخمسة — ذو مال — فليس لاجل هذا المال تمدح وتوقر ، فكم من ذي مال يُبخل عليه باللعنة . انسيت ان الخلفاء مدحوا ، والامراء مدحوا ؟ ان المتنبي مدح سيف الدولة وكان يأخذ من ماله ، ومع ذلك ما رأينا احداً من هؤلاء احس بما أحسست انت به من حرمان . ربما انك كنت تحس بالحرمان قبل أن تفحت الأدب بهذا الديوان ، أما الآن فما بالك ؟!

نحن نعجب بالرجل إذا كان ذا موهبة ، ولكنه إذا كان محروماً من المواهب وعنده مال قارون ، وملك هامان ، وسلطان فرعون ، فهذا هو المحروم حقاً ، وماذا نعمل له ؟ هب اننا استطعنا ان نعمل الأبيض اسود أفنستطيع ان نصير الاسود ابيض ؟

لقد حاولت أن انتقدك نقداً مراً ولكنني لم استطع لاني لم اجد المرعى الذي يدر عليه قلمي. انك شاعر مطبوع ، ومن لا يتعمل ويخالف الطبع فليس لنقدي في جلده نصيب .

ان حبك الشعب الذي ينضح به ديوانك جرأني على مخاطبتك بيا عبد الله ،

وكيف لا اسميك وأنت قد خاطبت الشعب ، شباب بلادك ، بمثل هذا القول :

مرحى ، فقد وضح الصواب   وهفا إلى المجد الشباب
عجلان ينتهب الخطى   هيمان يستدني السحاب
في روحه امل يضيء   وفي شبيبته غلاب

وأي نور أهدى من نور الأمل واوضح، وأي عزم امضى وأغلب من الشباب بل أي صرخة ديمقراطية أروع من ختام قصيدتك هذه : فلكم حياتي يا شباب.

أن كلمة (دائماً) في صدر هذا البيت ، بيت الختام ، لم تعجبني . ولذلك اكتفيت بالعجز ، ورب عجز كان خيراً من الف صدر . يظهر انكم يا السعود، تحرصون على الديمقراطية في كل مقام ، وحسبكم انكم رفعتم السجف التي كادت تفصل بين العبد والمعبود ، فقضيتم على « الواسطة » في دينكم ودنياكم .

فيا طويل العمر ، دع الفكرة التي حدثتنا عنها في مقدمة ديوانك . انس المركز والنفوذ والمال ، ولا تظنن اننا نحابيك ونغالك لأجل ذلك . ثق انك قد عملت في ديوانك بقول فرلين الشاعر الفرنسي الخالد : خذ الفصاحة وفك رقبتها. فديوانك إذا لم يعج بزخرف الفصاحة وبهرجتها وزبرجها ، فهو حافل بالشعر الصحيح الفصيح ، ولا غبار على بيانه .

قال كاتب عظيم أحدث عهداً من فرلين : عندما تعوزنا الافكار نلجأ إلى الفصاحة . وانت ، والحمد لله ، قد اغناك تفكيرك عن تزويق تعبيرك .

قال شاعرنا الاستاذ صلاح لبكي في تقديمه ديوانك : فمحروم بعيد جد البعد عن شعراء الصحراء الاقدمين والمحدثين معاً . وهو أقرب ما يكون إلى شعراء لبنان ، وإلى الشعراء الوجدانيين منهم .

أما أنا فأزعم انه ليس في الدنيا شاعر صحراء ولا شاعر غوطة ، ولا قديم ولا جديد ، انما هناك نفوس وطباع . ونجد مهد الشعر العربي وسريره ، واللبونة ، اللهم في الشعر ، من سمات قولهم . ولعل طبيعة المحيط التي تشبه لبنان هي التي قربت بين محروم وبيننا ، وها هو محروم ، شاعر الامراء ، يدلنا على حمل

المحيط حيث يقول في أولى قصائد ديوانه :

هل تذكرين بوادي « وجّ » وقفتنا   وقد افاضت علينا الطهر عيناك

أرأيت هذه السلاسة والسهولة ، أما فكّ عبد الله الفيصل رقبة الفصاحة ، كما أوصى فرلين ! أما قال شعراً يصح ان يقال فيه ما قيل في شعر ابن ابي ربيعة : كأنه الفستق المقشر؟ ان عبد الله ربيب وادي وجّ الذي قال فيه عروة بن حزام:

أحقاً يا حمامة بطن وجّ   بهذا النوح انك تصدقينا
غلبتك بالبكاء لان ليلي   أواصله وأنــك تهجعينا
واني ان بكيت بكيت حقاً   وانك في بكائك تكذبينا

ترى انقول في هذا الشعر أنه لبناني لانه سهل ؟ انه نجدي ، وعرق الأصل نزّاز . أما قال جرير النجدي في أول شعر سمعه لعمر ابن ابي ربيعـة : شعر حجازي تحس فيه البرد في تموز .

أما كلمة « وداعينا » في مطلع هذه القصيدة فما أراها طبيعية ، وكيف تكون ونحن في حديثنا نقول: وداعنا . لا نثني ولا نجمع . انها اخت قول شوقي: واحمر من خفريها خداك . وأما وقد وعدنا شاعر الامراء بالصراحة كلها فلنقل ايضاً: أن كلمة رؤياك ، وهي احدى قوافي هذه القصيدة ، يجب أن تحل محلها كلمة مرآك . ولكننا ننسى هذه الهنات الهيّنات حين نبلغ مثل هذا الشعر الصافي من القصيدة :

ففيك للقلب أهواء مجمعة   وفي لقائك دنيا الشاعر الشاكي
دنياي نار من الهجران محرقة   إذا نأيت وروض حين القاك

أما البداوة في ديوان « وحي الحرمان » فلا يدل عليها شيء غير تلك الصور الفنية الرائعة التي زيّن بها الكتاب ، وهذا البيت مثلاً :

ازمعوا بينا وشدوا رحلهم   فتوارى طيف احلامي الجميل

ولعل هذا هو الذي عناه (محروم) في ختام مقدمته : أريد أن يكون شعري « صورة طبـــق الأصل » لحياتي ، وصدى حقيقاً لشعوري وعواطفي

وأمالي وخيالاتي وانفعالاتي النفسية .

نعم، لقد طبق الشاعر على نفسه ما اشارع، وها هو بدلاً من أن يتهيأ، على عادة الشعراء، ليبرز لنا فكرته في يجاد الفصاحة، نراه يقول واصفاً جموح عيون العاشقين :

نحن صرعى لفتات ورؤى   وأمان ما اليهن سبيل

وفي قصيدة « ثورة وخيال » نحس شوقاً كاوياً في قلب تغلي مراجله فتقطر شعراً يذوب قائله وجداً، فيذوب شعره رقة :

قلت أهواك وعن دنياك بالحب شغلت
وبودي لو تحدثت الى الدنيا بحبي واطلت
وتأملت الذي يوحي إلى قلبي وقلت



هل سمعت اللحن من قلبي ينساب لقلبي
ثم يرتد فيروي لك ما قصة حبي
ويناديك إلى عش هوانا المستحب

وفي قصيدة « توأم الروح » تفور عاطفة الشاعر العربي الأصيل ويطغى عليها اللون المحلي فيسبق إلى قلم الشاعر وينطقه بكناية لا يفكر بها إلا عبد الله الفيصل سليل الذين قالوا : السفر قطعة من العذاب :

يا توأم الروح ونور البصر   ضاقت مني الروح بهذا السفر
وغشت الوحدة عيني فما   يؤنس عيني كل هذا البشر

فهنا تبدو للمتأمل صورة العربي أخي الحب النبيل. لست أدري لماذا أعجبت العجب كله بقوله : ضاقت مني الروح بهذا السفر . حقاً ان سفرة المحب طويلة كليلة النابغة . وإذا كان محروماً حقاً فهي أطول وأطول، كان الله في عونه .

وإذا مضينا قدماً حتى نبلغ آخر هذه القصيدة سمعنا الشاعر يتغنى بهـذا

الحبيب ويشبه صباه الغض بالبرعم . فلندع التحليل الذي يسقط موضع التعجب من الشعر كما قال الجاحظ ، استاذ الدهر . اسمع النص بحروفه :

لا اوحش الله خيالي من الحب ولا تلك الليـــالي الأُخرُ

حيث صباك البرعم الغض في اوراقـــه يشتاقه من نظر

انه يخاف عليه حتى من النظر ، خطيئة الفكر ... ثم يمضي الشاعر الى أبعد مدى الظن ، وهناك تهبط عليه هذه الصورة الرائعة :

يوحي الى الدنيا اهازيجه مبتدعاً من كل قاب وتر

انك تخال شعر عبد الله الفيصل بسيطاً جداً ، إذا قرأته قراءة عابرة ، فلا كاف ، ولا كأنّ ، ولا مثل وشبه ، وهذه هي البساطة التي تضرّع فرلين إلى ربه طالباً منه ان يهبها له .

وفي قصيدة « منى غدي » يتغنى الشاعر بآلامه ، ويشبه ، كما شبه السلف ، بعيني المهاة ، وبالعقد المنضود . ولا بدع إذا رأيناه لم يقطع السرّة بينه وبين القديم ، فهذه سمة الشاعر الذي يمثل عرقه . فعبد الله الفيصل يصح فيه قـــول الثعالبي في البحتري : اعاد الشعر سيرته الأولى ، ولنا نحن ان نزيد على هـــذا فنقول : **اعاد عبد الله الفيصل الشعر الى مهده الأول ، إلى مرقص الاحلام امرىء القيس ، إلى حلاوة كلام جرير في الغزل .**

لقد عبر الشاعر عن آلامه وآماله ولم يلجأ إلى التخيل لانه يصف بكل صدق خلجات نفسه . أفلا يكون صادقاً كل الصدق من يخاطب نفسه الكبيرة يملها بالآمال من حبيب عرف مقامه فتدلل :

وكلمـــا رمت وعداً بهجره يتوعّـــد

وان خلوت بنفسي وجدتهـــا تتمرد

اقول يا نفس صبراً فبابـــه غير موصد

هكذا يصور لنا الصراع النفساني متى سيطر الحب على الامير ، وأبت نفسه الامّارة بالمجد والعزة ، انه يصبح بين ويلين ، كما قالت هريرة الاعشى : ويلي عليك وويلي منك يا رجل .

كل هذا حسن ، ولكن الشاعر ارضاء لنفسه الامّارة بامارتها قال :

انى وحيد القوافي وأنت بالحسن أوحد

انها كلمة مقولة يا مولاي ، ولا وحيد قط إلا في دنيا الاساطير ..

والشاعر يتخلص من قيود القافية في الكثير من قصائد ديوانه ويترك نفسه على سجيتها في القول . وها هو في قصيدة « عواصف حائرة » يفاجئنا بمطلع ينطح السماء بروقيه ، والمفاجأة من العناصر الجوهرية للصورة الشعرية ، كما يقول جورج ديهامل :

اكاد اشك في نفسي لأني اكاد اشك فيك وأنت مني

ارأيت ما أعمق هذا الحب وأخلصه ؟ ان الحب يلقي برقعاً كثيفاً على وجه المحب فيرى ولا يصدق . ان الروعة ، في هذه القصيدة ، شاملة ، وهي من الشعر الجدير بان يغنّى في اسمى المقامـــات ، ويا ليت مُواطن امرىء القيس ضرب صفحاً عن هذا البيت :

على اني اغالط فيك سمعي وتبصر فيك غير الشك عيني

ان معناه جميل جداً ، ولكن هذه « العلى اني » من بضاعـــة النثر ، وفي « القافية » سناد كنا في غنى عنه .

وفي قصيدة « كنا وكان » صرخة عبقرية قلما نسمع بمثلها في شعرنا المعاصر ، وهي درس عميق في الهوى :

يا حبيبي كيف ذاك الحب مات عندما دبت به روح الحياة

إذا كان هذا قد حير علماء النفس ، فكيف لا يحير شاعراً لا يضاهيه شاعر في مثل هذا الحب العنيف ، وهذه الحاسة التي تنفذ إلى الأعماق .

وفي قصيدة « حلم الهوى العذري » نقع على كلام رائع في وصف الحبيبة :

وبالوجنات فيها الضوء يلهب لونهـــا الخمري
فتحسب انهـــا شفق تلفّع هـــالة البـــدر

حتى الآن اكاد أقول ان شاعرنا، كجميع شعراء العرب، قديمهم وحديثهم، ليس للجمال المعنوي أية وزن في ميزانهم . ان هذه خاصة أصيلة فالحسن متى ملأ القلب كان الفيض .. اسمع ما ختم به قصيدته « على ضفاف النيل » مناجياً الحبيب :

ارع حبي ذاكراً أيامنا فعلى ذكراك للعهد اتكالي

وكأني بذاك الحبيب يجيب كما نجيب نحن : التكلة على الله .

أما في قصيدة « اطيلي الوقوف » فيقشعر البدن لما توحيه هذه القصيدة :

هو الداء يعبث في اضلعي إذا ما نعيت فلا تفزعي
ولا تبعثي صرخة في الفضاء ولا ترسلي مدمع الموجع
ولكن عليك بحفظ الوداد وصوني عهود الفتى الألمعي
وعيشي مدى العمر بالذكريات وطوفي بمغنى الهوى واخشعي
وزوري ثراي إذا ما السكون اطلّ وعند الثرى فاركعي
لئن ضم جسميَ ذاك الثرى لقد ضم عهدي وحبي معي

اطال الله بقاءك يا طويل العمر ، ولا خلا قلبك من هـذا الحب العنيف لتسمعنا الكثير من هذه الروائع التي تقطر دماً .

واني هنا أوافق شاعرنا الاستاذ صلاح لبكي القائل في مقدمة الديوان : « ومحروم في أول الطريق لم يعط بعد كل عطائه ، على سخاء مـا أعطى ، ولم يفرغ غير الحرف الأول من الكلمة التي تختلج في صدره وتضج بين ضلوعه » .

وفي قصيدة « هل تناسيت » هذا المطلع الصارخ :

ليته يعرف الملل دائم الخفق لم يزل
هدّه الهجر فانبرى يقتل الياس بالأمل
هل تناسيت ليلنا إذ دفناه في القبل

ما على قلبنا شر ، ما دام يخفق ، وإذا عرف الملل يا أمير ، فعلى الدنيـا

مليون سلام . ألا تذكر قول أبي الطيب :

آلة العيش صحة وشباب وإذا وليّا عن المرء ولّى
وإذا الشيخ قال أف فما ملّ حياة ولكن الضعف ملّا

فلا زال قلبك خافقاً إلى أبد الأبدين ودهر الداهرين . آمين .

أما دفن الليل في القبل فصورة جميلة جداً ، ولعلي لم أقع على أروع منها . وان كان الخبراء الصحيون يزعمون أن كل قبلة تذهب بدقيقة من العمر .. فأنا اشتريها بساعة بل بيوم، وربما بشهر إذا وافقت الهوى وحمي الوطيس.. وحسبي صديقي الشاعر بشاره الخوري الذي حرق نفسه ونفس حبيبه في جحيم من القبل ، ومع ذلك لا يزال بألف خير يهجم على طابور ..

إذن فليخفق هذا القلب ، وليقرع هذا الجرس فرحاً حتى يقلق أربعة أقطار المسكونة . ان دقات الحزن ، أبعدها الله ، آتية ولا ريب . واليوم خمر وغداً أمر :

ان قصائد « وحي الحرمان » كلها مطبوعة على غرار واحد ، شعر نقي الديباجة ، حديث قلب بطل يتجلد ، تأبى عليه عزته ان يتذلل ، فهو يخبر بجلاء ووضوح عما فعل به الحب ، وعن لوعته المحرقة في قصيدة « لوعة » حين يسر إلى حبيبه :

فلو زعم العواذل بي سلوّاً فكل حديثهم محض اختلاق
وما ابدي لهم غير التأسي وان كانت ضلوعي في احتراق
واخشى ان يقال صريع شوق يلاقي في المحبة ما يلاقي
واغرق في ظلام الليل يأسي فاغرق في اصطباحي واغتباقي

المثل عندنا يقول : جاء الليل وجاء الويل ، ولا أدري كيف استطاع شاعرنا ان يغرق في ظلمة الليل ما اعتاد أن يطفو .

وفي قصيدة « ردوا سهام الجفون » يذكرني الشاعر بعهد مضى يوم كان شعراء القرن التاسع عشر يردون العجز على الصدر ، فهو يختم هذه القصيدة

فتصول
بالشطر الذي افتتحها به ، فيول :

ردوا سهام الجفون عن قلبي المسكين
لا توقظوها جراحاً اغفى عليها حنيني

الا تذكرك هذه الغفوة بغفوة الأطفال الملائكية ولكن بدون هذا الألم ! حتماً أن الحب ، ولو أميراً ، لطفل كبير .

فقد بذلت شبابي ضحية للعيون
أما رحمتم حطاماً ناداكم بالأنين

أظن أن القارىء يشاركني في الزعم بان في كلمة حطام – هنا – حلاوة شعرية . وأخيراً يختم كما ابتدأ :

فان أردتم بقائي ردوا سهام الجفون

الله ، الله ، كيف يستغيث البطل في الحب ! ألا تسلم يا طويل العمر ، بقول صاحبي : ليس في الحب معلم ولا شريكة . هاتي خدك .

أما ذكر المدام والراح والكاس فلم يرد إلا في قصيدة « إلى ذات الوشاح » ذات هذا المطلع :

تسائلني العواذل ما اقتراحي وأنت على الزمان مدى اقتراحي

بيد ان هذه المدام والكاس هنا مجازية كالتي عند ابن الفارض ، ولكنها من نوع آخر .

وفي قصيدة « أمل المحروم » ، وان كانت قوية العاطفة حادة الشعور ، صور غير جديدة كالبان والعناب. إلا أن الشاعر أخرجها باسلوب مستملح جداً فقال :

وقوام يتهادى في الربى فيقول البان ما أهيفَهُ
وفم لو قال من ينعته هو كالعنّاب ما عرّفه

أما بيت الردف ، وان كان قد مضى يوم كانت فيه الأرداف تستحلى مقنطرة ، فقد أخرجه الشاعر إلى معرض الفن جميلاً طريفاً ، حافلاً بلون محلي

صارخ ، حين قال :

وبإردافك حادٍ صلفٌ مثقلٌ خطوك ما أصلفه
فجميل منك بعد الظلم يا أمل المحروم ان تنصفه

أما نونية (يا ناعس الطرف) فــلا تقل عاطفة وجمالاً فنياً عن نونية ابن زيدون ، ففيها تلك السهولة الرائعة وذاك السياق المستعجل ، فكأنها نهر لبناني ينصب متراكضاً نحو البحر ، حتى تختتم بهذه الأبيات :

إنـّا وإيـّاكِ نجمانِ في فلك يديره الحب في آفاق ماضينا
مهما اختصمنا فان الشوق يجمعنا أو افترقنا فان الحب يدنينا
فما ترى اليوم من صبر ومن جلد فالكرامة فضل من تأسينا

انه في احرج المآزق لا ينسى من هو . بيد انه يغلب على أمره ويعود إلى تواضعه ، والحب إله قدير لا يزهى أمامه أحد ولا يتكبر ، فيقول في مطلــع قصيدة « عتاب » :

لما نظرت إليّ أمس مشيحة بين الجموع بلحظك المرتاب
وجرت على شفتيك بسمة حائر ما بين شبه رضا وشبه عتاب
ابصرت في عينيك عمري كله وعرفت اني قد أضعت شبابي

حقاً أنها أبيات من أمثل الشعر وارقاه. وهكذا يختم هذا الديوان كما ابتدأ:

تحرق دائم ، وشكوى مستمرة ، وظمأ إلى الجمال شديد ، وثلاثة في الدنيا لا يشبع منها : الجمال والعلم والمجد ، وان قال الشاعر : ولا مجد في الدنيــا لمن قل ماله .

وبعــد فاثنان في ديوان « الحرمان » يتصارعان : قلب الشاعر ونفسه ، فقلبه يهوى الجمال ونفسه يشوقها العز والمجد ، وهو بينهما كما يقول المثل: ساعة لك وساعة لربك .

هو شاعر غنائي رومنتيكي يقول الشعر في حاجـات قلبه ونفسه ، عربي جلود ، محافظ لا يريد الخروج بالشعر العربي عن طريقه المثلى : الصراحــة ،

الوضوح ، الموسيقى. لا يتغنى بوصف الطبيعة ، ولكنه يهيم بسيدها الذي خلقه الله في أحسن تقويم ، على صورته ومثاله .

والحرمان عند الأمير موجود حقاً ، فهو إذا لم يجد من يحرمـه حرم هو نفسه ، والمحروم وحارم نفسه سيان في الحرمان . لا يضحي بالعزة والكرامة في سبيل حب أي كان ، وقد تكون مصيبته انـه يبتلى بمن لا يرخص لنفسه الانحدار اليه ، ولذلك يصح فيه قول الشاعر :

اری ماء وبي عطش شديد ولكن لا سبيل إلى الورود

الحبل والدلو موجودان، ولكن الشمم العربي واباء الامارة يصيحان به :لا .

ولهذا لا نسمع إلا ترانيم عذبة هي صدى طبيعي لأغوار نفس يشدها حب الجمال ، أو تنهدة نفس متألمة لا أدري من ماذا .

ان ما سماه شاعر الأمراء حرماناً هو ما يسميه علماء اليوم كبتاً ، وهـــذا الحرمان أو الكبت يرهف حساسية الشعراء ، فلا حرم الله الأمير هذا الحرمان.

أما ثقافة شاعرنا فعربية صرف ، وما احسبه استلهم غير الشعر العربي، فهو في قوله الذي اعجب الشاعر الأستاذ صلاح لبكي :

أرى الصبر أوشك أن ينفدا وأوشكت في القرب ان ابعدا

يدنو ويبتعد ، في وقت معاً ، من قول الشاعر القديم ، وقد عدوه مخالفـاً لفصاحة المركب لغموضه :

ساطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

ان الوطن الذي كان لنا منه أمير الشعراء امرؤ القيس ، وجرير وغيرهما ، ها هو في القرن العشرين يستعيد مجده الأدبي بانجابه عبد الله الفيصل ، وإذا لم يكن للروح والجمال المعنوي إلا أثرلا يكاد يلمس في ديوانه ، فاعلم ان هـــذا هو الدليل القاطع على النفسية العربية التي لا تعجبها الصوفية .. وإذا رأينا شاعرنا لم يتخيل كثيراً فلأن شعره وصف خوالج نفسية ، والبوح لا يتطلب امعاناً في الخيال ، ناهيك ان الاغراب في الشعر ليس من طباع العرب .

فشاعرنا اوتي البساطة التي سأل فرلين السماء ان يعطاها . قد اعطيها عبد الله الفيصل فرأى الحبيبة انسانة من لحم ودم ، لا من نور والجان ، وورق ورد ، وضياء ونور ، وأغاني حمراء وصفراء ، وأحلام بيضاء وخضراء ، وأشعة قوس قزح ، كما يراها أصحابنا - بعض شعراء اليوم - ويخاطبونها بلغة لا تفهمها هي ، ولا الانس والجن أيضاً ..

فهذا الشاعر ، وهو نموذج للرأس العربي ، وقد اجتمعت فيه جميع خواصه وخصائصه ، لا ترى في ديوانه رمزية ولا سريالية ، ولكنك ترى شعراً عربياً صافياً تفكيراً وتعبيراً . شعراً لا تحمل الكلمة فيـــه فوق طاقتها ولا تكلف إلا وسعها .

فكأني بديوان محروم قد جاء رداً ، في الوقت المناسب ، على البدعة الجديدة التي يحاولونها في العراق ، كما نرى في قصيدة « النهر العاشق » للآنسة الشاعرة نازك الملائكة . عـدت نازك تلك القصيدة « انشودة عزاء لبغداد التي تغرق » وما هي في نظري إلا (جنـّاز) لشعر نازك الذي غرق في بركة التجديـــد ، ومحاولة الابداع ..

بعد ظهور ديوان نازك شظايا ورماد نصحت لها ان تعود إلى حبيبها الأول ، إلى عشق الليل ، وإذا بي اقرأ في هذه الأيام عشق النهر .. واتبعهـــا نفر من شعراء احببناهم كبلند الحيدري وفلان وفلان .

فيا اخواني ، انكم بهذا تعتقون ولا تصيرون جدداً . فليست آفـة شعرنا في وزنه وقوافيه ، وإنما آفة بيت الشعر العربي في تعبيئة وزنه ، وأحكام بنيان زواياه ، اعني قوافيه . انكم بهذا تقلدون الغرب ، ولو استطاع شعراء الغرب ان يجدوا لهم اوزاناً كاوزاننا ، وقوافي كقوافينا لما تخلوا عنها كما تتخلون ، ولمـــا فعلوا غير ما فعل قدامى العرب . احكموا بنيان البيت الشعري ولا تهربوا من الساحة .

لقد استطردنا ولكننا لم نبتعـــد عن الموضوع كثيراً ، وحسبنا من محروم ابتعاده عن تلك التعابير الموروثة مع انه ابن المحيط الذي ابصرت النور فيـه .

فأنت لا تجد في وحي الحرمان تعبيراً كلاسيكياً ، والتعبير الكلاسيكي المنقول هو أخطر سلاح يحمله الشاعر والناثر في معركة أدبية .

اسمعت ما قالوا عن السلاح المصري الذي كان في حرب فلسطين يقتل صاحبه لا العدو ؟ كذلك هو التعبير القديم ، انه يقتل صاحبه .

فالشعر قبل كل شيء هو صدى النفس ، ولا يمكن ان يعبر عن هذا الصدى إلا بلسان صاحبه . ان هـــذه لحسنة كبرى لعبد الله الفيصل الذي خاطب الأحباب ، وهم من ناس هذا العصر ، بلغة هذا الزمان والعصر ، ناسياً أو متناسياً ما ترك مواطنوه من ميراث تعبيري باق ، فعبر هو كما شاء . ولم يبـــال بعمود الشعر بل حطمه تحطيماً .

بقي علينا ان نقول كلمة في وحدة هذا الديوان ، فكأنه ملحمة حب وهيام ، وغير قليل ان يكون لشاعر ديوان كامل في موضوع واحـــد ويجيد قائله كما أجاد محروم .

فلا حرم الله شاعر الأمراء ذاك الحرمان لبطيـــل الغناء . ومتى كانت لك نفس تحب ، وقريحة تسعد وتسعف على القول فانت شاعر . وتظـل شاعراً في التسعين ، فسر ولا تبال (بحدّ الأربعين) فليس للعبقرية نهاية ولا حد .



يا صاحب السمو الملكي

أما الآن وقد خرجنا من الهيكل فاسمح لي أن أعود إلى « البروتوكول » ، وأرجو من سمو شاعر الأمراء ، ذي الوزارتين ، الأمير عبد الله الفيصل ، ان يقبل مني الهدية الأدبية . أما قال شاعرنا : ويأتيك بالأخبـار من لم تزود . ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتاً .

فأنت أيها الأمير النبيل ، لك في تأييد الأدب يدان : يـد بذلت بسخاء ، ويد عملت بكد وجد ، فكان من ثمرها اليانع هذا الأثر الفني .

الا بارك الله في يديك الثنتين .

يقظة ونهضة

الخيال اللبناني

ليس للبنان اليوم اساطيل ماء وهواء ، ولكن له في دولة الفكر فضلاً يعرفه ذوو الالباب .

وبعد ، فعندما نظم الله قصيدته الفريدة في ستة أيام كان أشد اعجاباً بالبيت السادس – الانسان – لانه نفخ فيه شيئاً من روحه. وبعد أيام – واليوم في عين الله كألف جيل في عيوننا اللوزية – بدا لذي الجلال ان يجوّد البيت الذي رآه حسناً جداً ، فاستودع فكرته سفينة نوح ، حرصاً عليها ، ومحا بطوفان عرمرم قصيدته العصماء ليعيدها أحسن سبكا .

وبعد لحظة من تقويم الخلود ، استنشق الأب القديم الأجيال قتار ذبائح نوح ومحرقاته ، فطاب نفسا وقرّ عيناً ، وقال : « لا اعود إلى لعنة الأرض من أجل الانسان ، لان تصور قلبه شرير منذ حداثته . »

وحانت منه التفاته فرأى جبل أرارط ينظر بغطرسة إلى سهول الشرق ، والكبرياء عدوة الله الغيور ، فغمز بعينه ابنتــه المجنونة فأخرجت اثقالهــا ، فاصطفت جبال لبنان كمعسكر من العمالقة في جبهة الوجود .

وشفى الرب نفسه من ركاكة ثانية ، فالمثول والنتوء ملاك الفن الرفيع :

لبنان والخلد اختراع الله لم يوسم بأزين منهما ملكوتــه

هكذا زعم شوقي ، ولكن أيهما نُسِخ عن الآخر يا ترى ؟ لبنان أم جنة الخلد ؟ ! هذه مسألة تشغل حيزاً من دماغي ولا أقول كبيراً لئلا اتهم بالمبالغة .

وتمرد الخيال اللبناني فحقق ظن الله بالانسان. خلق الآلهة وسرّحهم قطعاناً تتصارع وتتناطح في بطاحه وعلى روابيه، وكانت بينهم حروب كالتي نشبت بين الملائكة في البدء ، وكان من شروط هدنتها استعمار الشياطين للأرض ..

الخيال خلعة الله السنية على من خلقه على صورته ومثاله ، وهودج تنسينا زركشة سجوفه هول الطريق والمركب الوعر . إذا جردنا الانسان من خياله انكر ما يحيط به وأمسى كالمنبتّ . لا يذكر الأمس ولا يحلم بالغد .

والخيال ينمو في بقعة كلبنان ، فولولة رياحه وعربدة شلالاته ، وهمس ينابيعه وأنهاره ، وهدير بحره ، ووشوشة أشجاره ، وقصف رعوده ، وومض بروقه ، وعواء سباعه ، وصرصرة بنزانه ، وصفير نسوره ، وتغريد طيوره ، تنصب وفوداً وفوداً في حناجر اوديته ، واشداق كهوفه ، فتؤلف موسيقى داخلية لا تجدها في غيره .

فمن لا يرتعش متى استيقظ مع الفجر ورأى بقية نور القرص الفضي تنسكب على ربى لبنان الحالمة ، فتخلق ظلالاً كئيبة ، وأشباحاً حائرة . سيناء الله الأزلية تتزين بألف لون وتنطق بألف لسان قبل بزوغ القرص الذهبي وعند غروبه .

وما ظنك بجبار نسجت عمامته عوانس كانون، وحاك آذار عباءته المفوّفة، وطرز نيسان قميصه ، ونمنمت طيلسانه عرائس نوار، والبحر يغني عند قدميه، والضباب يؤزّره ليحلم ، أفلا يلد خياله أساطير كانت أم الثقافة العالمية ؟ !

لبنان هو الأولمب الأول ، وقد فاق جوفانس لما جعله الصوفيون مقراً لأبدالهم . انه آدم الخيال الانساني وحواؤه . فمن قممه المتمردة رفع بنوه عرشاً لمركيل ، ومسرحاً لأدونيس ، وخدراً للزُهرة. ومن طيوبه صنعوا عشاً لفينيق رمز القيامة والحياة المتجددة.. رموز عبقرية افرغها الخيال اللبناني على الحقيقة فنعم بها الانسان زمناً .

مُنىً ان تكن حقاً فتلك هي المنى　　والا فقد عشنا بها زمناً رغدا

للثقافة منبعان : دين حافل بالرموز والأسرار ، وخيال يحلم بالجمال فيخلقه ، وكلاهما انبثقا من لبنان فعمّا البحار وما وراءها ، ابصر اللبناني جبـــلاً قلق المجاز وبحراً مكاراً لا يؤخذ بالعنف ، فشرع يحتال للنفوذ في ذلك المضيق .

وتحرك الخيال اللبناني الأول فكانت فتنة بين أبناء الهواء وبنات المـــاء . صرعت فأس اللبناني عمالقة الأرز وجعلها مراكب فـــدان له البحر . ورأى المستقبل مظلماً فتحرك خياله أيضاً فخلق الأبطال والآلهـــة ، وتحرك أيضاً وأيضاً فكان البناء والارجوان والزجاج والطرف والتحف .

وتحرك أخيراً خيال الطموح فمشى البحارة أبناء الشمس فاستعمروا الشرق والغرب ، وفتحوا الدنيا سوقاً لحضارتهم وفنونهم ، فحق لهم ان يرددوا قول ابن عمهم عمرو بن كلثوم ولا ابتهار :

كأنـا « والجواري منشآت   ولدنا الناس طراً اجمعينا

ملأنا البحر حتى ضاق عنا   وظهر البحر نملأه سفينا

وأبى الخيال اللبناني ان يستريح فانشأ سفر التكوين الأول ، وعلم افلاطون حقيقة « الوجود الفاهم » وافترض (الجواهر الفردة) لحل عقـــدة الهيولى ، ووضع « ابجديته » مستودع الثقافة الحاضرة ، ولا يزال بعضها كما رتبوه هم منذ خمسة آلاف سنة ABCD ابجد KLMN كلمن QRST قرشت .

فليست الثقافة اللبنانية وهماً من الأوهام ولكنها حقيقة تقدم كل الكائنات حديثها ، ولا قبلها قبل كخمرة ابن الفارض .

تقـــدمت موسى وحمورابي والهمت هومير وماريني وشكسبير ، ولا يزال بعضها حياً في أقدس امانينا . فمن هذه المزرعة المنتشرة على سيف بحرنا ، من هذا المليمتر من مصور الدنيا الضخم ، خرج خيال جبار كسا المراة برفـــيراً وارجواناً ، وبدّل الكهوف بالقصور والهياكل الرفيعة العماد ، وصار معـــلم القرون الأولى .

فمن يصدق ان شعباً عبقرياً كشف أسرار الكون لا يدرك سر احمرار مياه

نهر ابراهيم ؟ ان منطق المعتقدات يجتاح دنيا العقول ويكتسحها .. هنيئاً لهم مجدهم الفذ ، فلا يشوب فخرنا بهم شيء إلا انهم لم يعشوا إلى ضوء نار الهدى مثلنا ، فضلوا وتاهوا وانهم يعذبون اليوم في جهنم .. واأسفاه ! !

أتقولون ان احسانهم إلى الانسانية لم يشفع لهم عند ربهم ؟ فلولا ابجديتهم ما قرأنا كتبه المنزلة ، ناهيك ان جهنم عرفت بعدهم ، والقانون لا يشمل ما قبله مدنياً ، ولا هوتياً الجاهل معذور . وأخيراً أقول : ما لنا وللجدل العقيم فلنسلم مشاطرين الأب مرتين اليسوعي ، صاحب تاريخ لبنان ، أسفه العميق لهلاك نفوس أوائل اللبنانيين ، ممدني البشرية ..

كلما بلغت نهر ابراهيم انخيل نساء بلادي باكيات على تموز . وكلما دخلت جبيل اتمثل الكهنة يندبونه في الشوارع ، حتى إذ بلغت عين كفاع ومررت بكنيستها البعلبكية الأساس أقول في نفسي : من هنا طرد زين الآلهة ادونيس ليحل محله ابن أراراط ، أي مار روحانا ، الجالس سعيداً فوق مذبح كنيستنا.

وتتداعى الأفكار فتنبري كلمة الأخطل: هو الدين يا أخا العرب ، فاصمت

غريب ايحاء بلادي ، كل حجر من حجارتها سفر جليل . وان قيل ابهذه الخرافات تفتخر ؟ ! اجبت . من منا بلا خطيئة فليرجمها بحجر .

خلقت العين البشرية جمالاً قيل له كن فكان . أما العين واليد اللبنانيتان فاستلهمنا خيالاً لا يضل كالحك الذي اخترعوه ، فابدعتا كونا جديداً حافلا بطرف الفن وروائع الفكر .

واراهم خيالهم السامي ان التطور سنة الحياة وأقدس نواميسها ، فداروا مع الزمن محتفظين بخواصهم الاكتسابية والغريزية ، فعدوا عن لغتهم الهرمة ، وخطبوا لغة بني عمهم الجميلة . نصروها عزيزة ، واحبوها مقهورة . فبينا كانت كتبها تتدهور في دجلة والفرات وتحمى بها الافران والحمامات كانوا يخبئونها في احشاء كهوفهم – وهل كانت الديورة الا كهوفاً ! – وتتنكر لها الناس حتى بنوها الخلصاء ، فآووها هم ونصروها ، وافرغوها حلة قشيبة على كتابهم

المقدس ، فاحتبت ناعمة البال عن يمين المذبح ، وأمست لغة خيالهم وأحلامهم .

تصوروا راهباً لبنانياً – المطران جرمانوس فرحات – ينتقل في أواخر القرن السادس عشر ، بين أعمدة جامع قرطبة ومحرابه ، يتأمل باعجاب واجلال آثار ذلك الفردوس المفقود . أما مات ذلك الراهب عشر موتات قبـــل بلوغ الأندلس ؟

وتحرك الخيال اللبناني ، بعد حين ، فرأينا كاهناً آخر يركب البحر بينما كان شاعرنا العربي يقول :

لا اركب البحر اخشى عـــلي منـــه المعاطب
طين انا وهو مـــاء والطين في الماء ذائب

إلى رومة أبحر السمعاني حاملا على سفن أجداده حاصلاتنا الثقافية ، وفي مكتبة الفاتيكان هدأ روع العربية الملهوفة ، وهناك خلدت ذكر السمعاني كما خلد السمعاني ذكر العرب بما ترجم للبابا اكليمنضوس الحادي عشر . هـــذا حديث البحر ، وقد احتاج إلى معجم كلاروس إذا عمدت إلى ذكر الأعلام ، فلنختصر .

اللبناني قديماً وحديثاً ، مطبوع على الأخذ والعطاء . وفلسفة النفس الحديثة تثبت ان للوراثة والجنس تأثيراً في العبقرية ، فاذا ورث الرجل عن أبويه تخيلاً شديداً هيأه هذا الاستعداد للشعر أو للتجارة والمالية . وصورة العبقرية تختلف بحسب المحيط وهذا ما عملته العبقرية اللبنانية . تعـلم اللبناني لغات الغرب ، وعلم الغرب لغات الشرق فكان تبادل الثقافات ، كتبادل البضائـع ، ينعش الأسواق . وهكذا انتعشت اللغة العربية ووجد المتمشرقون .

ثابت ، علمياً ، ان التطعيم خير الوسائل وأجداها لترقية الأنواع . وهـــذا ما عمله الخيال اللبناني المعاصر في الأدب العربي . طعّمه بالثقافات الأخرى فأتمّ ما بدأ به العباسيون الأوائل . والثقافـــة كالمتجر تنمو وتزداد بالتبادل والعمل المنتج ، واللبناني تاجر عبقري . وصورة الثقافـــة ، كما قالوا ، تختلف

باختلاف المحيط والزمان .

اعترى لغتنا الجميلة شلل كاد يذهب بحياتها وجمالها فتحرك الخيال اللبناني فاذا باليازجي يقف بازاء الحريري .

ثم تحرك الخيال اللبناني وانتفض ذلك العرق الأصيل في أحمد فارس الشدياق فخلق الأدب الجديد في الفارياق وكشف المخبأ ، واخرج لسان العرب من سراديب الحريري ودهاليز القاضي الفاضل .

وتحرك الخيال أيضاً فكان الكشف والاشراق على عقل الشدياق النير فأبدع سر الليال ، ثم نفخ في الصحافة نفخة احيتها وكان من ذريته النبيلة اسحق والحداد وعبده وصروف وزيدان وتقلا وغيرهم ممن اعجز عن عدهم .

وأبى اللبناني ان يستقر فعاد مارون النقاش من اوروبا يحمل الينا المسرح ، وكان بيته أول مسرح عربي .

وهب المعلم بطرس البستاني يطعّم ويلقح فأخرج من « جنانه » ثماراً جديدة شهية ، وجاءنا بالمحيط « الهادىء » ، « والدائرة » التي جعلت منه جماعة في رجل .

ثم ضاقت بالخيال اللبناني أرضه ، كما ضاقت من قبل ، فكانت الهجرة الثانية إلى الأقطار التي اكتشفها اللبناني الأول ، فحمل لغته في قلبه ولسانه ، وهب ينشرها في قارات الدنيا الخمس .

للأديان رسل ومبشرون ، واللبناني رسول لغته لا دينه ، ينقل منها واليها . وكما نشر اللبناني الأول ابجديته واختراعاته في دنيا الأمس فها هوذا لبناني اليوم ينشر لسانه العربي مبشراً برسالته الخالدة .

وأبى الخيال اللبناني ان يهدأ فكانت المدرسة الرومنطيكية الرمزية فخلقت القصة والشعر والنثر الجديدين .

انه لدم جديد لقحت به مدرسة جبران والريحاني أدبنا العربي الحديث

فوهبته مناعة ووقاية .

وأبى الخيال اللبناني ان يستقر فكانت في لبنان مدرسة شعر جديدة ، فيها ازرقاق البحر ، واخضرار الأرز ، وابيضاض الثلج ، واحمرار الشفق ، ووحي الفسق ، والموسيقى البعيدة القرار .

ولا يزال الخيال اللبناني عاملاً لا يستقر ، ولن يستقر . فالسديم يصير نجماً ، والنجم يمسي كوكباً ، ثم ينطفىء ليشع غيره . لا يتوارى نظام شمسي حتى يظهر وراءه نظام آخر . ان الأرض لا تظلم ما دام الخيال ساطعاً .

وكأني بالقارىء ينتفض قائلاً : هات لنا مثالاً لخيال لا وجود له إلا في خيالك . وأنا اجيب : على رأسي ثم عيني .

ان جبران خير مثال للعرق والبيئة اللبنانيين ، قديماً وحديثاً . فالشوق والضباب الجبرانيان من عمل الخيال اللبناني الأول . فسفر التكوين اللبناني ، وهو اقدم الأسفار عهداً ، افترض الشوق فاعلاً والضباب منفعلاً . فجبران في خلقه وخلقه لبناني أصيل ، يدين بالروح والحب . ولكنهما ماديان كما تخيلها اللبنانيون الأول ، فما المطْرة نبي جبران ، غير ميترا روح النور الالهي . وكأني بالعرق اللبناني قد تجمع كله في هذا الرجل ليجعله مثالاً لثقافته وخياله في عهديها ، ويرى الناس تطورهما في مسالك العصور .

عندما خطر لي هذا الموضوع خفت جماح العاطفة . فافترضت عدة ديكارت هنيهة وقلت : ماذا يحدث لو امحّى لبنان من سفر الوجود ؟

فرأيت السهول اقفرت ، والجنات صارت هشيماً ، والقرى والمدن والمدارس أمست خراباً ، فقلت : حقاً أن لبنان خزان الله العظيم .

ثم وثب الخيال وثبة أخرى فافترضت أن نسور هذا الجبل الملهم لم تطر أفواجاً أفواجاً إلى آسيا وأفريقيا وأوروبا وأميركا ، فرأيت ظل العربية يتقلص بعد انتشاره وخلت الدهر يمشي القهقرى ، فارتعت كمن دهمه الغروب صلاة الظهر . فقلت : إذن والله نحن موجودون وليس ما ازعم تبجحاً وابتهاراً .

فالى التفكير والتأمل ادعو الشباب المثقف والكهول العاملين ، والشيوخ الذين لم يعدموا طراوة النفس . ان الخلق يقتضيكم تأملاً عميقاً ، ونقاشاً صارماً وانتقاداً مراً ، وسعياً متصلاً . العبقرية هبة اجتهاد وثقافة ، والاشراق لا يدركه إلا المتأملون .

قال ريبو : المصادفات السعيدة لا تعرض إلا لمستحقيها . ففكروا لكي تستحقوها وتنتجوا ثماراً شهية تضعونها بكل فخر على مائدة أدبنا العربي الخالد. وإلا فانكم تقطعون الجاه الطويل العريض الذي خلعه الخيال اللبناني على لساننا العربي المبين .

فهرس الاعلام

— ب —

— ت —

— ث —

- ح -

- خ -

- د -

— ر —

— ز —

— س —

— ش —

— ص —

— ض —

فهرست الكتاب

يتناول شيخ النقاد العرب في هذا الكتاب عدداً من كتّاب النهضة في القرنين التاسع عشر والعشرين ، بالاسلوب الساخر الذي عرف به ، ويحدد اتجاهات هؤلاء الكتاب من خلال مجموع اعمالهم الادبية ، او اعتماداً على اثر أدبي واحد . وهذه الفصول النقدية التي يحتويها الكتاب اقرب الى ما سماه صنوه في الغرب الناقد الساخر اناتول فرانس « بالمغامرات بين الكتب ».

ان هذا الكتاب حلقة اخرى من تلك السلسلة النقدية التي تجشم ناقدنا الكبير كتابتها حلقة حلقة ، ليلقي الاضواء الشخصية الساطعة على نتاجنا الادبي ، قديماً وحديثاً . ولذا فلا بد للباحث المتتبع والناقد الرصين ، وللتلميذ المتعلم من ان يضم هذا الكتاب الى مجموعته النقدية ، ويبوئه المكانة اللائقة التي هو جدير بها ، بين آثار النقاد الافذاذ في الشرق والغرب .

الدكتور محمد يوسف نجم

